

درستی و تائید نبوت

نحو التوحید الاسلامی الیکبر

المؤلف

أشرف عبد الرافع الدربلی

دار سوزلر للنشر

Sözler
PUBLICATIONS

مِنْهُ الْبُحْرَانُ الْكَلِيمُ الْكَلِيمُ الْكَلِيمُ

عنوان الكتاب :
نحو التوحد الإسلامي الكبير

تأليف :
أشرف عبدالرافع الدرفيلي

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٧٠٨-٠٠٨-٨
رقم الإيداع : ١٧٧٣٥ / ٢٠١١
الطبعة : الأولى (٢٠١١)
حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر :
دار سوزلر للنشر

العنوان :
٣٠ شارع جعفر الصادق
الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفاكس : ٢٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢) +

TITLE :

NAHWA AL TAWAHHUD AL ISLAMY
AL KABEER

AUTHOR :

ASHRAF ABD AL RAFI'AL DARFELY

ISBN : 978-977-708-008-8

ARCHIVE NO : 2011 / 17735

EDITION : FIRST (2011)

ALL RIGHTS RESERVED

PUBLISHER :

SÖZLER PUBLICATIONS

ADDRESS :

30 Gafar El-Sadek St.

7th Nasr City Cairo

Egypt

Tel&Fax: +(202) 22602938

www.sozler.com.tr

e-mail: darsozler@gmail.com

در انتہائی نبتہ نالک لکھنؤ

مخول نوح جلال اللہ علیہ السلام الکتب

المؤلف

أشرف عبد الرافع الدرفی

دار سوزلر للنشر

Sözler
PUBLICATIONS

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن القارئ لرسائل النور يجد أنها تخاطب الإنسان وتحاوره وتلامس شعوره وجوارحه، وتحرك فيه دوافع الخير والمحبة والإيثار، وتبني في منهجية حياته مبدأ التعايش والتكامل بدلاً من الإقصاء والاستحواذ.

ولقد لمست من الرسائل أنها ترسخ مرتكزاً علمياً ومنهجياً ودينياً هاماً، وهو: الابتعاد عن إطلاق الأحكام الجزافية والقرارات المسبقة، والقناعات المبتورة عن الأدلة والبراهين الدامغة، والابتعاد عن رؤية الأشياء بنظارة سوداء، لأنه سيرى كل شيء أمام عينيه أسود، رغم اختلاف ألوانها وأشكالها.

والفاحص لرسائل النور عموماً، سيلحظ بكل وضوح، المرجعية الإيمانية لكل ما تطرحه من أفكار ونظريات وحلول، ولم تخرج رؤيتها لحوار الحضارات وتعايش الثقافات عن هذه القاعدة، بل وجعلت الإيمان هو المرتكز لأي وسيلة أو غاية لحل مشاكل الإنسانية في العالم، وما يعتريه من إضطرابات مادية وروحية.

ولعل جوهر هذه المرجعية الإيمانية، يعود لمنبع مصدريتها المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطهرة، وهذه المرجعية أفرزت طرْحاً وأفكاراً لبناء مجتمع عالمي مثالي، يسوده التفاهم والحوار المثمر، ويتكاتف فيه المجتمع الإنساني ككتلة واحدة، ومجتمعة وموصولة، لصد المد الإلحادي، ومواجهة أعداء الإنسانية، الذين أمسك الشيطان بزمامهم وعشعش في عقولهم وقلوبهم.

ومن العجيب أنك ترى الإمام النورسي لا يُقصر هذه الدعوة الإتحادية على المسلمين فيما بينهم فقط، بل ويدعوا المسلمين للإتحاد مع إخوانهم في الإنسانية من المتدينين من النصراري أيضاً والتحالف معهم، فنراه يقول في اللمعات:

إن أهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا، ليسوا بحاجة إلى الإتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعون أيضاً إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتاً كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً لعدوهم المشترك الملحد المعتدي.

ويحذر في موضع آخر من إثارة النعرات وإيقاظ الفتن، وذلك بطرح المواضيع المختلف عليها. حتى مع المؤمنين المنسوبين إلى فرق ضالة، لا ينبغي أن نثير معهم نزاعاً وخصاماً في هذا العصر العجيب، بل لا نجعل نقاط اختلاف ونزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى.

لقد إنطلق الإمام بديع الزمان سعيد النورسي من مبدأ العالمية الذي نادى به القرآن الكريم والمتجسد في قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾.

لذلك وظف الإمام النورسي الخطاب القرآني في الحض على إقامة علاقات ودية بين المجتمعات الإنسانية مهما اختلفت الألسنة والألوان والثقافات، تجسيدا وتحقيقاً للنص القرآني. ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾.

لهذا سعى النورسي. كما سجل في المکتوبات. إلى استثمار المخزون الإيماني لتحسيس العالم بضرورة التكامل ونبذ التناكر والتخاصم.

ولعل هذا ما دعا الأخ العزيز. أشرف عبدالرافع الدرغلي لإعداد هذه الدراسة القيمة، التي استمد نصوصها من رسائل النور للإمام النورسي، وهو واحد من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر.

والإمام النورسي كانت لديه قناعات ثابتة بأهمية الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلامية كما أشرنا ونبذ الخلاف بين إبنی الإسلام البارین السنة والشيعة. ورفع كل الخلافات التي تبعدهم ولا تقربهم، وتمزق وحدتهم ولا تجمعهم،

وقدم في رسائله العديد من العلاجات الشافية لكل ما هو نادر من قضايا شائكة بين المذاهب الإسلامية وغيرها، تلك القضايا التي حارت في حل طلسمها الأفهام والأقلام، والتي كانت سبباً في شيوع الخلاف الظاهري بين السنة والشيعة، وتم استغلاله من طرف ارباب السياسة بالداخل والخارج، بل وعمد الخارج على تخصيص الموارد المالية والبشرية من أجل توسيع الهوة والشقاق والتنازع بين أبناء الإسلام، وعمدوا على سلب كل ما من شأنه التقريب والوحدة، فأصابتنا الشيخوخة السياسية والجمود الجيلي من ناحية، وبدل أن نكون فاعلين لتقدم امتنا، اصبحنا صانعين لأزمتنا وتصلبت شرايين حياتنا، والتجأنا لسياسة المسكنات وترحيل أزماتنا.

ولعل الأخ أشرف الدرفيلي بفهمه الواعي ونظرتة الثاقبة، قد حالفه الصواب والتوفيق، حين جعل مرتكز كتابه مستمد من فكر الإمام النورسي، وهو فكر يتواءم مع الصحوة التركية وعودتها ودعوتها للوحدة والتقريب بين الإنسانية جمعاء، وإلى تطبيق تعاليم الإسلام، وهي التي كانت بالأمس القريب تعقد على رأسها لواء الخلافة الإسلامية، وكانت تسير على تطبيق نهج الوحدة التي وضع أولى لبناتها حضرة النبي ﷺ في المدينة المنورة ثم استمر في عهود الخلفاء الراشدين ومن سلك مسلكهم الإسلامي الصحيح المعتدل السمع، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: لأن هذه الدراسة تتواءم مع ثورات الربيع العربي الذي بشر به النورسي منذ أكثر من ستون عاماً، كمؤشر لوحدة المسلمين وتقدم الإسلام ونشر الإيمان.

وفي النهاية لا بد أن نضع أمام أعيننا ما أكده الرئيس الأمريكي الأسبق، نيكسون، في كتابه «الفرصة السانحة» الصادر عام ١٩٩١م، حيث ذكر أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية، لم يبق أمام أمريكا عدو إلا الإسلام، فقال:

«إن هدف امريكا من تواجدها وسيطرتها على الدول الإسلامية هو تأمين استمرار تدفق البترول، وضمان أمن وبقاء إسرائيل»

ومن أجل تحقيق ذلك يثير أعداء الإنسانية الأحقاد والشبهات والافتراءات، والنش في مقبرة التاريخ لتأجيج الصراعات، ولرسم صورة سيئة عن الإسلام لتغيير من يريدون الإعتناق به، ثم تشكيك المسلمين في دينهم وعقيدتهم وإبعادهم عنه ليصبحوا تأهين بين الأمم بلا هوية أو أهداف تجمعهم.

من أجل هذا نجد دعوة الإمام النورسي للوحدة الإنسانية والإسلامية، وجمع الصف، وأن يسلبوا من الأعداء المتربصين بهم أهدافهم، وأن يفسدوا عليهم خططهم، وأن يقطعوا الطريق أمام ما يبث في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها أصحاب الفكر المنخدعين، والتي تعمل على إبراز أن الإسلام خطر على العالم والإنسانية.

نسأل الله أن يجازي الإمام النورسي ومن قام بهذا العمل وساعد في إخراجه خير الجزاء، وأن يهدي إليه ويهدي به، وأن تتوحد الأمة الإسلامية على كلمة الحق والبر والتقوى .

المستشار توفيق علي وهبه

رئيس المركز العربي للدراسات والبحوث

عضو المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، سبحانه لا مانع لما وهب ولا معطي لما سلب، تفرد بالملك والبقاء، والعزة والكبرياء، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو قائم بلا عمد، ودائم بلا أمد، بالبر سبحانه معروف، وبالإحسان موصوف، معروف بلا غاية، وموصوف بلا نهاية، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا وحبينا وشفيعنا محمد رسول الله، فصل اللهم حبيبك ومصطفاك ومن أرسلته رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين. وبعد،

وصفة طيبة: لقارة شاسعة عظيمة الجانب. رديئة الطالع، ولدولة مشهورة عريقة المجد... سيئة الحظ، ولأمة عزيزة جلييلة القدر... بلا رائد.

إن سلسلة الإسلام النورانية، وتقوية رابطته، هي التي تجعل ملايين المسلمين - بسر الأخوة الإيمانية- كياناً واحداً، إذ أنها هي وحدها «نقطة الاستناد» وهي وحدها «نقطة الاستمداد»

إن قطرات المطر، ولمعات النور، كلما بقيت متفرقة، وظلت متناثرة، جفت بسرعة، وانطفأت حالاً، فينادينا رب العزة سبحانه قائلاً ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣)

وذلك ليحول بيننا وبين الانطفاء والزوال.

لا يخفى على كل عاقل ذي بصيرة، أننا أصبحنا في عصر لا يعرف إلا التكتل، فلو تكلمنا بمنطق العصر، أو بمنطق المصلحة، أو بمنطق الدين، فكل هذا يفرض على الأمة الإسلامية، وعلى كل ذي رأي ووعي، أن يسعى إلى الوحدة والتألف والتآخي والتساند.

منطق هذا الدين يجعل هذه الأمة أمة واحدة، وحد الإسلام عقيدتها، وشريعته، وقبلتها، وأسوتها ومفاهيمها، ومشاعرها، وتقاليدها.

فهي أمة واحدة في كل شيء كما قال ربنا ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢) وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢)

ولكن الواقع يؤكد أن هناك خطراً يهدد هذه الوحدة، مبعثه الدسائس التي تريد تفريق الأمة الإسلامية، وقد بدأ هذا منذ عهد رسول الله ﷺ، حينما تألف الأوس والخزرج على محبة الله ورسوله، وزالت بينهم البغضاء والشحناء التي كانت بينهم في الجاهلية، ولكن حين رأى اليهودي شاس بن قيس ذلك لم يروقه هذا، فغاظه أن يرى هؤلاء المتحاربين المتباغضين بالأمس، وطالما تحاربوا وسالت بينهم الدماء، أن يراهم متحابين ومجتمعين على عقيدة واحدة، فجلس بينهم يذكرهم بأيام الجاهلية، ولولا تدخل رسول الله لنشبت بينهم حروب طاحنة.

إن الإسلام أنهى القومية القبلية، والمذهبية المتعصبة، والطائفية العنصرية، وأوجد حبل الإسلام المتين، وتعاليمه السمحة المعتدلة، التي تجمع ولا تفرق، تبني ولا تهدم، وتدعو للاتحاد والتعايش وترفض الإقصاء والإختلاف.

ولكن الواقع المرير يؤكد كذلك أن العادة جرت أن نسمح عيوبنا وتخلفنا وخلافتنا وتقهرنا بأعداء الأمة، وأن نرد إليه ما أصابنا بوعي وبدون وعي، وكان الأجدر أن نلوم أنفسنا قبل أن نلقي باللوم على الآخرين، وفي كل مرة نثبت جدارتنا في سباتنا العميق وفي تخلفنا وقصور عقلنا، دون أن نتحرك ولو لمرة واحدة لندافع عن ديننا، لنثبت أن العيب فينا وليس في إسلامنا ومنهجنا،

وفي الحقيقة أننا أشغلنا أنفسنا وإهتماماتنا بالثرثرة اللفظية والتقاليد البالية، والبحث المرير في إيجاد الأدلة التي تؤيد الحكم بالتبديع لحالق اللحية، أو الأكل على المائدة، أو تقصير الجلباب، أو زيارة الأضرحة، أو من يسبح بالمسبحة، أو عمل المرأة والسلام عليها، وغيرها من الأمور التي شغل المسلمون بها أنفسهم، وتطاحنوا وتنافروا من أجلها، وهي في مجملها في الفروع.

بل وصلت الحدة للتعصب والتقسيم مبلغها، بين مسلمين صنفوا أنفسهم بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان (سني وشيعي وسلفي وجهادي، وهذا عربي وهذا عجمي، وهذا سوداني وهذا ليبي.. وغيرها من المسميات) بل وصل الأمر بالتقسيم والتطاحن حتى بين أصحاب التصنيف الواحد.

وهؤلاء تناسوا وتجاهلوا ما نص عليه القرآن بأننا أمة واحدة، وجسد واحد ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)

بل وتزال إلى يومنا هذا عقول بعض المتدينين مشحونة ومتأثرة بقضايا وأفكار مشوشة وسقيمة، ومؤسسة على جدل المتكلمين الأوائل، ومزلق المتصوفين المنحرفين.

هذا في الوقت الذي أصبحنا فيه عائلة على من نسميهم أعدائنا، فالسيارة من صنع أعدائنا، والطيارة، والصاروخ، والقطار، والملبس، والمصلى الذي نصلي عليه، والمسبحة، وكل شيء هو من مستلزمات حياتنا نستورده منهم، بل حتى مرضانا

عجزنا أن نعالجهم ونداويهم فذهبنا لمن نسميهم أعدائنا ليكشفوا لنا عن الداء ونستجلب منهم الدواء.

ونحن المسلمون نتشاجر على أمور وقضايا لن تعالج مرضانا، ولن توجد لنا الغذاء، ولن تمدنا بملبس نستر به أجسادنا، وانشغلنا هل الخليج عربي أم فارسي؟ وهل الفرقة الناجية هي السنة أم الشيعة؟ وهل المهدي عليه السلام من السعودية أم من إيران؟ وهل سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر (رضي الله عنهم وعن صحابة رسول الله أجمعين) أحق بالإمامة أم لا؟ وغيرها من القضايا.

وفي المقابل نرى المتباعدين في العالم يتقاربون ونحن نتباعد، يتوحدون ونحن نفترق، يتفقون ونحن نختلف، مع أنهم مختلفون ومتنافرون، ومتباعدون فكرياً ودينياً وأيدولوجياً وسياسياً.

النصارى أقرب بعضهم من بعض، رغم اختلاف مذاهبهم، بل كل مذهب كأنه دين مستقل.

واليهود جمعوا أنفسهم من جميع بقاع العالم واتحدوا من أجل تحقيق حلمهم التوراتي بإقامة دولة صهيون.

وعلى رغم ما أثبتته التاريخ من تعدد الحروب وسفك الدماء بين اليهود والنصارى، إلا أنهم تقاربوا وتحالفوا ضد عدوهم (من وجهة نظر بعض المتشددین كذلك) الإسلام، فأصدر الفاتيكان وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، بعد أن ظلوا عشرين قرناً يحملونهم تهمة ووزر صلب المسيح عليه السلام.

بل حتى العمالقة ممن يعتنقون الرأسمالية والشيوعية تقاربوا، تقاربت أمريكا مع روسيا، وتقارب الفريقان مع الصين.

الصين الذي يتجاوز تعدادة المليار نسمة - أي ما يقارب تعداد المسلمين في البلاد الإسلامية والعربية- ومع هذا يتوحدون تحت راية دولة واحدة،

وتصدر قراراتهم واحدة، والمسلمون يتنازعون على مسمى الزعامة الزائفة، وإذا اتفقوا على شيء كل خمسون عاماً فتلك معجزة.

كل العالم يتقارب، ونحن المسلمون وحدنا الذين نتباعد؟ هل هذا يقبله منطق؟ أو يستسيغه من له مسكة من عقل؟ وهل تجيزه مصلحة؟ أو يتلاقى مع منهج ديننا؟ هل هذا هو ما نكافىء به جهاد نبينا ﷺ وصحابته الأجلاء؟ هل هذا يكافىء عظمة ديننا الحق؟

من المفترض أن نحقق الخيرية التي كرمنا بها ربنا تبارك وتعالى، ونكون واجهة مشرفة للإسلام، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ولكن - للأسف الشديد - أصبحنا حاجزاً أمام دخول الأجانب للإسلام، أو حتى تعرفهم على منهجه الحقيقي السامح المعتدل، بدلاً من أن نجعلهم يتصورون أن الإسلام يعين على الاستبداد والظلم والإرهاب.

ولهذا يبين الإمام النورسي في كتاب «الخطبة الشامية» أن العامل الأساس في تحقيق أسباب تأخرنا وتخلفنا فيقول: لقد تعلمت في مدرسة الحياة الاجتماعية البشرية، وعلمت في هذا الزمان والمكان، أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى، في الوقت الذي طار فيه الأجانب - وخاصة الأوربيين - نحو المستقبل.

وتلك الأمراض هي:

- ١- حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبواعثه.
- ٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.
- ٣- حب العداوة.

- ٤- الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.
 ٥- سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة.
 ٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية».

إن الوقت عصيب، والمرحلة حرجة، والمرض نفسي، ولا وقت للتسويق والتأخير، ولا بد من الوحدة، ولا بد من تحقيق الأخوة الإسلامية والإنسانية بجميع دالاتها ومفاهيمها، حتى مع غير المسلمين، واقعاً عملياً، ومواقف إيجابية، من التعاون، والإيثارة، والرحمة، والعفو، والتكافل عند العجز، والابتعاد عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وكرامتهم، وليست شعارات وخطب، ومواقف سلبية عكس ما سبق، وإنما كما قال الشاعر:

أَنَا أَنْتَ وَأَنْتَ أَنَا نَحْنُ رَوْحَانُ حَلَلْنَا بَدَنًا

ومن الممكن أن يتحقق كل ما هو إيجابي إذا طبقنا قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ وَمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت ٣٤ - ٣٦)

وفي الحقيقة أجد من اللازم قراءة رسائل النور للإمام سعيد النورسي، لأنها نور يضيء الطريق أمام جميع القضايا المظلمة، ويتخط المسلمون في حلها.

لهذا جعلت زادي في كتابة هذا الكتاب هي رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي، لأنني وجدتها جوهره ثمينة، ودره يتيمة، وجمعت حلولاً لقضايا شائكة عديدة، وغاص صاحبها في كتاب الله وسنة نبيه بحكمة ولين، وبفكر مستنير، وعقل نافذ، ومنطق طبيعي، وتدبر واعي، وتتبع الأمراض الفاشية في الأمة فأخرج لها من القرآن والسنة العلاج النافع، بعيداً عن الإسرائيليات والأساطير، أو التهجم على فريق لنصرة فريق آخر، ولكنه تعامل بحيادية القرآن والسنة، لا يحابي طرف في الحق على حساب آخر، بل يحكم بما يستنبطه من القرآن، حتى ولو على نفسه.

وكذا اكتملت الكليات من الرسائل في عقد منظوم، فجزى الله الإمام النورسي عنا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء، وجزى الله طلاب النور في كل مكان الثواب الجزيل.

ونسأل الله أن يوحد الأمة على المحبة، وأن يؤلف قلوبهم على التقوى، وأن يجمع شملهم في الدنيا والآخرة، وأن ينزع الغل والحقد والحسد من قلوبهم، وأن يشرح صدورهم، وأن يستعملنا لكل عمل صالح حتى يتحقق فينا قول خير الأنام ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، قيل وكيف يستعمله يا رسول الله؟ قال يوفقه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه».

فنسأل الله حسن الخاتمة لجميع المسلمين، وأن يرزقنا جميعاً الإخلاص فإنه باب القبول والإقبال، ويحفظنا من قول بلا عمل، وعمل بلا صدق، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والكمال لله وحده، ونحن بشر، فأرجو العفو ممن يقرأ هذا الكتاب ويجد فيه خطأً أو نسياناً أو زللاً.

المؤلف

أشرف عبدالرافع الدرفيلي

وللتواصل والمشاركة والتحاور:

Email: ashrafrfaa@yahoo.com

وحدة الأصل الإنساني

مما لاشك فيه أن الناس جميعاً على اختلاف أجناسهم، وتمايز ألوانهم، وتباعد أقطارهم، وتنوع مشاربهم، يرجعون إلى أب واحد، وأصل واحد، فأبوهم آدم وأمهم حواء.

ولقد تعدد ذكر هذه الحقيقة في القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبينها للمسلمين بأساليب شتى، وآيات متعددة، لكي يضعوها دائماً في حسابانهم وأمام أعينهم وتكون الأساس في علاقتهم مع غيرهم من بنى جنسهم، حتى لا تظلل على عقولهم ويتوهموا أنهم أُمّيز أو أفضل من غيرهم من بنى البشرية، أو بعبارة أوضح «شعب الله المختار وغيرهم شعب الله المحتار» ثم التمييز حتى بين أنواع الدم، فنسمع: «الدم السامي والدم الخسيس الواطي».

قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

فهذه الآيات العظيمة وغيرها، تقرر أصولاً أساسية في الإسلام الحنيف، ومرتكزات لا تقبل التغيير أو التبديل، وذلك من أجل أن تعيش الإنسانية متآخية،

يجمع بينها الحب، ويتعايشون على مبدأ التعاون والتساند والتعايش، بدلاً من الصراع والقوة والعنصرية.

وكما يقول الإمام النورسي في تفسيره لآية الحجرات: «أى خلقناكم طوائف وقبائل وأمماً وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً، وتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية لتتعارفوا فيما بينكم، ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا وتتخاصموا.

وكذلك الأمر في المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم، فقد قسم إلى قبائل وطوائف، مع أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة، إذ خالقهم واحد، ورازقهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد.

وهكذا واحد، واحد، إلى الألوف من جهات الوحدة، التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة.

بمعنى أن الإنقسام إلى طوائف وقبائل كما تعلنه الآية الكريمة، ما هو إلا للتعارف والتعاون لا للتنكير والتخاصم»^(١).

فالجميع خالقهم واحد، وأبوهم واحد وهو آدم عليه السلام، وأمهم واحدة وهي حواء، ومن آدم وحواء تسلسل منهم سائر الناس بالتوليد والتكاثر.

والمولى تبارك وتعالى ما جعلهم شعوباً وقبائل مختلفة ومتنوعة في المكان، والزمان، واللون واللغة، إلا ليحصل التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة.

والإمام النورسي رضى الله عنه، كثيراً ما تحدث عن الأخوة الإنسانية، القائمة بين كافة البشر منطلقاً من قول رسول الله ﷺ: «كلكم لأدم من آدم من تراب»

وقوله ﷺ: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى»^(٢)

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم، ص ٤١٢-٤١٣، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٢) حديث شريف؛ رواه مسلم في صحيحه.

ولهذا فإن الإمام النورسي يبين في كتابه الرائع «المثنوي العربي النوري» أنه يرى: «أنه بسر الإيمان والتوحيد، يرى أخوة بين كل الكائنات، وأنسية وتحبباً بين أجزائها، لاسيما بين الأدميين ولاسيما بين المؤمنين، ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي، وتلاقياً في المنتهى، والنتيجة في المستقبل»^(١)

وبناء عليه: فإن تلك الأخوة (الأخوة الإنسانية) التي تستند إلى وحدة الأصل الإنساني، تستوجب أن يؤدي حقها، بأن يعيشوا مع بعضهم البعض في حب ووثام وسلام، رغم إختلاف العقائد والأديان، وحتى هذه الاختلافات يمكن أن نتحاور معا حولها، بأسلوب لين وهادئ، دون اللجوء إلى سفك الدماء، وإنتهاك الأعراض والحرمان.

وإذا كان الخطاب القرآني والسنة النبوية يؤكد وحدة الأصل الإنساني، فإن المسلمين هم أحق وأجدر وأحوج إلى تفعيل وتحقيق الوحدة الإسلامية، تبعاً لما يأمر به هدى كتاب ربهم، وتمسكا بتعاليم نبيهم، وتطبيقاً لوحدة قبلتهم.

(١) بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، ترجمة إحسان قاسم، ص ١٨١، سوزلر، القاهرة،

المبادئ الإسلامية العامة للعلاقات الإنسانية

التكريم الإلهي للإنسان

مطلق الإنسان، بغض النظر عن دينه، أو عرقه، أو جنسه، أو لغته، أو لونه.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ويترتب على هذا: أن الإنسان مصون، وأن نفسه محترمة لمجرد دخوله الدائرة الإنسانية.

ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال «مرت بنا جنازة قام النبي ﷺ وقمنا، فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: أوليست نفساً، إذا رأيتم الجنازة فقوموا»^(١)

والإمام النورسي يرى: «أن الإنسان أجمع ثمرة من ثمرات هذا الكون»^(٢)

ويبين الإمام النورسي: «أن الله تعالى خلق الإنسان وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرساً لكتاب العالم. وأودع في جوهره أنموذج مشكاة لعالمه، ومراة له، وللصفة المتجلية فيه، والاسم الظاهر منه، فيكون الإنسان بروحه وجسمه خلاصة عالمي الغيب والشهادة، ويتجلى فيه ما تجلى فيها»^(٣)

ثم يبين أن الإنسان هو قطب الكائنات ومحورها بل «إن موجودات العوالم الأخرى، قد أوجدت على شكل دائرة واسعة، بحيث يتبوأ الإنسان فيها مركزها، فالغايات المرجوة من الأحياء عادة تتمركز في هذا الإنسان، والخالق الكريم يحشد

(١) حديث شريف؛ رواه الإمام البخاري في صحيحه.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة إحسان قاسم، ص ٤١٠، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: اشارات الاعجاز، تحقيق إحسان قاسم، ص ٢٧، سوزلر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

جميع الأحياء حول الإنسان، ويسخر الجميع لأجله وفي خدمته، جاعلاً هذا الإنسان سيداً عليها، وحاكماً لها، فالخالق العظيم يصطفى الإنسان من بين الأحياء، بل يجعله موضع إرادته، ونصب اختياره»^(١).

المساواة بين الناس جميعاً

المساواة في أصولهم، وإرتباطهم بروابط النسب المشترك، فالإنسانية كلها متصلة في نسبها الأعلى، يدل على ذلك الحديث النبوي من خطبة الوداع «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٢) حديث شريف رواه مسلم في صحيحه.

وعلى هذا كانت المساواة أصلاً بين الناس، وما اختلاف في أجناسهم ولغاتهم، إلا آية من الآيات الدالة على قدرة الخالق ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

ويرسخ الإمام النورسي هذا المبدأ، وهو المساواة في العلاقات الإنسانية، وذلك من خلال إجابته على سؤال تم توجيهه إليه، عن كيفية مساواة المسلمين مع غير المسلمين؟

يقول: المساواة ليست في الفضيلة والشرف، بل هي في الحقوق، فالسلطان الملك والفقير المسكين، كلاهما سيان في الحقوق.

ألا تكفي لتصحيح خطئهم هذا، محاكمة أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه، مع يهودى فقير، ومرافعة صلاح الدين الأيوبي - وهو مدار فخركم - مع نصراني مسكين»^(٣).

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٤٧٠.

(٢) حديث شريف؛ رواه الإمام مسلم في صحيحه.

(٣) بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٩٨، ٣٩٩.

ثم قصة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع المصري الذي جاء يشكو إليه ما فعله ابن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

فلما حضر عمرو بن العاص وابنه موسم الحج، أعطى سيدنا عمر رضي الله عنه الدرّة للمصري وقال له: «أضرب ابن الأكرمين»

ثم التفت سيدنا عمر بن الخطاب وقال لسيدنا عمرو بن العاص قوله الخالدة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»

حرية العقيدة

أرسى الإسلام مبدأ النهي عن الإكراه في العقيدة، واستنكر فكرة القهر لإدخال الناس في ملة أو نحلة أو دين أو مذهب، ومن هنا فإنه لا يجوز إرغام أحد على الدخول في دين من الأديان أو الخروج منه لأن الإكراه على إعتناق دين من الأديان، ينتج ويفرز منافقين متعصبين، لا مؤمنين مسامحين.

ومن هنا كان المبدأ القرآني الواضح في حرية العقيدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

قال تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩).

ولقد خاطب المولى تبارك وتعالى حبيبه ونيبه ورسوله ﷺ ببيان تحرير العقيدة من كل المؤثرات، فليس ثمة إكراه لأحد على أن يعتنق أى دين معين.

ومذكراً إياه في نفس الوقت، بقدرة الله على أن يجعلهم مؤمنين إن شاء الله تعالى ذلك، فقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

وبين ربنا أن اختلاف الناس، سنة ماضية من سنن الله في خلقه ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود: ١١٨).

ثم بين ربنا أن وظيفته ﷻ، محصورة في التبليغ والتذكير فقال تعالى ﴿ فَذَكَرْنَاكَ أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿ (الغاشية: ٢١-٢٢).

ثم بين ربنا أن التوفيق للهداية منوطة على صدق العبد مع الله، فقال تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٢)

حرمة دماء الناس وأموالهم

هذا المبدأ لا يقف عن حد التعامل بين المسلمين فقط، بل أن هذا المبدأ يطبق في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، مالم يكن غير المسلمين أعداء أو محاربيين.

وقد قص الله تعالى في القرآن ما عاقب به الأمم السابقة لما طغت، واستبدت، واستعبدت وخربت، وأفسدت، وأهلكت الحرث والنسل لبني جنسهم الضعفاء.

قال تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * فأكثرها فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾ (الفجر: ٦-١٤).

وليس هذا فحسب، بل يؤكد القرآن على تحقيق الأمن، وحفظ وصيانة الأنفس، وحمايتها من التلف وحماية حرياتهم من أى عنف.

ولهذا فإن الله تعالى نهى نهياً شديداً عن قتل النفس البريئة بغير حق، فقال تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ
 تَهُمُ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ (المائدة: ٣٢).
 ومن أجل بيان حرمة دماء الناس، وأموالهم، وأعراضهم، رسخ هذا البيان بخطوة
 إستباقية تمنع إنتهاك هذه المحرمات، من خلال عدم الإعتداء والتجاوز على حرمت
 الغير، وأن من يقع في هذه السقطة الشنيعة، فإنه مطرود، وخارج عن دائرة الفوز
 بمحبة الله، فقال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وفى ضوء التشريعات السابقة، سعى الإمام النورسي إلى بيان أن ربانية
 التشريع الإسلامى السمح وواقعيته قضيت أن «تضع أعظم دستور للعدالة
 المحضة التى تقرر: أنه لا يهدر دم برئ ولا تزهق روحه، حتى لو كان فى ذلك
 حياة البشرية جمعاء»^(١)

بل إن سماحة الإسلام تحث على إحترام الإنسان لإخيه الإنسان، والإحسان إليه،
 والبر به والعدل فى معاملته، وعدم التعرض له بالأذى، حتى وإن كان غير مسلم.
 قال تعالى ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ
 دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة: ٨).

لحظة صدق ونظر وتدبر

إذا كان الناس أصلهم واحد بنص القرآن والسنة، ولا يتغير هذا الأصل بتغيير
 المكان والزمان، فلا يقال هذا أمريكى وهذا عربى وهذا هندي وهذا صيني، فأرجعنا
 بذلك أصله الإنسانى إلى اسم مكان، أو دولة، قد يتغير بين حين وأخرى، أو نقسم
 بين أصناف البشر وتعدد ألوانهم ولغاتهم، ونلحق نسبهم لغير أصل جنسهم.
 وإذا تقبلنا هذه المسميات التى تتسم بالعنصرية السلبية، فإنه لا يمكن أن تكون
 مقبولة بين أصحاب الدين الواحد.

(١) النورسي: صيقل الإسلام ص ٣٣٧

ولو تقبلنا التفرقة بين أفراد البشر في دين واحد، مثل النصرانية، التي يقسم بعضهم بعضاً، هذا كاثوليكي، وهذا بروتستانتي، وهذا إنجيلي، وهذا...، لدرجة أنهم يرفضون تواصل الجنس الإنساني المخالف لهم في المذهب، ويرفضون زواجه.

فإن هذا غير مقبول في الإسلام، ولا يقبله صاحب عقل سليم، ولا تستسيغه نفس سوية، لأن كتابهم وسنة نبيهم واضحة جلية، بأنه لا فرق بين إنسان وإنسان، مهما اختلف أديانهم ولغاتهم وأماكنهم، فكيف يكون الحال بأصحاب دين واحد، ومقرون بإله واحد، وبني واحد، وكتاب واحد ثم يتفرقون من أجل إستنباطهم لأمر دينهم الفرعية، تحت مسميات مذهبية لاقيمة لها، إذا قسناها ووازناها بروابط الإسلام العظيمة، فيتهجم هذا على هذا بمسميات تكفيرية وتبديعية، مع أنهم جميعاً متفقون على الأصول والأسس والمرتكزات، بل ومتفقون على جوانب فرعية كثيرة لا تعد.

لا يتصور إنسان عاقل أن يتهجم مسلم على مسلم غيره شهد أنه لا إله إلا الله، ثم يصدر حكمه عليه بالتكفير، وإخراجه من دائرة الإسلام.

ولعل سيرة رسول الله لم يسجل فيها، أن أصدر حكماً بالتفكير على أحد، حتى المنافقين الذي شهدوا بتوحيد الله ونبوة رسول الله ﷺ، مع أن الرسول يعرف بنص القرآن أنهم منافقون، والقرآن فصح أمورهم، ومع هذا لم يصدر عن النبي حكم بتكفيرهم.

فكيف يكون الحال مع من يصدر تهماً على الغير بالتكفير والتبديع والتضليل، مع أن هذا الغير يشهد بالله رباً، ولسيدنا محمد نبياً، وبالقرآن كتاباً ودستوراً، وبالكعبة قبلة واتجهاً.

مع أن الآخر الذي يصدر الحكم - وبعبارة أخرى: الآخر الذي نصب نفسه نائباً ووكيلاً عن الله في التفتيش عن قلوب العباد، وإصدار الأحكام - يشهد بما شهد به

من مخالفه الرأي أو المذهب، بأن الله واحد، وسيدنا محمد النبي الخاتم، والقرآن هو دستور المسلمين، فأين ما يثير الاختلاف والتنازع؟

وكيف يتقبل إنسان عاقل، أن يحجر إنسان على الآخر حرية الإجتهد، وحرية الرأي، ويعمل على إلزام من يخالفه الرأي والمذهب بالقبول، دون أن يقبل نقاشه وحواره؟

إذا كان الإسلام بنى مبدأ حرية العقيدة حتى لغير المسلم، فلا يتوافق ذلك الإلزام مع حرية المسلم واختياره للعمل بأي مذهب يتوافق مع الكتاب والسنة.

لا يمكن أن يتطاحن المسلمون فيما بينهم، ويهدرون وقتهم وعمرهم وثرواتهم، من أجل أن يتفنن كل واحد في إيجاد قاعدة ينطلق منها لمهاجمة من يخالفه في الرأي والمذهب، ويخترعون في الأساليب والأدوات التي تمكنه من الانتصار على مخالفة، ويهدرون الوقت والمال في ذلك.

في الوقت الذي يشترون فيه الجلبات والمسبحة والمصلاة التي يفتشونها لتأدية فريضة الصلاة من الصين، ويجلبون مخترعات الغرب، فيأتون بالسيارة الأمريكية، والماكينة الألمانية، والطائرة البريطانية والتلفزيون الياباني، والقمح السوفيتي، واللحم البرازيلي.

إذا فنتاج هذا الخلاف، والتطاحن، والتشاحن، لم يخلق إلا العار، والذل، والهون، وأصبح أداة للتخلف والتشردم، وإهدار ثروات الأمة وعزها ومجدها، بل والأهم: أن الأمة الإسلامية المأمورة بالتعمير والإستخلاف وأصبحت عالة على غيرها.

وبعد أن كانت الأمة تسوق العالم، أصبحت تُساق كما يسوق الرأي نعاجه وإبله. وبعد أن كانت لها الكلمة العليا، أصبحت تُملى عليها القرارات والكلمات، وليس لها حق الاعتراض أو إبداء الرأي.

كيف يحدث هذا لأمة تتشرف بانتسابها لخاتم الأنبياء والمرسلين، وتستظل وتنطق بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ودستورها القرآن؟

كيف يحدث هذا لإمة رسولها محمد سيدنا محمد ﷺ، وكانت بالأمس القريب تبسط نفوذها حتى وصل إلى حدود فرنسا والصين وآسيا، وكانت تفرض الجزية، فأصبحت بين يوم وليلة يُفرض عليها الجزية، بل لا يُنتظر منها أن تقوم بدفعه، وإنما يأخذ غصباً وقهراً، وفي أي وقت تشاء.

كل هذا بسبب تخاذل المسلمين، وابتعادهم عن منهج الله ومنهج رسول الله، وبسبب خلافات فرعية، لا تركها، أو فعلها، أو قبولها، أو رفضها، أمرٌ ذا قيمة، أو مكسب أو خسارة.

ليس عليه معول كبير في مصير قرار الإنسان الأخرى، وليس عليه تحديد مصير الإنسان في الجنة أم في النار.

ولكن الذي نعرفه جميعاً بنص القرآن والسنة، أن من يحرص على تكفير أخيه، أو قتله وإراقة دمه بدون حق، فإن مصيره النار.

ونعرف أن من يعمل على تهيج المشاعر بين الناس باسم الدين (والدين منه برئ) ويزرع العداوة والبغضاء والحقد والكراهية، فهو بعيد عن دائرة المتحايين بالله في الآخرة، ومخالف لما أمر الله به من الإصلاح بين الأخوين.

حيث نرى مثلاً: أنظمة تجند جميع مؤسساتها الاعلامية (المقروءة، والمسموعة، والمرئية) وغير الاعلامية، لتشويه صورة نظام إسلامي معادي، ليس له، أو لشعبه، ولكنه معادي لمن يخالفهم من غير المسلمين، وتنتقل هذه العدوى بين الشعوب، لأنه كما يقال «الناس على دين ملوكهم» ويُجند رجال الدين باسم الدين، للقيام بدورهم وولاءهم للنظام الذي يتسبون إليه، ثم تدور الدنيا دورتها بأمر من أوجدها وهو الله تعالى، ويسقط رأس النظام، أو يموت، ولكن الفتنة التي أشعلها بين شعبه المسلم والشعوب الأخرى لم تمت، فإن هذا ينطبق عليه قول الرسول ﷺ:

«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»

ولكن ألا توجد بين شعوب العالم الإسلامي مقومات مشتركة تجمع ولا تفرق، توحد ولا تمزق يكون فيها المسلمون جميعاً كجسد واحد كالبنيان المرصوص، بدلاً من جبهات متنافرة، تراق فيها الدماء، ويرمى بعضها البعض بالرصاص؟

هذا ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية، حيث سنحاول الكشف عن أبرز وأهم العوامل المشتركة التي تجمع المسلمين في مشارق الأرض ومغربها.

أهم الركائز المشتركة بين المسلمين

نعم إن بين المسلمين الكثير من العوامل والمقومات المشتركة، والدعائم القوية المتينة، التي أرسى مبادئها القرآن الكريم، ورسخ قواعدها حضرة النبي في سنته الشريفة، لكي يكون المسلمون أخوة ووصفاً واحداً، وجسداً واحداً سليماً من أي عاهات أو أمراض أو أعطاب، بل إذا أشتكى منه عضو تداعى له باقى جسد الأمة بالسهر والحمى، يئن لأنته، ويفرح لفرحته.

ومن هذه المقومات ما يلي:

١ - وحدة العقيدة

لقد كان الناس قبل الإسلام يعيشون حياة مادية قاسية، تتحكم فيها الفرقة والخصام، وتسودها مشاعر الحقد والكراهية، لاتجمعهم ألفة، ولم تُوحد بينهم كلمة، ولا يدينون بدين الحق.

عاداتهم سيئة، وأخلاقهم منحلة، وأفكارهم مضطربة، وعقائدهم فاسدة، تهلكهم العصبية الجامحة والتقاليد الكاذبة، ويتقاتلون وتسال الدماء من أجل بقعة عشب تأكلها البهائم، وسبب كل هذا وغيره أنه لا ضابط من دين، ولا قائد من عقيدة تُعلم الناس الخير وترشدهم إلى طريق الحق.

لذا كانوا في حاجة إلى عقيدة حقة، توحد صفوفهم، وتجمع شملهم، وتقوى شوكتهم، وترفع راية الحق خفاقة.

فمن الله على الإنسانية بالإسلام، وأمرهم بالاعتصام بحبله المتين، فهو الدين الكامل والخاتم، وهو النعمة الكبرى التي تستحق الشكر من البشرية للواهب المنعم، ويذكرنا ربنا بتلك النعمة فيقول ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَيَّ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران: ١٠٣).

والعقيدة الإسلامية جمعت المسلمين تحت كلمتين إثنين، هما لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فهاتان الكلمتان تمثلان ليس فقط الشهادة بوحدانية الله ورسالة سيدنا محمد ﷺ بل يمثلان لمن ينطق بهما، شهادته بالدخول في وحدة متجانسة مع بنى جنسه ودينه، وأنهم جميعاً أصبحوا جسداً واحداً، ويلهج لسانهم جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، مهما اختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وأشكالهم، بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فالإقرار بشهادة واحدة تعد من أهم الركائز لوحدة المسلمين ووحدة عقيدتهم، بغض النظر عن اختلاف آرائهم ومذاهبهم وتوجهات أفكارهم، فالجميع يؤمن بإله واحد ورسول خاتم.

كما أن وحدة العقيدة جددت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم، فإذا كانت أبوة آدم عليه السلام أبوة مادية، تجمع بين الأمة الإسلامية، وتوحد بينها في الأصل، فإن العقيدة الإسلامية هي أبوة روحية عظيمة، وهي أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب، والمسكنة في الوطن والمشاركة القومية، وبالأحرى: فإن أرض عقيدة الإسلام الخصبة بالسماحة والأخوة والمحبة لا يوجد على سطحها أفكار عرقية أو عنصرية.

ووحدة العقيدة الإسلامية كما يقول الإمام النورسي: «وضعت وأسست منهاج متكامل، ينظم الحياة الفكرية والنفسية للمسلم وفق صبغة ربانية، فالعقيدة الإسلامية هي مرجع للمسلمين في قضاياهم وأمورهم، كما أنها معلم لعقولهم، ومنور لقلوبهم، ومرب لنفوسهم ومزكي لها»^(١)

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٥٨٤.

كما أشار الإمام النورسي إلى فعالية وحدة العقيدة الإسلامية في شد الأواصر الاجتماعية وإدامتها وتقويتها، لأن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعى حتماً توحيد قلوب المؤمنين على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه تقتضى وحدة المجتمع»^(١)

ولقد أفنى النورسي حياته من أجل الوحدة الإسلامية الجامعة، وبين ضرورتها لظهور الأمة الإسلامية، وإخراجها للإنسانية نبراساً تُقتدى به، وبَيَّنَ بلسان شخصيته السياسية القديمة في رسائل النور «أن وحدة العقيدة لا تلتقى ولا تتعامل مع الفكر القومي العنصري، الذي يبزغ شيوعه في العالم الإسلامي، تحت تأثير عوامل شتى، ونفى أصالته وصوابيته، فهذا الفكر السلبي العدوانى المخالف للقصيده، قام بزرقه ظلموا أوروبا الحاكمون بين المسلمين ليمزقوهم ويفرقوهم شذر مذر، ليسهل عليهم إبتلاعهم قطعاً متناثرة»^(٢)

هذا الفكر غير مقبول إنسانياً، كما أنه يولد المخاصمة والنزاع بين الشعوب الإسلامية، ويستهلك طاقاتهم، وهذا الفكر من جهة أخرى لا يوافق الأصول الإيمانية، فالمسلمون «لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة، إن خالفهم واحد، ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد ووطنهم واحد. وهكذا واحد، واحد.. إلى الألف من جهات الوحدة التي تقتضى الأخوة والمحبة والوحدة»^(٣) والتآلف والتعارف والتعاون والوحدة والتماسك.

٢- وحدة المصدر التشريعي (القرآن والسنة)

يمثل وحدة المصدر والدستور، الذي يتعامل به المسلمون، ويتعايشون على أسس منهجه، أصل أصيل في وحدة المسلمين.

ومما يؤكد أهمية وحدة المسلمين، أن الله كرمهم وشرفهم بأن جعل آخر

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٣٤١.

(٢) النورسي: المكتوبات (٢٠٠٤)، ص ٧٩.

(٣) النورسي: المكتوبات (٢٠٠٤)، ص ٤١٣ - ٤١٤.

خطابه للبشرية، وآخر اتصال للأرض بوحى السماء، هو كتابهم الخالد، الذي تعهد الله بحفظه وصيانته، بحيث لا تصل إليه أيدي العابثين ولا المحرفين، فقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) .

ووحدة المصدر تبين شرف أمة رسول الله ﷺ على سائر الأمم، وأنها تستمد وحدتها من وحدة مصدرها، وذلك ما بينه رب العالمين وأكد عليه بنص القرآن، فقال تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢) .

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: ٥٢) .
ووحدة المصدر تؤكد وحدة الإعتصام بهذا المصدر قال تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣) .

والرسول ﷺ يؤكد على وحدة أصحاب هذا المصدر، فيقول: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وستتبعه» .

ومن خلال وحدة المصدر، تستقى الأمة الإسلامية رحيق هدايتها للصراف المستقيم، وطاعة خالقهم رب العالمين.

قال تعالى ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢-١) .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤) .

وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٥) .

وهو كتاب ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٦) .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠-٢١) .

ووحدة المصدر (القرآن والسنة) تبين ما يتميز به أصحاب هذا المصدر، من سمياء وميزات وحدوية فريدة، وخصوصية نادرة، وهذه المميزات تؤكد أن المسلمين أمة واحدة، فلا تقتصر هذا الميزات على مسلمين في منطقة دون منطقة، ولا أصحاب لغة دون أصحاب لغة، ولا يتميز بها جنس عن آخر.

فالمولى تبارك وتعالى بين أن من يسيرون على نهج وطريق هذا المصدر «القرآن والسنة» فإنهم يفوزون ويتسمون بالخيرية، فقال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وهذه الخيرية التي فازوا بها من خلال انتسابهم للإسلام، تفرض عليهم أن يكونوا دعاة للخير، فقال تعالى ﴿ وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ومن أعظم نعم الله، التي تستحق الشكر والحمد للواهب المنعم، أن يسر لأصحاب هذا الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه طريق الهداية، وإتباعهم لخاتم رسل الله للعالمين ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وهذه النعمة العظمى تستدعى وحدة الصف، ووحدة القلوب، فدستورهم واحد، لا يفرق في أحكامه بين أحد، وعباداتهم واحدة، وأحكامهم وحدودهم واحدة، وتفصيل معاملاتهم واحدة.

فالقرآن يقرر على الجميع دون استثناء ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الرِّبَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢) وقرر على الجميع دون استثناء ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٤).

وقرر على الجميع دون استثناء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقرر على الجميع سنة وشيعة، تنفيذ قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٤٣).

ويقرر على الجميع في المعاملات، بالابتعاد عن الربا، وأن يكتب الدائن والمدين ما يجرى بينهم من معاملات، ويقرر تحريم شرب الخمر.

وباختصار شديد لم يفرق القرآن في أوامره ونواهيه بين شخص وآخر، ولم يفرق في تنفيذ أحكامه وأوامره ونواهيه بين سني وشيعي، أو بين من يسكن في القارة الأفريقية ومن يسكن في القارة الهندية أو الأوربية، بل الجميع أمام كتاب الله وسنة رسوله سواء، في الحكم والتطبيق، وفي الحقوق والواجبات.

كما أن وحدة المصدر حددت وبينت، المسلك والطريق للمسلمين ولل بشرية جميعاً، من أجل أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعيداً عن الشطحات والنطحات، وبعيداً عن التخبط والإلتواء والأهواء وذلك من أجل أن يتلقى المسلمون في الطريق الواحد، يتوحدون فيه لمعرفة من خلقهم وأوجدهم.

ولهذا يرى الإمام النورسي: أن القرآن الكريم «هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألستها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي

الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخرى.. وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.. وكذا هو مربّبٌ للعالم الإنساني. وكالماء والضيء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهيدي إلى ما خُلقَ البشر له.. وكذا هو للإنسان كما أنه كتابٌ شريعة، كذلك كتابٌ حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتابٌ واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزلٍ مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه قد أبرز لمُشربٍ كل واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلِكٍ كل واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين، رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المُشرب وتوثيره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل.

وأعلم أن القرآن خطاب ودواء لجميع طبقات البشر، من أذكى الأذكياء، إلى أغبى الأغبياء، ومن أتقى الأتقياء، إلى أشقى الأشقياء، ومن الموفقين المجدين الفارغين من الدنيا، إلى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا»^(١).

٣- وحدة العبادة:

أنعم المولى تبارك وتعالى على الأمة الإسلامية، بالعديد من الروابط التي تربط بينهم، وتغرس الوحدة والألفة والمودة والمحبة في قلوبهم، فتجعلهم كجسد واحد، ولكي يتماسكوا في بنينهم المادي والمعنوي، فيكونوا كالبنين المرصوص.

ولعل نعمة الطاعة والعبادة في الإسلام، لا تقف في حُكمتها ومعناها ومغزاها عند حد التقرب إلى المولى تبارك وتعالى فقط، بل إن لها من الحكمة، ما يجعل من تأديتها منبعاً للأخوة والشفقة والرحمة، ومحفزة للتساند والتعايش والتآلف والتعارف.

(١) النورسي: المثوي العربي النوري، ص ٦٩.

فالصلاة: أمرنا ربنا تبارك وتعالى بها للتقرب إليه، ولكي تكون عاملاً أساسياً للوحدة بين المسلمين، وصفاً واحداً لا اعوجاج فيه.

ومن أجل تحقيق الوحدة بكل معانيها، فرض المولى تبارك وتعالى خمس صلوات في اليوم والليلة على كل مسلم بالغ عاقل، لكي يتلاقى المسلمون فيها، ويتعارفون ويتوحدون، وتجتمع قلوبهم على محبة الله وطاعته.

بل ومن أجل تحقيق هذه الوحدة من خلال فريضة الصلاة، أجزل المولى جل وعلا في العطاء ومنح من ينضم لقافلة الجماعة (سنة وشيعة، بل كل مسلم مهما كان مذهبه ما دام ينطق بالشهادة) العديد من العطايا.

فمنح من ينضم للجماعة في الصلاة سبعاً وعشرين درجة يفوز بها، أما من يصلي منفرداً بعيداً عن دائرة الجماعة، فلا يغنم بهذا الفضل الرباني، وفي هذا إغراء شديد للإنضواء في كنف الجماعة ونبذ العزلة والفرقة، ودفع بالإنسان المسلم للإندماج والزوبان في دائرة الجماعة والوحدة.

ومنح من يصلي في كنف الجماعة، بفوزه بأنه في ذمة الله وضمانه، قال رسول الله ﷺ: «من صلى في جماعة فهو في ذمة الله تعالى»^(١).

ومما يبين أهمية الجماعة والاتحاد في الإسلام، وجوبها في أوقات السلم وأوقات الحرب سواء بسواء، ففي أوقات الحرب تصلي جماعة وتقوم مجموعة أخرى بالحراسة، فإذا ما فرغت الجماعة التي تصلي، تبادلت الأدوار.

فأنظر كيف يصنع الإسلام من خلال فريضة الصلاة الاتحاد والوحدة، فجميع المسلمين في مشارق الأرض ومغربها، يعلنون عن دخول وقت الصلاة بالنداء بكلمة الله أكبر لا يختلف هذا النداء باختلاف المكان أو الزمان، ولا يختلف باختلاف الجنس أو اللغة، فالجميع يقولون الله أكبر، والجميع يقولون في ركوعهم سبحان ربي العظيم، والجميع يقولون في سجودهم سبحان ربي الأعلى، والجميع يقولون

(١) حديث شريف؛ رواه الإمام الطبراني، والإمام أحمد.

في تشهدهم أشهد أن لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله، أَللَّهُمَّ صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا ابراهيم وعلى آل سيدنا ابراهيم، والجميع يقولون في نهاية صلاتهم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وذلك للتأكيد أن المسلمين حينما فرغوا من صلاتهم للسلام جل وعلا، فإن شعارهم حين هموا بالاختلاط في الحياة مع بني دينهم وجنسهم هو السلام والمحبة والشفقة.

فيا ترى: أي عبادة أبلغ وأعمق في غرس الوحدة من صلاة الجماعة؟ يصلون خلف إمام واحد، ويناجون رباً واحداً، ويتلون كتاب واحد، ويتوجهون بوجوههم وقلوبهم لقبلة واحدة، وهي العكبة البيت الحرام، ويؤدون أعمالاً وحرركات واحدة.

وما ذلك إلا لأن الإسلام يكره أن ينحصر الإنسان في نطاق نفسه، ويكره أن ينأى المسلم بمصلحته بعيداً عن مصلحة الأمة وحياتها وشؤونها.

وفريضة الصوم: بها من دلائل الوحدة ما لا يعد، فجميع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، يصومون في شهر واحد من كل عام، وهو شهر رمضان.

بل إن توقيت الصيام يجسد عاملاً حيوياً للوحدة بين المسلمين جميعاً، حيث يبدأ المسلمون صيام يومهم من طلوع الفجر حتى الغروب، فليس هناك سني أو شيعي يستطيع أن يخالف الآخر في ذلك.

بل إن الإسلام حين فرض الصيام، ونادى بهذه الفريضة في القرآن، نادى ببناء الوحدة «يا أيها الذين آمنوا» وذلك على إعتبار أن القرآن لا يتصور فرقة بين المسلمين تحت أي مسميات أخرى غير أنهم مسلمين ومؤمنين بالله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وفريضة الزكاة: ووحدت بين جميع الطبقات والأجناس، وأزالت الشح والبخل والطمع والحرص من نفوس الأغنياء، واستأصلت الحقد والحسد

والبغض من نفوس الفقراء، وذلك حين فرضت على الأغنياء توصيل بعض ما أنعمه الله عليهم للفقراء، وما ذلك إلا ليسود المجتمع جو من المحبة والإخاء والتواد والرحمة والشفقة.

فالزكاة فريضة إسلامية على جميع المسلمين بغض النظر عن بلادهم وازمتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم واجناسهم، ولعل هذا يبرز مدى روابط الوحدة بين المسلمين. وفريضة الحج: هي من أهم الفرائض التي تعمل على إكتمال حلقات الوحدة بين المسلمين، حيث يجتمع الناس من مشارق الأرض ومغاربها، ويجمعوا في بيت الله الحرام، على الحب في الله، والتآخي في الله، والتواد من أجل الله، وتحقيق التعارف، الذي جعله الله من أبرز منافع الحج.

فالجميع تلهج ألسنتهم: لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك لبيك.

والجميع متوشحون بإحرامهم، الذي يشبه حمل الإنسان لكفنه، حين يذهب يطلب العفو بمن أخطأ في حقه، وجميعهم يطوفون بالبيت الحرام، ويقفون بعرفات، ويطفون ظمائمهم بشرب ماء زمزم، وتكحل عيونهم، وتشرح صدورهم، بروية زيارة قبر خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

ولعل هذه المشاعر تعمل على إيقاظ روح الأخوة النبيلة بين المسلمين، وتقوي أواصر المحبة والمودة، وتعمل على سد منابع العدا، والخصام، والجفاء، والحق، وتقطع الطريق أمام أي محاولة دخيلة، ينفذ منها الأعداء للوقعة بينهم.

القرآن يرفض الافتراق والاختلاف

إن القرآن الكريم جاء بالأصول والتعاليم الإيجابية، التي تعمل على وحدة المسلمين وتجمع شملهم وتوحد صفوفهم، ليعيشوا أعزاء أوفياء، لينشروا الإسلام والسلام في الأرض.

وهو في هذا السبيل يحرم التنازع والتفرق والاختلاف، ويحذر من كل سبب يؤدي إليهم، ويوضح العواقب الوخيمة التي تترتب عليها.

ولهذا أرسى قاعدة الإعتصام بحبل الله ورسوله، لكي يتجنبوا العداة والخصام فقال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

والقرآن الكريم ينهى عن التخاصم، والافتراق، والشقاق، والاختلاف في الآراء، تحت دعاوى المذهبية والطائفية، فينتج من وراء ذلك التطاحن والقتال والفشل.

وفي هذا السبيل يذكرهم بحال من سبقهم من الأمم، فقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

ورغم هذا التوكيد القرآني بالوحدة بين صفوف المسلمين، والبعد كل البعد عن الإفتراق والاختلاف والتنازع، وما يشتق منهم، أو تحت أي دعوى مذهبي، فإننا نرى اتجاه - وهو ضعيف - لدى بعض العلماء، يجعل دلالة الافتراق تغاير دلالة الاختلاف، ويرى أن الافتراق مذموم وأن الاختلاف لا بأس به.

وهذا ليس صحيحاً، لأن الوضع العربي لا يسانده، والبيان القرآني لا يؤيده، فاختلاف الشيعيين تضادهما، وافتراق الشيعيين تمايزهما وتغايرهما، فكل اختلاف هو تغاير، وكل افتراق هو تضاد فالافتراق والاختلاف يلتقيان لغة، ويمدحان ويذمان على السواء.

فالاختلاف في البيان القرآني أصل الفساد، وهو الذي خرج بالبشرية عن فطرتها الأولى في الوحدة والتوحيد، وعلى أثره بعث الله تعالى الأنبياء والرسل، ليعيدوا الناس إلى صفاء الفطرة، ويذكروهم بآيات الله في الأنفس والآفاق، ويبينوا لهم معالم العروة الوثقى، وضرورة الوحدة، وحتمية التوحيد.

قال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢١٣).

والاختلاف هو الذي أصاب اليهود والنصارى، ودفع بهم إلى البغي، والفساد، والتحريف والتبديل، والافتراء على الله ورسوله.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (هود: ١١٠).

قال تعالى ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (مريم: ٣٧) فالاختلاف مذموم، ومنقصة تلحق الإنسان، فتجعله في سخط الله وعقابه.

قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

« فهذه الآية تستند البعض عليها كدليل على سنة الاختلاف، ولكن لا يلتفت إلى الآية التي تعقبها، التي تبين أن من خرج عن دائرة الاختلاف، فذلك لفوزه برحمة الله، التي لا تتلاقى مع التنازع والاختلاف، حيث إن رحمة الله لا تنبت في أرض أصابتها ملوحة وتحجر الشقاق والاختلاف. فالاختلاف كله مذموم، ولا تباين بين الفرقة والافتراق، فكلاهما تمزيق للبشرية، وإعاقة لمسيرتها وانحراف عن منهج الله، ذلك المنهج الذي يجمع بين التوحيد في العقيدة، والوحدة في المجتمع.

لهذا جاء التحذير الإلهي بالابتعاد عن كل موضع أو موطن يؤدي للفرقة أو الاختلاف، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٠٥).

ثم بين أن الحكمة من هذا التحذير، وهو البعد كل البعد عن التنازع والفرقة والاختلاف، لأن النتيجة الحتمية مؤلمة ومخزية، وهي الوقوع في دائرة الفشل والخيبة والحسرة والندامة، وأن النجاة من هذه النتيجة التي لا تليق بأي مسلم، هي العمل تحت مظلة طاعة الله ورسوله، فقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦).

وقد حذر القرآن من الخروج على هذا المنهج الإلهي، فقال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

وهذه الآية في مفهومها الذي ينهى عن المخالفة عن أمر الله ورسوله، تلتقى مع آية أخرى في مفهومها الذي ينهى عن الافتراق والاختلاف في الدين، مهما كانت الدعاوى والمسميات بالمذهبية وهي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وقال تعالى:

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

فالتفرق عن سبيل الله، هو بعينه المخالفة عن أمر الله، ومنشأ الخلاف والاختلاف، أو الفرقة والتفرقة، وما يندرج تحتهم من أسماء، هو الهوى وحب الدنيا، وإثارة الغلبة والكبرياء عن الحق وتسييس الدين من أجل أغراض السياسة، وما نشأ عن الهوى مذموم أياً كان مداه»^(١)، لأنه إتباع للشيطان وظنونه كما قال ربنا ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ: ٢٠).

(١) مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية: د. محمد أحمد المسير، ص ٢٥، ٢٤ - مكتبة النهضة - مصر - بتصرف

القرآن والمذهبية

إن الاجتهاد، والنظر، والتدبر في آيات الله جل وعلا، من أجل استنباط الأحكام الشرعية أمر مفروض وواجب على أهل الذكر، والعلماء الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد والاستنباط.

والمسلمون لا يتنازعون في الأحكام الواضحة والظاهرة والمبينة في القرآن والسنة، فمثلاً: لا يعارض أي مسلم الحكم بحرمة أكل لحم الخنازير، والميتة، والربا، والزنا، وشرب الخمر والتعدي على حقوق الآخرين وغيرها من النصوص والأصول الثابتة قطعاً.

ولكن يقع التعدد في الآراء بين المسلمين في المسائل التي لم يرد بها نص صريح في القرآن والسنة أو في المسائل المستجدة حسب واقع الزمان والمكان، وتحتاج إلى رأى العلماء فيها، وأغلب هذه الآراء تحظى بالقبول بين جميع المسلمين، وعلى رأس من تلقى القبول منهم الأغلبية الكبرى من المسلمين سنة وشيعة.

ورغم أن القرآن الكريم والسنة أحكامهم واحدة، وموحدة لجميع المسلمين، وتلقى قبولهم، إلا أن هناك بعض الآراء الاجتهادية الفرعية، وبعض التصورات المذهبية، التي تلقى التقديس والتعظيم أكثر من تقديس النص الموحى به، والحكم على من يخالفها بأنه في تعداد مرتكب الكبائر والمحرمات، وتلك كانت سبباً في شق وحدة المسلمين وتناثر صفوفهم، وأوقعتهم في دائرة الخلاف والاختلاف، والافتراق، والشقاق.

وبدلاً من تركها جانباً، والنظر إلى ما يوحدهم، والالتفاف حوله، وهي لا تعد ولا تحصى تناحروا، وتنافروا، وتعصبوا لآراء، تركها وفعلها لا يضر ولا ينفع،

وعمل كل طرف على تقديس رأيه، وكأنه منوب عن الله في فرض هذا الرأى كواقع عملى على من يخالفه الرأى.

بل وصل الأمر إلى العناد، ودائماً عين العناد ترى الملك شيطانياً، وهذا ما عبر عنه الإمام النورسي في كتابه الكلمات حيث يقول: أمر العناد هو: أنه إذا ما ساعد شيطان امرءاً قال له: أنه «ملك» وترحم عليه، بينما إذا رأى ملكاً في صف من يخالفه في الرأى، قال: إنه «شيطان» قد بدل لباسه فيعاديه ويلعنه»^(١).

مع أن الله سبحانه وضح أن المسائل التى يكون فيها التنازع، يتم عرضها على الكتاب والسنة لأن الكتاب والسنة يقطعان الطريق أمام أي خلاف وفرقة يزعزع وحدة المسلمين، ويستأصلان كل رأى أو قول أو فعل يؤدى إلى تخاصم المسلم مع المسلم، بل وحتى مع غير المسلم.

لهذا قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

والمولى تبارك وتعالى بين ووضح، أن الحكم الفصل يكون لما أمر الله به ورسوله، وليس لإراء مجتهدين قد يكتب لهم الإصابة، وقد يكتب لهم الخطأ، فقال تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ * أفحكّم الجاهليّة يبعون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿ (المائدة: ٤٩-٥٠).

هذا أمر من الله جل وعلا لرسوله، بأن يحكم بما أنزله الله، وأن لا يتبع أهواء الآخرين، وأنه لا قدسية لرأى، أو لشخص، أو لمذهب فوق قدسية القرآن.

(١) النورسي: الكلمات ص ٨٤٦.

وهذا يحتم النظر إلى الآراء المذهبية بأنها آراء بشر وليسوا الهه، ثم عرضها على كتاب الله وليس الوقوف على هذه الآراء، والنظر في قائلها بقصدية منزهة.

وفى هذا يقول الإمام النورسي أن ذهن الإنسان ينتقل من الملزوم إلى اللازم، وليس إلى لازم اللازم - كما هو مقرر في علم المنطق - ولو انتقل فبقصد غير طبيعي. فالكتب الفقهية شبيهه بالملزوم، والقرآن الكريم هو الدال على تلك الأحكام الفقهية ومصدرها، فهو اللازم، والصفة الملازمة الذاتية للقرآن، هي القدسية المحفزة للوجدان.

فلأن نظر العامة ينحصر في الكتب الفقهية فحسب، فلا ينتقل ذهنهم إلى القرآن الكريم إلا خيالاً ونادراً ما يتصورون قدسيته - من خلال نظرهم المنحصر - ومن هنا يعتاد الوجدان التسبب ويتعود على الإهمال، فينشأ الجمود.^(١)

« فالكتب الفقهية إذن ينبغي أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجبا دونه كما آلت إليه - بمرور الزمان - من جراء بعض المقلدين، وعندئذ تجدها تفسيراً يبين يدى القرآن وليست مصنغات قائمة بذاتها». ^(٢)

ومرجع السبب في ذلك، أنه ليس هناك إنسان معصوم من الخطأ، مهما كان علمه، أو فضله أو منزلته، أو تبحره في العلم.

فجميع أئمة المذاهب - سنة أو شيعة - كانوا منصفين مع أنفسهم، وأمام خالقهم، حين أقروا واعترفوا بلسان متقارب، في أنهم بشر وليسوا ملائكة معصومين.

فثبت عنهم قولهم:

« إنما أنا بشر أخطأ وأصيب فما وافق الكتاب والسنة خذوه وإلا دعوه».

وقولهم «كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام، وأشار إلى قبر

الرسول ﷺ».

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٧.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٨.

وقول آخر «أن مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ وقول غير خطأ يحتمل فيه الصواب» لذا يعتبر الحل الوحيد هو من خلال إلزام أنفسنا، وإفهامها المسؤولية تجاه القرآن الكريم بفهم جديد وتنظيم حياتنا بحذافيرها على نمط القرآن الكريم ومنهجه والسنة النبوية، حتى لا نكون في مصاف النادمين في وقت لا ينفع الندم.

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا * وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٧-٣٠).

بل أن التحذير موجه لرسول الله من رب العزة، بعدم الافتتان بأقوال أي أحد، مهما كانت منزلته ومكانته عندك، ودرجة الصدق فيه، وأن تعتصم بالوحي المنزل عليك من الله، فقال تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٣).

فإذا كان المخاطب بهذا رسول الله، فكيف يكون حال غيره من بقية البشر؟

إن الحال التي يجب أن يلازمها كل مؤمن بالله، هي حال الإتياع والطاعة لله ولرسوله كما أمر ربنا تبارك وتعالى، والسير على صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي يلتقي فيه المسلمون - سنة وشيعة - على المحبة والمودة الإخاء، ويفوزون باتباعهم لمنهج الله ورسوله بمحبة الله ومغفرته.

قال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

قال تعالى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٣).

وهذه الآيات السابقة، رسخت قناعة تامة عند الإمام النورسي، بأنه لو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه - الناشئة من الحاجة إليه - أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات، نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمناً هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة، ومنفذة كلياً، وما كان يظل كتابا يتبرك بتلاوته فحسب.

هذا وإن هناك خطراً عظيماً في مزج الضروريات الدينية، مع المسائل الجزئية الفرعية الخلافية وجعلها كأنها تابعة لها، لأن الذي يرى الآخرين على خطأ، ونفسه على صواب، يدعى: أن مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ، والمذهب المخالف يحتمل فيه الصواب.

وحيث إن جمهور الناس يعجزون عن أن يميزوا تمييزاً واضحاً، بين الضروريات الدينية، والأمور النظرية الممتزجة معها، تراهم يعممون - سهواً أو وهماً - الخطأ الذي يرونه في الأمور الاجتهادية على الأحكام كلها، ومن هنا تتبين جسامة الخطر. والذي أراه أن من يخطئ الآخرين - ويرى نفسه في صواب دائماً - مصاب بمرض ضيق الفكر وانحصار الذهن، الناشئين من حب النفس، ولا شك أنه مسؤول أمام رب العالمين، عن تغافله عن شمول خطاب القرآن إلى البشرية كافة.

ثم إن فكر التخبطية (وهو ما ينتج عنه دعاوى واتهامات بالتكفير والتضليل والزندقة والفسق.. وغيرها من الاتهامات المعنوية، التي تؤدي في النهاية إلى إراقة الدماء) هذا منبع سوء الظن بالآخرين، والانحياز والتحيز، في الوقت الذي يطالبنا الإسلام بحسن الظن، والمحبة والوحدة.

ويكفيه بعداً عن روح الإسلام، ما شق من جروح غائرة في أرواح المسلمين المتساندة، وما بثه من فرقة بين صفوفهم، فابعدهم عن أوامر القرآن الكريم.^(١) فيا طالب الحقيقة إن كان الإتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحق أحق من الأحق، والحسن أحسن من الأحسن.^(٢)

ثم يوضح الإمام النورسي «أن أركان الدين، وأحكامه الضرورية، نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهي تشمل على تسعين بالمائة من الدين، وأما المسائل الخلافية التي تحتل الاجتهاد، فلا تتجاوز العشرة بالمائة.

فالبن شاسع بين أهمية الأحكام الضرورية (والالتفاف حولها كعامل للوحدة والتماسك والتعاون) والمسائل الخلافية (والتي تكون سبباً للفرقة والتنافر).

فلو شبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب، لكانت الأحكام الضرورية وأركان الإيمان أعمدة من الألماس.

ترى: هل يجوز أن تكون تسعون عموداً من الألماس، تابعة لعشرة منها من الذهب؟

وهل يجوز أن يوجه الإهتمام إلى التي من الذهب، أكثر من تلك التي من الألماس»^(٣).

ولكن ما هو الحل المطروح، من أجل إلى التسعين عموداً من الألماس القرآني، لكي تكون عاملاً فعالاً للوحدة الإسلامية، بدلاً من التنافر والتطاحن، حول مسائل خلافية ثانوية، لا تسمن ولا تغني من جوع، ويستفيد من وراء هياجها أعداء الدين لضرب أحدهما بالآخر.

إن الحل الملائم نجد له طرْحاً، وافياً، وعملياً، وعلمياً وعقلياً عند الإمام النورسي،

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٩.

(٢) النورسي: الكلمات ص ٨٤٦.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٧.

حيث يقول: إن توجيه أنظار عامة الناس، في الحاجات الدينية، توجيهاً مباشراً إلى القرآن الكريم، خطاب الله العزيز الساطع بإعجازه، والمحاط بهالة القدسية، والذي يهز الوجدان بالإيمان دائماً.. إنما يكون بثلاث طرق:

إما إزالة الحجاب من أمام القرآن الكريم، بتوجيه النقد، وتجريح الثقة بأولئك المؤلفين للكتب الفقهية الذين يستحقون كل الاحترام والتوقير، والثقة والاعتماد. وهذا ظلم فاضح وخطر وجسيم، وإجحاف بحق أولئك الأئمة الأجلاء.

أو تحويل تلك الكتب الفقهية (وما تحتويه من آراء اجتهادية) تدريجياً، إلى كتب يستشف منها فيض القرآن الكريم، أي تصبح تفسيراً له.

ويمكن أن يتم هذا باتباع طرق تربوية منهجية خاصة، حتى تبلغ تلك الكتب، إلى ما يشبه كتب الأئمة المجتهدين من السلف الصالح، أمثال «الموطأ» لمالك ابن أنس، و«الفقه الأكبر» لابي حنيفة النعمان.

فعندئذ لا يقرأ كتاب «ابن حجر» - مثلاً - بقصد ما يقوله ابن حجر نفسه، بل يقرأ لأجل فهم ما يأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة إلى زمن مديد.

أو شد أنظار جمهور الناس دوماً إلى مستوى أعلى من تلك الكتب - التي أصبحت حجاباً - أي شدها باستمرار إلى القرآن الكريم، وإظهاره فوقها دائماً، مثلما يفعل أئمة الصوفية وعندئذ تؤخذ الأحكام الشرعية الضرورية الدينية، من منبعها الأساسي، وهو القرآن الكريم أما الأمور الاجتهادية، التي ترد بالوساطة، فيمكن مراجعتها من مكانها»^(١).

ثم يقول الإمام النورسي أن كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد، وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه في غير ما ورد فيه النص، من دون أن يلزم الآخرين

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٨.

به، إذ لا يستطيع أن يشرّع ويدعوا الأمة إلى مفهومه، إذ فهمه يعد من فقه الشريعة، ولكن ليس الشريعة نفسها.

لذا: ربما يكون الإنسان مجتهداً، ولكن لا يمكن أن يكون مشرّعاً، فالدعوة إلى أي فكر كان، مشروطة بقبول جمهور العلماء له، وإلا فهو بدعة مردودة، تنحصر بصاحبها ولا تعداه»^(١)

ثم يبين الإمام النورسي أن الإسلام هو دين السلام والأمان والالتحاد، ويرفض النزاع والخصام فينادي بأعلى صوته لتحقيق ذلك، من خلال شخصية العالم الإسلامية فيقول: أيها العالم الإسلامي، إن حياتك في الإتحاد. إن كنت طالباً للالتحاد فاتخذ هذا دستورك:

لا بد أن يكون «هو حق» بدلاً من «هو الحق» و «هو حسن» بدلاً من «هو الحسن» إذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه: إن هذا «حق» ولا أتعرض لما عداه. فإن يك جميلاً، فمذهبي أجمل.

بينما لا يحق له القول في مذهبه: إن هذا هو «الحق» وما عداه باطل، وما عندي هو «الحسن» فحسب وغيره قبيح وخطأ.

إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس، ثم يكون داء، ومنه ينجم النزاع.

فالأدوية تتعدد بحسب تعدد الأدواء، ويكون تعددها حقاً.... وهكذا الحق يتعدد، والحاجات والأغذية تتنوع، وتنوعها حق، وهكذا الحق يتنوع.

والاستعدادات ووسائل التربية تتشعب، وتشعبها حق.... وهكذا الحق يتشعب، فالمادة الواحدة قد تكون داءً ودواء حسب مزاجين اثنين.

إن صاحب كل مذهب يحكم حكماً مطلقاً مهماً، من دون أن يعين حدود مذهبه،

(١) النورسي: الكلمات، ص ٨٣٠.

إذ يدعه لاختلاف الأمزجة، ولكن التعصب المذهبي هو الذي يولد التعميم، ولدى الإلتزام بالتعميم ينشأ النزاع.

كانت هناك هوات سحيقة بين طبقات البشر قبل الإسلام، مع بعد شاسع عجيب بينهما، فاستوجب تعدد الأنبياء وظهورهم في وقت واحد، كما استوجب تنوع الشرائع وتعدد المذاهب.

ولكن الإسلام أوجد انقلاباً في البشرية، فتقارب الناس، واتحد الشرع، وأصبح الرسول واحداً.

وما لم تتساوى المستويات، فإن المذاهب تتعدد، ومتى ما تساوت وأوفت التربية الواحدة بحاجات الناس كافة تتحد المذاهب.^(١)

فيا معشر أهل الإيمان! ان درعكم المنيع لصد اولئك الاعداء هو التقوى المصنوعة في دوحة القرآن الكريم. وان خنادقكم الحصينة هي سنة نبيكم عليه افضل الصلاة والسلام. واما سلاحكم فهو الاستعاذة والاستغفار والالتجاء إلى الحرز الإلهي.

(١) النورسي: الكلمات، ص ٨٤٦.

تفعيل مقومات الوحدة والتقريب

إذا أردنا تفعيل مقومات الوحدة والتقريب بين المسلمين بصدق مع انفسنا ومع الله وإخلاص لديننا وديننا وبنينا، فلا بد أن نُحکم الإسلام فيما بيننا، ولايجدي أبداً أن نُحکم أفكارنا ومذاهبنا وآرائنا، وكل طرف يريد أن يفرض ما هو مقتنع به على الآخر، ففي هذه اللحظة لن يصل أحد منا إلى تقارب أو وحدة.

ولكن ما هي المنهجية الصحيحة، والكيفية المثلى التي نتبعها، لنُحکم الإسلام في جميع أمورنا وقضايانا داخلياً وخارجياً، ويكون هو الفيصل، والحكم العدل، الذي لا يحابي أحداً على الآخر؟

الإجابة: أنه لا بد من صياغة مجتمعاتنا من جديد، لا بد من تغيير المجتمع كله إلى الإسلام، وبعبارة أخرى: أسلمة المجتمع، وأسلمة الأفكار والمفاهيم، وأسلمة القيم والأخلاق، وأسلمة العادات والتقاليد، وأسلمة الأنظمة والقوانين، وأسلمة الثقافة والإعلام، وأسلمة التربية والتعليم، وأسلمة العقل والقلب والجوارح، وأسلمة الوسائل والأدوات والأهداف والغايات، وأسلمة؟

إن الإسلام دين عظيم، وهو أفضل دين، وهو منة ونعمة أنعم الله به علينا، ومن علينا بأكرم نبي أرسل، وأعظم كتاب أنزل ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وقال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)

الإسلام عظيم، ولكنه يحتاج إلى مسلمين عظماء يكافئون عظمته ﴿هُوَ الَّذِي

أَيَّدَكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢).

إن رجلاً من الغرب درس الإسلام فأعجب به، وأعجب بتعاليمه، وأعجب ببعده، وأعجب بقيمه، وأعجب برحمته، وبعد سرد طويل لما أعجبه، قال كلمة يجب أن نحفظها ونفهمها جيداً، لأنها تقطع نياط القلوب التي تغار على هذا الدين الخاتم، وتستنفر أصحاب الضمائر اليقظة ليهبوا لنجدة هذه الأمة، ماذا قال؟

قال: ما أعظمه من دين لو كان له رجال، دين عظيم ولكنه في حاجة إلى رجال عظماء، دين قوي ولكنه في حاجة إلى رجال أقوياء.

تعداد المسلمين في العالم يتخطى المليار، ولكن للأسف الشديد لا يمثلون الإسلام حق التمثيل، لا يمثلون سماحة الإسلام وقيمه ومبادئه وعدله حق التمثيل، إنهم كما جاء في الحديث: «غشاء كغشاء السيل». فليست القيمة في العدد، ففي غزوة بدر نصر الله المسلمين مع قلة عددهم، وهزموا في أحد مع كثرة عددهم، لماذا؟ لأنهم في بدر نفذوا وطبقوا أوامر الله وأوامر رسول الله واقعاً عملياً دون تباطؤ أو تكاسل، وكانوا على قلب رجل واحد، كانوا يمثلون وحدة الجسد والصف بمعناهم الحقيقي، وليس شكلاً وفي أحد لم ينفذوا أوامر الرسول الكريم، فكانت الهزيمة.

نحن نريد قلة مؤمنة، لا كثرة عاطلة، نريد مسلمين مخلصين لدينهم، نريد الكيف قبل الكم، لا نريد الكثرة الغثائية التي قال فيها الشاعر:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لأرى أحداً

لقد مر على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه سادة العالم، وقادة الدنيا، سادوه بالإيمان والقرآن، وقادوه بالعلم والإحسان، حكموا فعدلوا، واؤتمنوا فأدوا، وكانوا للدنيا هداة خير ودعاة رشد، وكانت لهم حضارة شامخة، جمعت بين العلم واليقين، ووصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالأخرة، والعقل بالنقل، والمادة بالروح، والنظر بالتطبيق، والفكر بالواقع، والعمل بالإيمان.

وإذا بنا نصبح في المؤخرة، بعد أن كنا في المقدمة، تُملى علينا الأوامر بعد أن كنا

نأمر، ونقاد بعد أن كنا نقود، ومما يحزننا أصبحنا نصنف بما يسمى بالعالم الثالث، أو البلاد النامية، وهو تعبير ملطف ومهذب للبلاد المتخلفة.

وهذا مهد لما تسمى بالقوى، أن تكالبت وتألبت علينا، والعجيب أنهم يختلفون فيما بينهم، ولكن إذا كنا نحن العدو، أنفقت كلمتهم جميعاً علينا، بل ويتعاونون في تقديم النصح والمساعدة لبعضهم البعض، وهذا ما قاله فقهاؤنا من قبل: الكفر ملة واحدة.

إذاً: له كل الحق هذا الرجل الغربي، حين قال متعجباً وحزيناً ومتألماً: ما أعظمه من دين لو كان له رجال.

أرجو ألا يفهم من كلامي هذا، توجيه الاتهام لأحد، وإن كان ما أقوله واضحاً للأعمى والبصير.

وأرجو ألا يفهم من كلامي هذا، زرع حالة اليأس والإحباط، والاعلان بالاستسلام للعدو، فهذا لا يصح من ناحيتين:

أولاً: لأنه لا يتفق مع منهج القرآن الذي يؤكد ﴿أنه لا ييأس من روح الله﴾ (يوسف: ٨٧).

ثانياً: لأن ذلك يعد تضامناً مع أعداء الأمة، الذي يسعون لهزيمة المسلمين نفسياً، وتنفيذاً لما يريدون فعله، وبهذا أكون مساهماً في مؤامرتهم.

ولكن الله يعلم كم أحب ديني الذي أنعم الله به علي، وعلى والدي، والبشرية جميعاً، وكم أحب حبيبي، وشفيعي يوم القيامة سيدنا محمد وآل بيته الكرام الأطهار.

ولكنها المكاشفة، والمصارحة، وبيان مكانم الخلل، ومواقع الضعف، بصراحة وصدق، إذا أردنا أن ننقذ أنفسنا، وننصر ديننا، ونكون جديرين بحمل أمانة هذا الدين، وفي النهاية لا أبتغي الأجر إلا من الله.

لا يمكن لطبيب صادق، يرى مريضه مصاب بالسكر، ثم يعامله ويرضيه

على حساب صحته، ثم يقول له: أنت بصحة ممتازة، وتذوق جميع أنواع الحلوى والسكريات، وبعد أيام يموت، وعندما يلام الطبيب على كذبه يقول: أردت ألا أصدمه بالحقيقة، هذا لا يعقل.

ونحن لا نعمم كل ما قلناه على الجميع، وإلا كانت المصيبة كبيرة، ولكن الحمد لله العلي الكبير، أن هناك رموز تبشر بالخير، وتحفز للإصلاح والتغيير، وتشجع على الوحدة ونصرة الدين، وتستنفر أصحاب الضمائر الحية في عالمنا الإسلامي من شخصيات وحركات وجماعات.

منهم طلاب رسائل النور المنتشرون في بقاع العالم الإسلامي، لا يبتغون الأجر إلا من الله، وسعيهم لترسيخ منهج الإسلام الوسطي المعتدل، وغرس أسس المحبة والأخوة الإسلامية.

ولا ننكر دور المملكة العربية السعودية في دعمها لكل قضية إسلامية، ومساعداتها للبلاد الإسلامية الفقيرة، وخدمتها لحجيج بيت الله الحرام ليل نهار، لحجيج السنة والشيعية على حد سواء، لا فرق بين هذا وذاك، فكلهم مسلمون ذابوا في ملبس واحد، وتلبية واحدة، وتحقيق رغبة واحدة، وهي الفوز برضاء الله ورحمته ومغفرته.

ودولة إيران التي تعمل وتسعى للتقارب بين المسلمين، لكي يكونوا قوة ضاربة في وجه أعداء الإسلام، ثم سعيها وأحتضانها لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية لإزالة الفرقة والإختلاف.

ولا ننكر دور مصر الريادي في حل القضايا الخلافية، ودفاعها عن القضية الفلسطينية، ثم دور الأزهر الشريف وإحتضانه لطلاب العلم من جميع بقاع العالم، ثم دوره لنشر الوسطية والسماحة للإسلام وتعاليمه.

ولا ننكر أنه في كل بلد إسلامي لمحات كثيرة يفخر بها كل مسلم، وإسهامات

عديدة لنصرة هذا الدين، وعقلاء عديدون يرفضون النزعات الطائفية، ويستنكرون الخلافات المذهبية التي تمزق وحدة الأمة.

ولكن ما هي أهم المقومات، التي ترسخ وحدة الصف الإسلامي، وتعمل على إزالة الإحتقان غير المبرر، وتعود بالأمة الإسلامية إلى سابق عهدها الأول، جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الجسد بالسهر والحمى؟

في الحقيقة هداني الله لكي أجد في رسائل النور للإمام سعيد النورسي رضي الله عنه، مادة علمية معبرة عن روح الإسلام بصدق وشفافية وإخلاص، ومفسرة لنصوص القرآن والسنة بواقعية وشمولية، وبها معالجة معتدلة ووسطية للقضايا الشائكة، والتي يتحرج الغالبية من عقلاء السنة والشيعة للخوض فيها، باعتبار أنها قضايا مستعصية على الحل، والخوض فيها يزيد الطين بله.

ولكن الإمام النورسي وجد أن مواجهة هذه القضايا، ضرورة حتمية، إذا أردنا نصرة الدين والوحدة والتقارب، وأن حلها ليس عويصاً كما يتوهم البعض، ولكن إستعصائها يكمن في عدم الإخلاص، وعدم الصدق مع النفس ومع الله، وعدم النزول عن الأهواء والأغراض الشخصية، وعدم تصفية الذات من أجل الله ورسوله، ومن أجل هذا الدين العظيم، الذي يحتاج إلى رجال يكافئون عظمته.

لهذا فإنني أضع بين أيديكم ما سطره الإمام النورسي، وغرس بذور حروفها في رسائله، وهي رسالة الأخوة والإخلاص، وأضعهم أمام أعينكم، لتبصروا جمال هذا العقد المنظوم، ونفاذ بصيرة النورسي الثاقبة، وقدرته على حل الإشكاليات الشائكة، بأكبر قدر من المرونة والدقة والحكمة .

رسالة الأخوة

بِسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

هذه الرسالة تدعو أهل الإيمان إلى الأخوة والمحبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٠)

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)

إن ما يسببه التحيز والعناد والحسد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين، وما يوغر في صدورهم من حقدٍ وغلٍ وعداء، مرفوض أصلاً. ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى. فضلاً عن أن العداء ظلمٌ شنيع يفسد حياة البشر: الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هو سمٌّ زعاف لحياة البشرية قاطبة.

سنيين «سته أوجه» من وجوه كثيرة لهذه الحقيقة.

الوجه الأول:

إنَّ عداء الإنسان لأخيه الإنسان ظلمٌ في نظر الحقيقة.

فيا من امتلاً صدره غلاً وعداءً لأخيه المؤمن، ويا عديم المروعة! هب أنك في سفينة أو في دار ومعك تسعة أشخاص أبرياء ومجرم واحد. ورأيت من يحاول إغراق السفينة أو هدم الدار عليكم، فلا مرأى أنك - في هذه الحالة - ستصرخ بأعلى صوتك محتجاً

على ما يرتكبه من ظلم قبيح، إذ ليس هناك قانون يسوّغ إغراق سفينة برمتها ولو كانت تضم مجرمين طالما فيها بريء واحد.

فكما أن هذا ظلم شنيع وغدرٌ فاضح، كذلك انطواؤك على عدااءٍ وحقدٍ بالمؤمن الذي هو بناء رباني وسفينة إلهية، لمجرد صفةٍ مجرمة فيه، تستاء منها أو تتضرر، مع أنه يتحلى بتسع صفات بريئة بل بعشرين منها: كالإيمان والإسلام والحوار.. الخ. فهذا العدااء والحقد يسوقك حتماً إلى الرغبة ضمناً في إغراق سفينة وجوده، أو حرق بناء كيانه. وما هذا إلا ظلم شنيع وغدرٌ فاضح.

الوجه الثاني:

العداء ظلم في نظر الحكمة، إذ العدااء والمحبة نقيضان. فهما كالنور والظلام لا يجتمعان معاً بمعناهما الحقيقي أبداً. فإذا ما اجتمعت دواعي المحبة وترجّحت أسبابها فأرست أسسها في القلب، استحالت العداوة إلى عدااءٍ صوري، بل انقلبت إلى صورة العطف والإشفاق، إذ المؤمن يحب أخاه، وعليه أن يودّه، فأياً تصرّف مشين يصدر من أخيه يحمّله على الإشفاق عليه، وعلى الجد في محاولة إصلاحه باللين والرفق دون اللجوء إلى القوة والتحكم. فقد ورد في الحديث الشريف: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).^(١)

أما إذا تغلبت أسباب العداوة والبغضاء وتمكّنت في القلب، فإن المحبة تنقلب عندئذ إلى محبة شكلية تلبس لبوس التصنع والتملق.

فاعلم إذن أيها الظالم! ما أشدّه من ظلم أن يحمل المؤمن عدااءً وحقدًا لأخيه! فكما أنك إذا استعظمت حصيات تافهة ووصفتها بأنها أسمى من الكعبة المشرفة وأعظم من جبل أحد، فإنك بلا شك ترتكب حماقة مشينة، كذلك هي حماقةٌ مثلها إن استعظمت زلات صدرت من أخيك المؤمن واستهولت هفواته التي هي تافهة تافهة الحصيات، وفضلت تلك الأمور التافهة على سمو الإيمان الذي هو بسمو الكعبة،

(١) البخاري، الأدب، ٥٧، ٦٢، الاستئذان، ٩؛ مسلم، البر، ٢٣، ٢٥، ٢٦.

ورجّحتها على عظمة الإسلام الذي هو بعظمة جبل أحد. فتفضيلك ما بدر من أخيك من أمور بسيطة على ما يتحلى به من صفات الإسلام الحميدة ظلمٌ وأي ظلم! يدركه كل من له مسكة من عقل!

نعم، إن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد. ووحدة العقيدة هذه، تقتضي وحدة المجتمع. فأنت تستشعر بنوع من الرابطة مع من يعيش معك في طابور واحد، وبعلاقة صداقة معه إن كنت تعمل معه تحت إمرة قائد واحد، بل تشعر بعلاقة أخوة معه لوجودكما في مدينة واحدة، فما بالك بالإيمان الذي يهب لك من النور والشعور ما يريك به من علاقات الوحدة الكثيرة، وروابط الاتفاق العديدة، ووشائج الأخوة الوفيرة ما تبلغ عدد الأسماء الحسنَى. فيرشدك مثلاً إلى: أن خالقكُم واحد، مالككُم واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ الألف. ثم، إن نبيكُم واحد، دينكُم واحد، قبلتكمُم واحدة، وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ المائة. ثم، إنكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة.. وهكذا واحد واحد إلى أن تبلغ العشرة.

فلئن كان هناك إلى هذا القدر من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعاً ويفضّل عليها أسباباً واهية أو هنّ من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء. فيوغر صدره عداءً وغلاً حقيقياً لأخيه المؤمن! أليس هذا إهانة بتلك الروابط التي توحد؟ واستخفافاً بتلك الأسباب التي توجب المحبة؟ واعتسافاً لتلك العلاقات التي تفرض الاخوة؟ فإن لم يكن قلبك ميتاً ولم تنظف بعد جذوة عقلك فستدرك هذا جيداً.

الوجه الثالث:

إن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤) تفيد العدالة المَحضة، أي لا يجوز معاينة إنسان بجريرة غيره. فترى القرآن الكريم ومصادر الشريعة الأخرى وآداب أهل الحقيقة والحكمة الإسلامية كلها تنبّهك إلى: أن إضمار العداء للمؤمن والحقد عليه ظلم عظيم، لأنه إدانة لجميع الصفات البريئة التي يتصف

بها المؤمن بجريرة صفة جانية فيه. ولا سيما امتداد العداة إلى أقاربه وذويه بسبب صفة تمتعض منها، فهو ظلمٌ أعظم، كما وصفه القرآن الكريم بالصيغة المبالغة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ أَكْبَرُ لِلَّذِينَ اتَّبَعَتْكَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ وَاللَّيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ فِي هُدَايِكَ وَلَئِن كُنْتَ تُرِيدُ لَهُمْ فِتْنًا إِنَّهُم بِاللَّيْسِ لَكُنَّ عِندَ اللَّهِ خَاسِرِينَ﴾ (إبراهيم: ٣٤) أفبعد هذا تجد لنفسك مبررات وتدعي أنك على حق؟

فاعلم! أن المفاسد التي هي سبب العداة والبغضاء كثيفة في نظر الحقيقة، كالتراب والشر نفسه، وشأن الكثيف أنه لا يسرى ولا ينعكس إلى الغير - إلا ما يتعلمه الإنسان من شر من الآخرين - بينما البرّ والإحسان وغيرهما من أسباب المحبة فهي لطيفة كالنور والمحبّة نفسها، ومن شأن النور الانعكاس والسرّيان إلى الغير. ومن هنا سار في عداد الأمثال: «صديق الصديق صديق». وتجذ الناس يرددون: «لأجل عين ألف عين تُكرّم».

فيا أيها المُجحف! إن كنت تروم الحقّ، فالحقيقة هي هذه، لذا فإن حملك عداة مع أقارب ذلك الذي تكره صفةً فيه، وحقّدك على ذويه المحبوبين لديه، خلافٌ للحقيقة وأي خلاف!

الوجه الرابع:

إن عداك للمؤمن ظلمٌ مبين، من حيث الحياة الشخصية. فإن شئت فاستمع إلى بضعة دساتير هي أساس هذا الوجه الرابع:

الدستور الأول: عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: «إن مسلّكي حق أو هو أفضل» ولكن لا يجوز لك أن تقول: «إن الحق هو مسلّكي أنا فحسب». لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكّمًا ولا حكمًا يقضي على بطلان المسالك الأخرى، وقديماً قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَاً^(١)

الدستور الثاني: «عليك أن تقول الحقّ في كل ما تقول، ولكن ليس لك أن تذيع كل الحقائق. وعليك أن تصدق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صواباً أن تقول كل صدق».

(١) لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (أدب الدنيا والدين ص ٣٧) والبيت منسوب للإمام الشافعي أيضاً. (ديوان الشافعي ص ٩١) طبعة دار النور - بيروت. وفيه: كما ان عين السخط .

لأن مَنْ كان على نية غير خالصة - مثلك - يُحتمل أن يثير المقابل بنصائحه فيحصل عكس المراد.

الدستور الثالث: إن كنت تريد أن تعادي أحداً فعادِ ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها. وحاول أن تُعادي مَنْ هو أعدى عدوك وأشدّ ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك. فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعادِ المؤمنين لأجلها. وإن كنتَ تريد العداة أيضاً فعادِ الكفار والزنادقة، فهم كثيرون. واعلم أن صفة المحبة محبوبةٌ بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداة قبل أي شيء آخر.

وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تحمد نار الخصومة. أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد. حتى لو أصبح مغلوباً - ظاهراً - فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم والشحنة تستمر. بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمه فقد ملكته وجعلته أخاً لك، حتى لو كان لثيماً - ظاهراً - إلا أنه كريم من حيث الإيمان، وقد قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيِّمَ تَمَرَّدَ^(١)

نعم، إن الواقع يشهد: أن مخاطبة الفاسد بقولك له: «إنك صالح، إنك فاضل...». ربما يدفعه إلى الصلاح، وكذا مخاطبة الصالح: «إنك طالح، إنك فاسد...». ربما يسوقه إلى الفساد، لذا استمع بأذن القلب إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤) وأمثالها من الدساتير القرآنية المقدسة، ففيها التوفيق والنجاح والسعادة والأمان.

(١) البيت للمتنبي. انظر العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. ص ٣٨٧ - دار القلم، بيروت.

الدستور الرابع: إن الذي يملأ قلبه الحقد والعداوة تجاه إخوانه المؤمنين إنما يظلم نفسه أولاً، علاوة على ظلمه لإخوانه، فضلاً عن تجاوزه حدود الرحمة الإلهية، حيث يوقع نفسه بالحقد والعداوة في عذاب أليم، فيقاسيها عذاباً كلما رأى نعمةً حلت بخصمه، ويعانيها ألماً من خوفه. وإن نشأت العداوة من الحسد فدونه العذاب الأليم، لأن الحسد أشدُّ إيلاًماً للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهيبه، أما المحسود فلا يمسه من الحسد شيء، أو يتضرر طفيفاً.

وعلاج الحسد هو: أن يلاحظ الحاسد عاقبة ما يحسده، ويتأمل فيها، ليدرك أن ما ناله محسودُه من أعراض دنيوية - من مال وقوة ومنصب - إنما هي أعراض زائلة فانية. فائدتها قليلة، مشتقتها عظيمة.

أما إذا كان الحسد ناشئاً من دوافع أخروية، فلا حسد أصلاً. ولو تحرك عرق الحسد حتى في هذه الأمور، فالحاسد إما أنه مُراء، يُحبط حسناته الأخروية في الدنيا. أو أنه يسيء الظن بمحسوده فيظلمه.

ثم إن الحاسد في حسده يسخط على قدر الله، لأنه يحزن من مجيء فضل من الله ورحمته على محسوده، ويرتاح من نزول المصائب عليه، أي كأنه ينتقد القدر الإلهي ويعترض على رحمته الواسعة. ومعلوم أن من ينتقد القدر كمن يناطح الجبل، ومن يعترض على الرحمة الإلهية يُحرم منها.

تُرى هل من إنصافٍ يرضى أن يمتلئ صدر المؤمن لسنة كاملة غيظاً وحقداً على أخيه لشيء جزئي تافه لا يساوي العداة عليه ليوم واحد؟! علماً أنه لا ينبغي أن تنسب السيئة التي أتت من أخيك المؤمن إليه وحده وتدينه بها لأن:

أولاً: القدر الإلهي له حظُّه في الأمر، فعليك أن تستقبل حظَّ القدر هذا بالرضى والتسليم.

ثانياً: إن للشيطان والنفس الأمارة بالسوء حظَّها كذلك.

فإذا ما أخرجت هاتين الحصتين لا يبقى أمامك إلا الإشفاق على أخيك بدلاً من عدائه. لأنك تراه مغلوباً على أمره أمام نفسه وشيطانه. فتنتظر منه بعد ذلك الندم على فعلته وتأمل عودته إلى صوابه.

ثالثاً: عليك أن تلاحظ في هذا الأمر تقصيرات نفسك، تلك التي لا تراها أو لا ترغب أن تراها.

فاعزل هذه الحصة أيضاً مع الحصتين السابقتين، تر الباقي حصةً ضئيلة جزئية، فإذا استقبلتها بهمة عالية وشهامة رفيعة أي بالعمو والصفح، تنجو من ارتكاب ظلم وتتخلص من إيذاء أحد. بينما إذا قابلت إساءته بحرص شديد على توافه الدنيا - كأنك تخلد فيها- ويحقد مستديم وعداء لا يفتر، فلا جرم أن تنطبق عليك صفة ﴿ظُلُومًا جَهُولًا﴾ وتكون أشبه بذلك اليهودي الأحمق الذي صرف أموالاً طائلة لقطع زجاجية لا تساوي شيئاً وبلورات ثلجية لا تلبث أن تزول، ظناً منه أنها الألباس. وهكذا فقد بسطنا أمامك ما يسببه العداء من أضرار الحياة الإنسان الشخصية.

فإن كنت حقاً تحب نفسك فلا تفسح له مجالاً ليدخل قلبك، وإن كان قد دخل فعلاً واستقر فلا تصغ إليه، بل استمع إلى حافظ الشيرازي ذي البصيرة النافذة إلى الحقيقة. إنه يقول:

دُنْيَا نَه مَتَاعِيسَتِي كِه آرَرْدُ بِنَزَاعِي

أي «إن الدنيا كلها لا تساوي متاعاً يستحق النزاع عليه».

فلئن كانت الدنيا العظيمة وبها فيها تافهة هكذا، فما بالك بجزء صغير منها. واستمع إليه أيضاً حيث يقول:

آسَايِش دُوِكِي تَقْسِيرِ اِيْنُ دُو حَرْفَسْتِ بَا دُوِسْتَانِ مُرُوْتِ بَا دُشْمَانِ مُدَارَا

أي «نيل الراحة والسلامة في كلا العالمين توّضحه كلمتان: معاشرّة الأصدقاء بالمروءة والإنصاف. ومعاملّة الأعداء بالصفح والصفاء».

إذا قلت: إنَّ الأمر ليس في طوقي، فالعداء مغروز في كياني، مغمور في فطرتي، فليس لي خيار، فضلاً عن أنهم قد جرحوا مشاعري وآذوني، فلا أستطيع التجاوز عنهم.

فالجواب: الخلق السيئ إن لم يُجْرِ أثره وحُكْمه، وإن لم يُعْمَل بمقتضاه كالغيبية مثلاً، وعرف صاحبه تقصيره، فلا ضير، ولا ينجم منه ضرر. فما دمت لا تملك الخيار من أمرك، ولا تستطيع أن تتخلص من العداء، فإن شعورك بأنك مقصّر في هذه الخصلة، وإدراكك أنك لست على حق فيها، ينجيانك - بإذن الله - من شرور العداء الكامن فيك، لأن ذلك يعدّ ندماً معنوياً، وتوبة خفية، واستغفاراً ضمناً. ونحن ما كتبنا هذا المبحث إلا ليضمن هذا الاستغفار المعنوي، فلا يلتبس على المؤمن الحق والباطل، ولا يوصم خصمه المُحَقَّق بالظلم.

وقد مرت عليَّ حادثة جديرة بالملاحظة:

رأيت ذات يوم رجلاً عليه سياء العلم يقدح بعالم فاضل، بانحياز مُعرض حتى بلغ به الأمر إلى حد تكفيره، وذلك لخلافٍ بينهما حول أمور سياسية، بينما رأيته قد أثنى - في الوقت نفسه - على منافق يوافقه في الرأي السياسي!. فأصابتني من هذه الحادثة رعدةٌ شديدة، واستعدت بالله مما آلت إليه السياسةُ وقلت: «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة».

ومنذئذٍ انسحبتُ من ميدان الحياة السياسية.

الوجه الخامس:

هذا الوجه يبين مدى الضرر البالغ الذي يصيب الحياة الاجتماعية من جراء العناد والتنافر والتفرقة.

فإذا قيل: لقد ورد في حديث شريف: (اِخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ^(١)) والاختلاف يقتضي التفرق والتحزب والإعتداد بالرأي. ولكن داء التفرق والاختلاف هذا فيه وجهٌ

(١) النووي، شرح صحيح مسلم ٩١/١١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٥٩؛ السيوطي، تدريب الراوي ٢/١٧٥.

من الرحمة لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص الظلمة الذين إذا حصل بينهم اتفاق في قرية أو قُصبة اضطهدوا هؤلاء الضعفاء ولكن إذا كانت ثمة تفرقة بينهم فسيجد المظلوم ملجأً في جهة، فينقذ نفسه.

ثم إن الحقيقة تتظاهر جلية من تصادم الأفكار ومناقشة الآراء وتخالف العقول.

الجواب: نقول إجابة عن السؤال الأول:

إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البناء. ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظريته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلاً في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء.

وجواباً عن السؤال الثاني نقول:

إن كان التفرق والتحزب لأجل الحق وباسمه، فلربما يكون ملاذ أهل الحق، ولكن الذي نشاهده من التفرق إنما هو لأغراض شخصية وهوى النفس الأمارة بالسوء. فهو ملجأ ذوي النيات السيئة بل متكأ الظلمة ومرتكزهم، فالظلم واضح في تصرفاتهم. فلو أتى شيطان إلى أحدهم معاوناً له موافقاً لرأيه تراه يُثني عليه ويترحم عليه، بينما إذا كان في الصف المقابل إنساناً كالملك تراه يلعنه ويقذفه.

أما عن السؤال الثالث فنقول:

إن تصادم الآراء ومناقشة الأفكار لأجل الحق وفي سبيل الوصول إلى الحقيقة إنما يكون عند اختلاف الوسائل مع الاتفاق في الأسس والغايات، فهذا النوع من الاختلاف يستطيع أن يقدم خدمة جلية في الكشف عن الحقيقة وإظهار كل زاوية من زواياها بأجلى صور الوضوح. ولكن إن كانت المناقشة والبحث عن الحقيقة لأجل

أغراض شخصية وللتسلط والاستعلاء وإشباع شهوات نفوس فرعونية ونيل الشهرة وحب الظهور، فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولد شرارة الفتن. فلا تجد بين أمثال هؤلاء اتفاقاً في المقصد والغاية، بل ليس على الكرة الأرضية نقطة تلاقٍ لأفكارهم، ذلك لأنه ليس لأجل الحق، فترى فيه الإفراط البالغ دون حدود، مما يُفضي إلى انشاقات غير قابلة للإلتئام. وحاضر العالم شاهد على هذا..

وصفوة القول: إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاته وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف: (الحب في الله والبغض في الله)^(١) والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق يسودان.. نعم، إن الذي لا يستهدي بتلك الدساتير يكون مقترفاً ظلماً في الوقت الذي يروم العدالة.

حادثة ذات عبرة: في إحدى الغزوات الإسلامية، كان الإمام علي رضي الله عنه يبارز أحد فرسان المشركين فتغلب عليه الإمام وصرعه. فلما أراد الإمام أن يُجهز عليه تقل على وجه الإمام. فما كان من الإمام إلا أن أخلى سبيله وانصرف عنه، فاستغرب المشرك من هذا العمل.

فقال: إلى أين؟

قال الإمام: كنت أقاتلك في سبيل الله، فلما فعلت ما فعلت خشيت أن يكون قتلي إياك فيه ثأر لنفسي فأطلقتك لله.

فأجابه الكافر: كان الأولى أن تثيرك فعلتي أكثر فتسرع في قتلي!. وما دمتم تدينون بدين هو في منتهى السماحة فهو بلا شك دين حق.^(٢)

وحادثة أخرى: عزل حاكم مسلم قاضيه، لما رأى منه شيئاً من الحدة والغضب أثناء قطعه يد السارق. فما ينبغي لمن ينفذ أمر الله أن يحمل شيئاً من حظ نفسه على المحكوم، بل عليه أن يشفق - من حيث النفس - على حاله دون أن تأخذه رافة في تنفيذ

(١) أبو داود، السنة ٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/١٤٦؛ البزار، المسند ٩/٤٦١. وانظر: الطيالسي، المسند ١٠١؛

ابن أبي شيبة، المصنف ٦/١٧٠، ١٧٢، ٨٠/٧.

(٢) انظر: المثنوي الرومي، ترجمة الكفا في ج ١ ص ٤٤٣.

حكم الله. وحيث إن شيئاً من حظ النفس قد اختلط في الأمر وهو مما ينافي العدالة الخالصة فقد عَزَلُ القاضي.

مرض اجتماعي خطر وحالة اجتماعية مؤسفة أصابت الأمة الإسلامية يَدْمَى لها القلب:
إنَّ أشدَّ القبائل تأخراً يُدركون معنى الخطر الداهم عليهم، فتراهم يبنذون الخلافات الداخلية، وينسون العداوات الجانبية عند إغارة العدو الخارجي عليهم.

وإذ تقدّر تلك القبائل المتأخرة مصلحتهم الاجتماعية حقَّ قدرها، فما للذين يتولون خدمة الإسلام ويدعون إليه لا ينسون عداوتهم الجزئية الطفيفة فيمهدون بها سبيل إغارة الأعداء الذين لا يحصرهم العدّ عليهم؟! فلقد تراصف الأعداء حولهم وأطبقوا عليهم من كل مكان.. إنَّ هذا الوضع تدهوراً مخيف، وانحطاط مفجع، وخيانة بحق الإسلام والمسلمين.

وأذكرُ للمناسبة حكاية ذات عبرة:

كانت هناك قبيلتان من عشيرة «حَسَنان» وكانت بينهما ثارات دموية، حتى ذهب ضحيتها أكثر من خمسين رجلاً، ولكن ما إن يداهما خطرٌ خارجي من قبيلة «سبكان» أو «حيدران» إلا تتكاتفان وتتعاونان وتنسيان كلياً الخلافات لحين صدّ العدوان.

فيا معشر المؤمنين، أتدرون كم يبلغ عددُ عشائر الأعداء المتأهبين للإغارة على عشيرة الإيوان؟ إنهم يزيدون على المائة وهم يحيطون بالإسلام والمسلمين كالحلقات المتداخلة. فبيننا ينبغي أن يتكاتف المسلمون لصدّ عدوان واحد من أولئك، يعاند كلُّ واحد وينحاز جانباً سائراً وفق أغراضه الشخصية كأنه يمهد السبيل لفتح الأبواب أمام أولئك الأعداء ليدخلوا حَرَمَ الإسلام الآمن.. فهل يليق هذا بأمة الإسلام؟

وإن شئت أن تُعدّد دوائر الأعداء المحيطة بالإسلام، فهم ابتداء من أهل الضلالة والإلحاد وانتهاء إلى عالم الكفر ومصائب الدنيا وأحوالها المضطربة جميعها، فهي دوائرٌ متداخلةٌ تبلغ السبعين دائرة، كلُّها تريد أن تصيبكم بسوء، وجميعها حانقةٌ عليكم

وحريصة على الانتقام منكم، فليس لكم أمام جميع أولئك الأعداء الألداء إلا ذلك السلاح البتار والخذق الأمين والقلعة الحصينة، ألا وهي الأخوة الإسلامية. فأفق أيها المسلم! واعلم أن زعزعة قلعة الإسلام الحصينة بحُجج تافهة وأسباب واهية، خلاف للوجدان الحي وأبي خلاف ومناف لمصلحة الإسلام كلياً.. فانتبه!

ولقد ورد في الأحاديث الشريفة ما مضمونه: أن الدجال و السفياي وأمثالهما من الأشخاص الذين يتولون المنافقين ويظهرون في آخر الزمان، يستغلون الشقاق بين الناس والمسلمين ويستفيدون من تكالبهم على حطام الدنيا، فيُهلكون البشرية بقوة ضئيلة، وينشرون الهرج والمرج بينها وسيطرون على أمة الإسلام ويأسرونها. أيها المؤمنون!

إن كنتم تريدون حقاً الحياة العزيزة، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان، فأفيقوا من رقدتكم، وعودوا إلى رشدكم، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وحصنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية.. وإلا تعجزون عن الدفاع عن حقوقكم بل حتى عن الحفاظ على حياتكم، إذ لا يخفى أن طفلاً صغيراً يستطيع أن يضرب بطلين يتصارعان، وأن حصاة صغيرة تلعب دوراً في رفع كفة ميزان وخفض الأخرى ولو كان فيهما جبلان متوازنان.

فيا معشر أهل الإيمان!

إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنايتكم وتحزبكم، فقوة قليلة جداً تتمكن من أن تديقكم الذل والهلاك. فإن كنتم حقاً مرتبطين بملة الإسلام فاستهدوا بالدستور النبوي العظيم:

(المؤمن من للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)^(١) وعندها فقط تسلّمون من ذل الدنيا

وتنجون من شقاء الآخرة.

(١) البخاري، الصلاة ٨٨؛ مسلم، البر ٦٥.

الوجه السادس:

إن الإخلاص واسطةُ الخلاص ووسيلةُ النجاة من العذاب، فالعداء والعناد يزعلان حياة المؤمن المعنوية فتتأذى سلامةُ عبوديته لله، إذ يضيع الإخلاص!. ذلك لأن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه حتى في أعمال البر التي يزاوها. فلا يوفِّق توفيقاً كاملاً إلى عمل خالص لوجه الله. ثم إنه لا يوفِّق أيضاً إلى العدالة، إذ يربِّح الموالين لرأيه الموافقين له في أحكامه ومعاملاته على غيرهم.. وهكذا يضيع أساسان مهان لبناء البرِّ «الإخلاص والعدالة» بالخصام والعداء.

إنَّ بحث هذا الوجه يطول، فلا يتسع هذا المقام أكثر من هذا القدر، فنكتفي به.

رسالة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *

أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر ٢-٣)

وقال الرسول الأعظم ﷺ: (هَلَكَ النَّاسُ إِلَّا الْعَالِمُونَ وَهَلَكَ الْعَالِمُونَ إِلَّا الْعَامِلُونَ وَهَلَكَ الْعَامِلُونَ إِلَّا الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ)^(١) أو كما قال. تدلنا هذه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف معاً على مدى أهمية الإخلاص في الإسلام، ومدى عظيمته أساساً تستند إليه أمور الدين. فمن بين النكت التي لا حصر لها لمبحث «الإخلاص» نبين باختصار خمس نقاط فقط.

النقطة الأولى

سؤال مهم ومثير للدهشة:

لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء وأرباب الطرق الصوفية وهم أهل حق ووفاء ووفاء بالتمانس والتزام، في حين يتفق أهل الدنيا والغفلة بل أهل الضلالة والنفق من دون مزاحمة ولا حسد فيما بينهم، مع أن الاتفاق هو من شأن أهل الوفاق والوفاء، والخلاف ملازمٌ لأهل النفاق والشقاق. فكيف استبدل الحق والباطل مكانها؛ فأصبح الحق بجانب هؤلاء والباطل بجانب أولئك؟

الجواب: سنبين سبعة من الأسباب العديدة لهذه الحالة المؤلمة التي تقض مضجع الغياري الشهمين.

(١) تقدم تخريجه في اللمعة السابعة عشرة.

السبب الأول:

إنَّ اختلاف أهل الحق غير نابع من فقدان الحقيقة، كما أن اتفاق أهل الغفلة ليس نابعاً من ركوبهم إلى الحقيقة. بل إن وظائف أهل الدنيا والسياسة والمثقفين وأمثالهم من طبقات المجتمع قد تعيَّنت وتميزت؛ فلكل طائفة وجماعة وجمعية مهمة خاصة تشغل بها، وما ينالونه من أجره مادية - لقاء خدماتهم ولإدامة معيشتهم - هي كذلك متميزة ومتعيَّنة، كما أن ما يكسبونه من أجره معنوية كحب الجاه وذبوع الصيت والشهرة، هي الأخرى متعينة ومخصصة وتمتيزة.^(١) فليس هناك إذن ما يولد منافسة أو مزاحمة أو حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال، لذا تراهم يتمكنون من الاتفاق مهما سلكوا من طرق الفساد.

أما أهل الدين وأصحاب العلم وأرباب الطرق الصوفية فإن وظيفة كل منهم متوجهة إلى الجميع، وأن أجرتهم العاجلة غير متعينة وغير متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي وتوجه الناس إليهم والرضى عنهم لم يتخصص أيضاً. فهناك مرشحون كثيرون لمقام واحد، وقد تمتد أيدٍ كثيرة جداً إلى أية أجره مادية كانت أو معنوية. ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة؛ فيتبدل الوفاق نفاقاً والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

فلا يشفي هذا المرض العضال إلا مرهمُ الإخلاص الناجع، أي أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (يونس: ٧٢) بإيثار الحق والهدى على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أثره النفس.. وأن يحصل له امتثال بالآية الكريمة: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) باستغنائه عن الأجر المادي والمعنوي

(١) تحذير: إنَّ إقبال الناس وتوجههم لا يُطلب، بل يوهب، ولو حصل الإقبال فلا يُسرَّ به. وإذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس إليه فقد ضيع الإخلاص ووقع في الرياء. أما التطلع إلى نيل الشهرة والصيت التي تتضمن توجه الناس والرغبة في إقبالهم فهو ليس بأجره ولا ثواب، بل عتاب وعقاب نابعان من فقدان الإخلاص. نعم، إن توجه الناس وإقبالهم لا يراد، لأن ما فيه من لذة جزئية تضر بالإخلاص الذي هو روح الأعمال الصالحة، ثم إنه لا يستمر إلا إلى حد باب القبر. فضلاً عن أنه يكتسب ما وراء القبر صورة أليمة من عذاب القبر. فلا يرغب في توجه الناس ونيل رضاهم إذن، بل يلزم الفرار والتهيب منه. فليصغ إلى هذا عبادة الشهرة والمتلهفون على كسب رضى الناس. (المؤلف).

المقبليين من الناس^(١) مدركاً أنّ استحسان الناس كلامه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم إليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى ومن إحسانه وفضله وحده، وليس داخلياً ضمن وظيفته التي هي منحصرة في التبليغ فحسب. بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به أصلاً. فمن وفقه الله إلى ما ذكر آنفاً يجد لذة الإخلاص، وإلا يفوته الخير الكثير.

السبب الثاني:

إن اتفاق أهل الضلالة نابع من ذلتهم، بينما اختلاف أهل الهداية نابع من عزّتهم؛ إذ لما كان أهل الدنيا والضلالة الغافلون لا يستندون إلى الحق والحقيقة فهم ضعفاء وأذلاء، يشعرون بحاجة ماسة إلى اكتساب القوة ويتشبثون بشدة إلى معاونة الآخرين والاتفاق معهم، ويحرصون على هذا الاتفاق ولو كان مسلكهم ضلالة، فكأنهم يعملون حقاً في تساندهم على الباطل، ويخلصون في ضلالهم، ويبدون ثباتاً وإصراراً على إلحادهم، ويتفقون في نفاقهم، فلأجل هذا يوفقون في عملهم، لأن الإخلاص التام ولو كان في الشر لا يذهب سُدًى، ولا يكون دون نتيجة. فما من سائل يسأل بإخلاص أمراً إلا قضاه الله له.^(٢)

أما أهل الهداية والدين وأصحاب العلم والطريقة فلأنهم يستندون إلى الحق والحقيقة، ولأن كلاً منهم أثناء سيره في طريق الحق لا يرجو إلا رضى ربه الكريم ويطمئن إليه كل الاطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه، إذ حالما يشعر بضعف

(١) لا بد من جعل شيمة «الإيثار» التي تحلّى بها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ونالوا بها ثناء القرآن الكريم نصب العين، واتخاذها دليلاً ومرشداً، وهذا يعني: تفضيل الآخرين على النفس عند قبول الهدايا والصدقات، وعدم قبول شئ مقابل ما يقوم به المرء من خدمات في سبيل الدين، بل لا يطلبه قلباً. وإذا حصل شئ من هذا القبيل فليعده إحساناً إلهياً محضاً، من دون البقاء تحت منة الناس. إذ ما ينبغي أن يسأل شئ في الدنيا لقاء خدمات في سبيل الدين، لئلا يضيع الإخلاص. فالأمة وإن كان عليها أن تضمن معاش هؤلاء، كما أنهم يستحقون الزكاة، إلا أن هؤلاء العاملين لا يسألون الناس شيئاً وربما يوهب لهم، حتى لو وهب لهم شئ فلا يأخذونه لقيامهم في خدمة الدين. فالأفضل إيثار من هم أهل لها على النفس، والرضى بما قسم الله من رزق والقناعة به، كي يحظى المرء بالثناء القرآني العظيم ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)، وعندئذ يكون ظافراً بالإخلاص ومتقدماً نفسه من شرور هذه التهلكة الخطرة. (المؤلف).

(٢) نعم، إن «من طلب وجدَّ وجدَّ» دستور من دساتير الحقيقة له من السعة والشمول ما يشمل مسلكنا أيضاً (المؤلف).

ينيب إلى ربه دون الناس، ويستمد منه وحده القوة، زد على ذلك يرى أمامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه، لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الاتفاق مع مخالفه ظاهراً ولا يجد في نفسه الحاجة إليه. وإذا ما كان ثمة غروراً وأناية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الإخلاص ويحبط عمله ويكون أثراً بعد عين.

والعلاج الوحيد لهذه الحالة والحيلولة دون رؤية نتيجتها الوخيمة هو في تسعة أمور

آتية:

١ - العمل الإيجابي البناء، وهو: عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في علمه عداء الآخرين أو التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلاً.

٢ - بل عليه أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام -مهما كان نوعها- والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها.

٣- واتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو: أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: «إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل» من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: «الحق هو مسلكي فحسب» أو «أن الحسن والجمال في مسلكي وحده» الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها.

٤- العلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية.

٥ - الحفاظ على الحق والعدل بإيجاد شخص معنوي؛ وذلك بالاتفاق مع أهل الحق للوقوف تجاه أهل الضلالة والباطل الذين أخذوا يغيرون بدهاء شخص معنوي قوي في صورة جماعة على أهل الحق -بما يتمتعون به من تساند واتفاق-

ثم الإدراك بأن أية مقاومة فردية -مهما كانت قوية- مغلوطة على أمرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة.

٦ - ولأجل إنقاذ الحق من صولة الباطل:

٧ - ترك غرور النفس وحظوظها.

٨ - وترك ما يُتصور خطأً أنه من العزة والكرامة.

٩ - وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة.

هذه النقاط التسع يُظفر بالإخلاص ويوفي الإنسان وظيفته حق الوفاء ويؤديها على

الوجه المطلوب.^(١)

السبب الثالث:

إنَّ اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً عن الوضاعة وفقدان المهمة، كما أن اتفاق أهل الضلالة ليس ناشئاً عن علو المهمة، بل إن اختلاف أهل الهداية نابع من سوء استعمال علو المهمة والإفراط فيه، واتفاق أهل الضلالة مردّه الضعف والعجز الحاصلان من انعدام المهمة.

والذي يسوق أهل الهداية إلى سوء استعمال علو المهمة وبالتالي إلى الاختلاف والغيرة والحسد، إنما هو المبالغة في الحرص على الثواب الأخروي -الذي هو في حد ذاته خصلة ممدوحة- وطلب الاستزادة منها دون قناعة وحصرها على النفس. وهذا يستدرج الحريص شيئاً فشيئاً حتى يصل به الأمر إلى أن يتخذ وضعاً منافساً إزاء أخيه الحقيقي الذي هو بأمس الحاجة إلى محبته ومعرفته وأخوته والأخذ بيده. كأن يقول -مثلاً- لأغتم أنا بهذا الثواب، ولأرشد أنا هؤلاء الناس وليسمعوا مني وحدي الكلام، وأمثالها من طلب المزيد من الثواب لنفسه. أو يقول: لماذا يذهب تلاميذي إلى فلان وعلان؟ ولماذا لا يبلغ تلاميذي عدد تلاميذه وزيادة؟ فتجد روح الأنانية

(١) لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معاً تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فأهل الإيثار والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعون أيضاً إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتاً كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً لعدوهم المشترك الملحد المتعدي. (المؤلف).

لديه - بهذا الحوار الداخلي - الفرصة سانحة لترفع رأسها وتبرز، فتسوقه تدريجياً إلى التلوث بصفة مدمومة، تلك هي التطلع إلى حب الجاه، فيفوته الإخلاص وينسد دونه بابه، بينما يفتح باب الرياء له على مصراعيه.

إنَّ علاجَ هذا الخطأ الجسيم والجرح البليغ والمرض الروحي العضال هو:
العلم بأن رضى الله لا يُنال إلا بالإخلاص^(١)، فرضاه سبحانه ليس بكثرة التابعين ولا باطراد النجاح والتوفيق في الأعمال، ذلك لأن كثير التابعين والتوفيق في الأعمال هو مما يتولاه الله سبحانه بفضلته وكرمه، فلا يُسأل ولا يُطلب بل يؤتته الله سبحانه من يشاء.

نعم، رُبَّ كلمة واحدة تكون سبباً للنجاة من النار وتصبح موضع رضى الله سبحانه،^(٢) ورُبَّ إرشاد شخص واحد يكون موضع رضى الله سبحانه بقدر إرشاد ألف من الناس. فلا ينبغي أن تُؤخذ الكمية بنظر الاعتبار كثيراً.

ثم إنَّ الإخلاص في العمل ونشدان الحق فيه إنما يُعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامةً أيّاً كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر. وإلا فحصر النظر بأن يؤخذ الدرس والإرشاد مني فقط لأفوز بالثواب الأخرى هو حيلة النفس وخديعة الأنانية.

فيا من يحرص على المزيد من الثواب ولا يقنع بما قام به من أعمال للآخرة!

اعلم أن الله سبحانه قد بعث أنبياءً كراماً، وما آمن معهم إلا قليل. ومع ذلك نالوا ثواب النبوة العظيم كاملاً غير منقوص. فليس السبق والفضل إذن في كثرة التابعين المؤمنين، وإنما في نيل شرف رضى الله سبحانه. فمن أنت أيها الحريص حتى ترغب أن يسمعك الناس كلهم، وتتغافل عن واجبك وتحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره؟ اعلم واجبك، ولا تحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره. اعلم أن تصديق الناس

(١) انظر: ابن ماجه، المقدمة ٩؛ الحاكم، المستدرک ٢/٣٦٢.

(٢) انظر: البخاري، الرقاق ٨١؛ مسلم، الزهد ٦؛ الترمذي، الزهد ١٢؛ ابن ماجه، الفتن ١٢؛ الموطأ، الكلام ٤؛

أحمد بن حنبل، المسند ٢/٣٣٤، ٣/٤٦٩

كلامك وقبولهم دعوتك وتجمعهم حولك إنما هو من فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا تُشغل نفسك فيما يخصه سبحانه من تقدير وتدير، بل اجمع همك في القيام بما أنيط بك من واجب.

ثم إن الإصغاء إلى الحق والحقيقة، ونوال المتكلم بها الثواب ليس منحصراً على الجنس البشري وحده، بل لله عباد من ذوي الشعور ومن الروحانيين والملائكة قد ملأوا أركان الكون وعمروها.^(١) فإن كنت تريد مزيداً من الثواب الأخروي فاستمسك بالإخلاص واتخذ أساساً لعملك واجعل مرضاة الله وحدها الهدف والغاية في عملك، كي تحيا أفراد تلك الكلمات الطيبة المنطوقة من شفيتك منتشرة في جو السماء بالإخلاص وبالنية الخالصة لتصل إلى أسماع مخلوقات من ذوي المشاعر الذين لا يحرصهم العد، فنثورهم، وتنال بها الثواب العظيم أضعافاً مضاعفة. ذلك لأنك إذا قلت: «الْحَمْدُ لله» مثلاً فستكتب بأمر الله على إثر نطقك بهذه الكلمة ملايين الملايين من «الْحَمْدُ لله» صغيرة وكبيرة في الفضاء. فلقد خلق سبحانه ما لا يعد من الأذان والأسماع تصغي إلى تلك الكلمات الكثيرة الطيبة، حيث لا عبث ولا إسراف في عمل البارئ الحكيم. فإذا ما بعث الإخلاص والنية الصادقة الحياة في تلك الكلمات المنتشرة في ذرات الهواء فستدخل أسماع أولئك الروحانيين لذينة طيبة كلذة الفاكهة الطيبة، ولكن إذا لم يبعث رضى الله والإخلاص الحياة في تلك الكلمات، فلا تستساع، بل تنبو عنها الأسماع، ويبقى ثوابها منحصراً فيما تفوه به الفم. فليصغ إلى هذا قراء القرآن الكريم الذين يتضايقون من افتقار أصواتهم إلى الجودة والإحسان فيشكون من قلة السامعين لهم.

السبب الرابع:

إنَّ اختلاف أهل الهداية وتحاسدهم ليس كائناً من عدم التفكير في مصيرهم ولا من قصر نظرهم، كما أن الاتفاق الجاد بين أهل الضلالة ليس كائناً من القلق على المصير ولا من سمو نظرهم وعمق رؤيتهم. بل إن عجز أهل الهداية عن الثبات على الاستقامة في السير، وتقصيرهم عن الإخلاص في العمل يحرمهم من التمتع بمزايا ذلك المستوى

(١) انظر: الترمذي، الزهد ٩؛ ابن ماجه، الزهد ١٩.

الرفيع، فيسقطون في هوة الاختلاف رغم كونهم يسترشدون بالعقل والقلب البصيرين للعاقبة ويستفيضون من الحق والحقيقة ولا يميلون مع شهوات النفس بمقتضى أحاسيسهم الكليلة عن رؤية العقبى.

أما أهل الضلالة فبإغراء النفس والهوى وبمقتضى المشاعر الشهوية والأحاسيس النفسانية الكليلة عن رؤية العقبى والتي تفضل درهما من لذة عاجلة على أرطال من الآجلة، تراهم يتفوقون فيما بينهم اتفاقاً جاداً ويجمعون حول الحصول على منفعة عاجلة ولذة حاضرة.

نعم، إنَّ عبید النفس السفلة من ذوي القلوب الميتة والهائمين على الشهوات الدنيئة يتحدون ويتفوقون فيما بينهم على منافع دنيوية عاجلة.. بينما ينبغي لأهل الهداية الاتفاق الجاد والاتحاد الكامل والتضحية المثمرة والاستقامة الرصينة فيما بينهم، حيث إنهم يتوجهون بنور العقل وضيء القلب إلى جني كمالات وثمرات أخروية خالدة آجلة، ولكن لعدم تجرّدهم من الغرور والكبر والإفراط والتفريط يضيّعون منبعاً عظيماً ثراً يمدّهم بالقوة، ألا وهو الاتفاق. فيضيع بدوره الإخلاص ويتحطم، وتتضعضع الأعمال الأخروية وتذهب سدى، ويصعب الوصول إلى نيل رضى الله سبحانه.

وعلاج هذا المرض الوييل ودواؤه هو:

الافتخار بصحبة السالكين في منهج الحق، وربط عرى المحبة معهم تطبيقاً للحديث الشريف: (الحُب في الله)^(١) ثم السير من خلفهم وترك شرف الإمامة لهم، وترك الإعجاب بالنفس والغرور، بناء على احتمال كون سالك الحق أياً كان هو خيراً منه وأفضل، وذلك ليسهل نيل الإخلاص. ثم العلم بأن درهماً من عمل خالص لوجه الله أولى وأرجح من أرطال من أعمال مشوبة لا إخلاص فيها. ثم إثارة البقاء في مستوى التابع دون التطلع إلى تسلم المسؤولية التي قلما تسلم من الأخطار.

(١) انظر: أبو داود، السنة ٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/١٤٦؛ الطيالسي، ص ٥٠، ١٠٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف

بهذه الأمور يُعالج هذا المرض الوبيل ويُعافي منه، ويظفر بالإخلاص، ويكون المؤمن ممن أدى أعماله الأخروية حق الأداء.

السبب الخامس:

إنَّ اختلاف أهل الهداية وعدم اتفاقهم ليس نابعاً من ضعفهم، كما أن الاتفاق الصارم بين أهل الضلالة ليس نابعاً من قوتهم. بل إن عدم اتفاق أهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة إلى القوة، لما يمددهم به إيمانهم الكامل من مرتكز قوي. وإن اتفاق أهل الغفلة والضلالة ناجم عن الضعف والعجز، حيث لا يجدون في وجدانهم مرتكزاً يستندون إلى قوته. فلفرط احتياج الضعفاء إلى الاتفاق تجدهم يتفقون اتفاقاً قوياً، ولضعف شعور الأقوياء بالحاجة إلى الاتفاق يكون اتفاقهم ضعيفاً. مثلهم في هذا كمثل الأسود التي لا تشعر بالحاجة إلى الاتفاق - كالثعالب - فتعيش فرادى، بينما الوعل والماعز الوحشي تعيش قطعاناً خوفاً من الذئاب. أي إن جمعية الضعفاء والشخص المعنوي الممثل لهم قوي كما أن جمعية الأقوياء والشخص المعنوي الممثل لهم ضعيف^(١) وهناك إشارة لطيفة إلى هذا السر في نكتة قرآنية ظريفة وهي إسناد الفعل «قَالَ» بصيغة المذكر إلى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (يوسف: ٣٠)، بينما جاء الفعل «قالت» بصيغة المؤنث في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ (الحجرات: ١٤) وهم جماعة من الذكور، مما تشير إشارة لطيفة إلى أن جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقترضت الحال صيغة المذكر، فجاء فعل «قال» مناسباً وفي غاية الجمال. أما الرجال الأقوياء فلأنهم يعتمدون على قوتهم ولا سيما الأعراب البدويون فتكون جماعتهم ضعيفة كأنها تكسب نوعاً من خاصية الأنوثة من توجس وحذر ولطف ولين فجاءت صيغة التأنيث للفعل ملائمة جداً في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ .

(١) إن ما يؤيد دعوانا هذه هو أن أقوى المنظمات الأوربية وأكثرها تأثيراً في المجتمع وأشدّها من ناحية، هي منظمات النساء - وهن الجنس اللطيف - في أمريكا التي تطالب بحقوق المرأة وحرّيتها. وكذلك منظمات الأرمن الذين هم أقلية وضعفاء بين الأمم، إلا أنهم يبدوون تضحية وبسالة فائقة. (المؤلف).

نعم إنَّ الذين ينددون الحق لا يرون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين لما يحملون في قلوبهم من إيمان قوي يمدهم بسند عظيم ويبعث فيهم التوكل والتسليم، حتى لو احتاجوا إلى الآخرين فلا يتشبثون بهم بقوة. أما الذين جعلوا الدنيا همَّهم، فلغفلتهم عن قوة استنادهم ومرتكزهم الحقيقي يجدون في أنفسهم الضعف والعجز في إنجاز أمور الدنيا، فيشعرون بحاجة ملحة إلى من يمد لهم يد التعاون فيتفقون معهم اتفاقاً جاداً لا يخلو من تضحية وفداء.

وهكذا فلأن طلاب الحق لا يقدرّون قوة الحق الكامنة في الاتفاق ولا يباليون بها، ينساقون إلى نتيجة باطلة وخيمة تلك هي الاختلاف. بينما أهل الباطل والضلالة فلأنهم يشعرون - بسبب عجزهم وضعفهم - بما في الاتفاق من قوة عظيمة فقد نالوا أمضى وسيلة توصلهم إلى أهدافهم، تلك هي الاتفاق.

وطريق النجاة من هذا الواقع الباطل الأليم، والتخلص من هذا المرض الفتاك، مرض الاختلاف الذي ألمَّ بأهل الحق، هو اتخاذ النهي الإلهي في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُضَلَّوْا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦) واتخاذ الأمر الرباني في الآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢) دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية.. ثم العلم بمدى ما يسببه الاختلاف من ضرر بليغ في الإسلام والمسلمين ومدى ما ييسر السبيل أمام أهل الضلالة لייستوا أيديهم على أهل الحق.. ثم الالتحاق بقافلة الإيثار التي تنشدهم الحق والانخراط في صفوفها بتضحية وفداء وبشعور نابع من عجز كامل وضعف تام، وذلك مع نُكران الذات والنجاة من الرياء ابتغاء الوصول إلى نيل شرف الإخلاص.

السبب السادس:

إنَّ اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً من فقدان الشهامة والرجولة ولا من انحطاط الهمة وانعدام الحمية، كما أن الاتفاق الجاد بين الغافلين الضالين الذين يبعون الدنيا في أمورهم ليس ناشئاً من الشهامة والرجولة ولا من الحمية وعُلو الهمة. بل إن أهل الحق

وجّهوا نظرهم إلى ثواب الآخرة على الأكثر، فتوزع ما لديهم من حمية وهمة وشهامة إلى تلك المسائل المهمة والكثيرة، ونظراً لكونهم لا يصرفون أكثر وقتهم -الذي هو رأس مالهم الحقيقي- إلى مسألة معينة واحدة، فلا ينعقد اتفاقهم عقداً محكماً مع السالكين في نهج الحق، حيث إنّ المسائل كثيرة والميدان واسع جداً.

أما الدنيويون الغافلون، فلكونهم يحضرون نظرهم حصراً في الحياة الدنيا -فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم- تراهم يرتبطون معها بأوثق رباط وبكل ما لديهم من مشاعر وروح وقلب. فأياً شخص يمد لهم يد المساعدة يستمسكون بها بقوة، فهم يحضرون وقتهم الثمين جداً في قضايا دنيوية لا تساوي شيئاً في الحقيقة لدى أهل الحق. مثلهم في هذا كمثل ذلك الصائغ اليهودي المجنون الذي اشترى قطعاً زجاجية تافهة بأثمان الأحجار الكريمة الباهظة. فابتاع الشيء بأثمان باهظة، وصرف المشاعر كلها نحوه يؤدي حتماً إلى النجاح والتوفيق ولو كان في طريق باطل، لأن فيه إخلاصاً جاداً.

ومن هنا يتغلب أهل الباطل على أهل الحق، فيفقد أهل الحق الإخلاص ويسقطون في مهاوي الذل والتصنع والرياء، ويضطرون إلى التملق والتزلف إلى أرباب الدنيا المحرومين من كل معاني الشهامة والهمة والغيرة.

فيا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لأجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف بتأديبكم بالأدب الفرقاني العظيم، ألا وهو: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، فاعفوا عن هفوات إخوانكم واصفحوا عن تقصيراتهم، وعضوا أبصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالأعداء الخارجيون يُغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من أهم واجباتكم الأخروية وأولها بالاهتمام، وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من التآخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعري الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونهج الحق المبين بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون،

واحذروا دائماً من الوقوع في شبك الاختلاف. ولا يقولن أحدكم: «سأصرف وقتي الثمين في قراءة الأوراد والأذكار والتأمل، بدلاً من أن أصرفه في مثل هذه الأمور الجزئية» فينسحب من الميدان ويصبح وسيلة في توهين الاتفاق والاتحاد، وسبباً في إضعاف الجماعة المسلمة، ذلك لأن المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة ربما هي على جانب عظيم من الأهمية في هذا الجهاد المعنوي. فكما أن مرابطة جندي في ثغر من الثغور الإسلامية -ضمن شرائط خاصة مهمة- لساعة من الوقت قد تكون بمثابة سنة من العبادة،^(١) فإن يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي ولاسيما في هذا الوقت العصيب الذي غلب أهل الحق فيه على أمرهم، أقول إنَّ يومك هذا ربما يأخذ حُكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي، أي يكون ثوابه عظيماً، بل ربما يكون يومك هذا كألف يوم. إذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا يُنظر إلى صغره وكبره ولا إلى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الإخلاص تصبح نجمة متألئة، فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار وإنما العبرة في النتيجة والغاية، وحيث إنها رضى الله سبحانه، وأن أساس العمل هو الإخلاص، فلن تكون تلك المسألة إذن مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وعظيمة.

السبب السابع:

إنَّ اختلاف أهل الحق والحقيقة ومنافستهم ليس ناشئاً من الغيرة فيما بينهم ولا من الحرص على حطام الدنيا، كما أن اتفاق الدنيويين الغافلين ليس من كرامتهم وشهامتهم. بل إن أهل الحقيقة لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة ولم يستطيعوا البقاء والثبات ضمن منافسة شريفة نزيهة في سبيل الحق، بتسلل القاصرين منهم في هذا الميدان؛ لذا فقد أساءوا -بعض الإساءة- إلى تلك الصفات المحموده، وسقطوا في الاختلاف والخلاف نتيجة التحاسد فأضروا بأنفسهم وجماعة المسلمين أيها ضرر.

(١) انظر: البخاري، الجهاد، ٥، ٧٣؛ مسلم، الإمارة ١١٢-١١٥، ١٦٣؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٢٦؛ النسائي، الجهاد ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٢٤، ٢٤؛ الدارمي، الجهاد ٣٢، ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥/٢، ١٧٧، ٣٣٩/٥، ٤٤٠، ٤٤١.

أما الضالون والغافلون فنظراً لفقدانهم المروءة والحمية لعجزهم وذلتهم فقد مدوا أيديهم واتحدوا اتحاداً صادقاً مع أناس أياً كانوا، بل مع الدينئين الوضيعين من الناس كيلا تفوتهم منافع يلهثون وراءها، ولا يُسخطوا أصدقاءهم ورؤساءهم الذين يأتمرون بأوامرهم إلى حد العبادة لأجلها، لذا اتفقوا مع من يشاركتهم في الأمر اتفاقاً جاداً واجتمعوا مع من يجتمع حول تلك المنافع بأي شكل من أشكال الاجتماع، فبلغوا إلى ما يصبون إليه من جراء هذا الجهد والحزم في الأمر.

فيا أهل الحق وأصحاب الحقيقة ويا من ابتليتكم ببلوى الاختلاف! لقد ضيعتم الإخلاص في هذا الظرف العصيب ولم تجعلوا رضى الله غاية مسعاكم فمهّدت السبل لإسقاط أهل الحق مغلوبين على أمرهم، وجرعتموهم مرارة الذل والهوان.

اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولا غيره في أمور الدين والآخرة، فليس فيها في نظر الحقيقة أمثال هذه الأمور. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تناول الأيدي الكثيرة على شيء واحد وحصص الأنظار إلى مقام واحد اشتهاه المعدات الكثيرة إلى طعام واحد، فتؤول المناقشة والمسابقة والمزاحمة إلى المنافسة والحسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبه الكثيرة، وحيث إن الكثيرين يتهالكون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة. أما في الآخرة الفسيحة فلكل مؤمن جنة عرضها السماوات والأرض تمتد إلى مسافة خمسمائة سنة،^(١) ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك إذن

(١) سؤال مهم وارد من جانب عظيم الأهمية: كيف تستوعب عقولنا الدنيوية القاصرة حقيقة ما روي أن المؤمن يُمنح جنة عرضها خمسمائة سنة؟

الجواب: كما أن لكل شخص في هذه الدنيا دنيا مؤقتة خاصة به، قوامها حياته يستمتع بها ما يشاء بحواسه الظاهرة والباطنة، حتى يمكنه أن يقول: الشمس مصباح لي والنجوم فتاديل لي، فلا ينازع في ملكيته هذه وجود سائر المخلوقات وذوي الأرواح، بل يعمر دنياه الخاصة ويُجملونها... كذلك الأمر في الجنة، مع فارق عظيم، فكل مؤمن فضلاً عن روضته الخاصة التي تضم ألوف القصور والحور العين له جنة خاصة به بسعة خمسمائة سنة من الجنة العامة، يستمتع بها استمتاعاً يليق بالجنة والخلود بما تنكشف من حواسه وتنبت من مشاعره حسب درجة كل مؤمن، فلا ينقص وجود الآخرين معه ومشاركتهم له شيئاً من تنعمه وتلذذه وتملكه، بل يعمر جنته الخاصة والواسعة ويزينونها. نعم، فكما يتمتع الإنسان في الدنيا بغمه وأذنه وعينه وأذواقه الأخرى ومشاعره وحواسه كلها في مسافة ساعة يقضيها في حديقة، أو في مسافة يوم يمضيه =

للحسد والمنافسة قط. فبدلنا هذا على أنه لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة تنضي إلى الآخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمن تحاسد فهو لا شك مُراءٍ. أي إنه يتحرى مغنم دنيوية تحت ستار الدين ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو إنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة ولم يدرك بعد أن الإخلاص روح الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة منطوياً في قرارة نفسه على نوع من العدا مع أولياء الله الصالحين الصادقين.

وسأذكر هنا حادثة تؤيد هذه الحقيقة: كان أحد أصدقائنا السابقين يحمل في قلبه ضغينة وعداء نحو شخص معين. وعندما أثنى على هذا الشخص أمامه في مجلس وقيل في حقه: «إنه رجل صالح، إنه ولي من أولياء الله» رأينا أن هذا الكلام لم يثر فيه شيئاً فلم يُبدِ ضيقاً من الشناء على عدوه. ولكن عندما قال أحدهم: «إنه قوي وشجاع» رأيناه قد انتفض عرق الحسد والغيرة لديه. فقلنا له: «يا هذا إن مرتبة الولاية والتقوى من أعظم المراتب في الآخرة فلا يقاس عليها شيء آخر، فأين الثرى من الثريا؟! لقد شاهدنا أن ذكر هذه المرتبة لم يحرك فيك ساكناً بينما ذكُر القوة العضلية التي تملكها حتى الثيران والشجاعة التي تملكها السباع قد أثارتا فيك نوازع الحسد». أجب: «لقد استهدفنا كلانا هدفاً ومقاماً معيناً في هذه الدنيا، فالقوة والشجاعة وأمثالهما هي من وسائل الوصول إلى ما استهدفناه من مرتبة دنيوية، فلأجل هذا شعرت بدواعي المنافسة والحسد. أما منازل الآخرة ومراتبها فلا تحد بحدود، وربما يصبح هناك من كان عدواً لي أحب صديق وأعزه».

= في سياحة، أو في مسيرة شهر كامل في مملكة، أو في سنة من عمره يستجم بها في رحلة وسفرة.. كذلك الأمر هناك في الجنة، تتمتع حاسة الذوق والشم في تلك المملكة الخالدة في مسافة سنة كاملة ما كانت تتمتع به في هذه الحياة الفانية في ساعة من حديقة غناء، وتتمتع حاسة الإبصار والسمع في تلك المملكة الأبديّة الزاهية من أقصاها إلى أقصاها ضمن رحلة أمدها خمسمائة سنة تمتعاً يلائم خلودها ما تتمتع به من سياحة وتحوّل ورحلات يمضيها الإنسان في سنة في هذه الدنيا. فلكل مؤمن حسب درجته وحسب ما يناله من ثواب على أعماله التي قام بها في الدنيا وحسب نسبة ونوعية حسناته تنكشف مشاعره وتنبسط حواسه، فستمتع تلك المشاعر والحواس هناك في الجنة بما يلائم خلودها. (المؤلف).

فيا أهل الحقيقة والطريقة! إنَّ خدمة الحق ليس شيئاً هيناً، بل هو أشبه ما يكون بحمل كنز عظيم ثقیل والقيام بالمحافظة عليه، فالذين يحملون ذلك الكنز على أكتافهم يستبشرون بأيدي الأقوياء الممتدة إليهم بالعون والمساعدة ويفرحون بها أكثر. فالواجب يحتمُّ أن يُستقبل أولئك المُقبلون بمحبة خالصة، وأن يُنظر إلى قوتهم وتأثيرهم ومعاونتهم أكثر من ذواتهم وأن يُتلقوا بالافتخار اللائق بهم، فهم أحوة حقيقيون ومؤازرون مضحون. ولئن كان الواجب يحتم هذا، فلمِ إذن ينظر إليهم نظر الحسد ناهيك عن المنافسة والغيرة، حتى يفسد الإخلاص نتيجة هذه الحالة، وتكون أعمالكم ومهمتكم موضع تهم الضالين. فيضعونكم في مستوى أقل منكم وأوطأ من مسلككم بكثير، بل يقرنونكم مع أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ويضمنون عيشتهم تحت ستار علم الحقيقة ويجعلونكم من المتنافسين الحريصين على حطام الدنيا، وأمثالها من الاتهامات الظالمة!؟

إنَّ العلاج الوحيد لهذا المرض هو اتهام المرء نفسه، والانحياز إلى جهة رفيقه في نهج الحق الذي إزاءه، وعدم الانحراف عن دستور الإنصاف وابتغاء الحق، الذي ارتضاه علماء فن الآداب والمناظرة والذي يتضمن: «إذا أراد المرء أن يظهر الحق على لسانه دون غيره - في مناظرة معينة - وانسَرَّ لذلك واطمأنَّ أن يكون خصمه على باطل وخطأ فهو ظالم غير منصف» فضلاً عن أنه يتضرر نتيجة ذلك لأنه لم يتعلم شيئاً جديداً - من تلك المناظرة - بظهور الحق على لسانه، بل قد يسوقه ذلك إلى الغرور فيتضرر. بينما إذا ظهر الحق على لسان خصمه فلا يضره شيء ولا يبعث فيه الغرور بل ينتفع بتعلمه شيئاً جديداً. أي إن طالب الحق المُنصف يسخط نفسه لأجل الحق، وإذا ما رأى الحق لدى خصمه رضي به وارتاح إليه.

فلو اتخذ أهل الدين والحقيقة والطريقة والعلم هذا الدستور دليلاً لهم في حياتهم وعملهم فإنهم سيظفرون بالإخلاص بإذن الله ويفلحون في أعمالهم الأخروية، وينجون برحمة منه سبحانه وفضله من هذه المصيبة الكبرى التي ألمت بهم وأحاطت بهم من كل جانب.

حرية الحوار

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار حتى نمضي قدماً على ضوء تحديد المفهوم، فنقول:

الحوار: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء.

يقال: حار إلى الشيء وعنه، حواره ومحاراً ومحاورة: رجع عنه وإليه.

وفي الحديث: «من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه» أي رجع إليه ما نسب

والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

والمحاورة أيضاً: المجادلة.

والحوار بمعنى تراجع الكلام، ورد ذكره في القرآن في ثلاثة مواضع، منها ما حكي في قصة أصحاب الجنة، قال تعالى ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف: ٣٤) ومن هذا يفهم أن الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

والتحاور أيضاً: التجاوب وتبادلته وتداوله.

والحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة، إذ قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة، والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والعمل الصالح، والموقف الصالح، حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

وإذا قلنا أن من معاني الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، فإن المجادلة تشترك مع الحوار في كونها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

إلا أن المجادلة تأخذ طابع القوة والغلبة والخصومة.

وأصل كلمة الجدل في اللغة يفيد الشدة والغلبة.

والجدل ورد في القرآن الكريم في مواضع كثير، يهمنا منها الآن ثلاثة جاءت غير مدمومة:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١)

فالجدل لم يؤمر به ولم يمدح في القرآن إلا مقيداً بالحسنى.

إذن فالجدل والحوار: يلتقيان في أنهما حديث، أو محاوره، أو مناقشة بين طرفين، لكن يفترقان بعد ذلك.

وإذا كان مفهوم الحوار هو التجاوب، فمن البداهة القول بأن الإنسان كائن عقل واجتماع، وكائن علاقة وحاجة.

وقد لا يخفى على أهل العلم أن الحوار الحر يولد الأفكار الجديدة في ذهن المتحاورين، ويساعد على تقريب المسائل بين المتحاورين، بعيداً عن الإلزام والاستبداد.

كما أنه عامل لحل كثير من القضايا والمشاكل، التي لولا الحوار لتولد العنف والفوضى، وشاع الخلاف.

وليس هناك من شيء أنفع من تربية البشر، وإصلاح الشعوب، وتقويم النظر، من حوار بناء يعالج شطط الإنسان وجموحه، الأمر الذي يؤدي إلى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات.

ومن يطالع كليات «رسائل النور» للإمام النورسي، يجد أن الحوار بجميع مفاهيمه ومعانيه التي ترقى بالإنسان، قد جاءت في مواضيع كثيرة، أهمها:

- حوار الإنسان مع نفسه: وهذا يؤدي إلى الالتزام بالقيم، حينما يسعى الإنسان إلى تزكية نفسه والسمو بها.

- حوار الإنسان مع الإنسان: وفي ظل هذا الحوار، تقوم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، لأن الإنسان في المجتمع الإسلامي والإنساني جزء من كل، يحمي المجتمع ويحتمي به، ويعطيه ويأخذ منه، وليس هناك انفصال في الإسلام بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع، ومسؤولية المجتمع نحو الفرد.

- حوار الحضارات: لأن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لا تستغني عنها حضارة مهما سمت وارتقت.

هذا فضلاً عن توجيهات الرسائل لتقويم السلوك الحواري، وكيفية التعامل الحواري مع الآخرين بكياسة وعقلانية وتسامح مستتير^(١).

والقارئ لكليات «رسائل النور» يجد أنها جميعاً تتضمن على الكثير من المحاورات البناء والهادفة، والتي من خلالها يريد النورسي أن يرسخ أن المكاشفة والحوار ضرورة حياتية، وتحرير للعقل والفكر من سيطرة التعصب والجهل.

كما أن الحوار يصحح المفاهيم ويقرب وجهات النظر، ويولد المحبة والأخوة ويشيع الأمن والاستقرار.

« أما الانغلاق والانكفاء فهو قاتل للإنسانية، والانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التقدم والتطور^(٢).

ولقد أصبحت الحاجة الملحة إلى الحوار في أيامنا هذه أكثر من أي وقت مضى، ومن القضايا الهامة والعاجلة، لحل المشاكل العالقة والخانقة، سواء وضع هذا

(١) أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح؛ قضايا معاصرة في فكر النورسي، ص ١٣-١٥. بتصرف.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٠.

الحوار في إطار الحوار الحضاري أو الحوار مع الغرب أو في إطار حوار الأديان، أو في إطار الحوار الداخلي بين المسلمين أنفسهم فجميعها تتلاقى في إطار واحد، لأجل ضمان حرية الإنسان الحضارية والثقافية والدينية، ولأجل بناء عالم تسود فيه المحبة المتبادلة والتعاون، واحترام حقوق الغير.

ولكي يتحقق الحوار الهادف البناء، فإنه لا بد وأن يوضع في إطار من الحرية، بعيداً من استبداد ناصية الرأي والحوار، والدعوى بامتلاك عين الحق والحقيقة.

هذا بالإضافة إلى البعد عن التشدد والتشدد والأهواء، والبعد عن النعرات المذهبية والطائفية والمزايدات والفرعنة والأنانية، والغرور، والتحقير والاستخفاف بالآخر، والبعد عن الفكر الإستداري، الذي يجوب بأصحابه في حلقة مفرغة، ومجافية لمبدأ التسليم، ثم البعد والتجنّب لأي حوار مذهبي أو ديني من منظور سياسي أو عنصري.

والأهم هو أن يؤسس الحوار على النقاط التي تلقى إلتقاءً وقبولاً مشتركاً، والعمل بمنهج القرآن في الحوار، ثم تصفية الذات من أي أحكام مسبقة قبل بدء الحوار، مع الإلتزام بتفعيل ضوابط آداب المناظرة والحوار.

إن حرية الحوار تستدعي تأصيل الحوار المنطلق من السلم، والتعاون، والتفاهم، والتعايش، وهذا المنطلق مصدره القرآن.

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣)

وعملاً للفوز بنعيم الدنيا والآخرة، لا بد من ترك مساحة من الوقت الكافي لعرض جميع القضايا المتنازع عليها وأن لا تكس قضايا متعددة للعرض في وقتٍ وأن واحد، بل نترك مساحة عريضة ليأخذ الحوار طريقه للتقارب والنجاح،

فالمولى الذي خلق الخلق خلقهم على أطوار متعددة، ولم يخلقهم دفعة واحدة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَجِيرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّئُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿ (الحج: ٥)

والنورسي يتخذ من هذه الآية وغيرها من نصوص القرآن، منطلقاً لدعوته للحوار بجميع صورته وأشكاله، ويرفض أن يقوم هذا الحوار على نظرة عدائية مسبقة، بل يقوم على حرية فكرية وعقدية حتى مع غير المسلمين، فيقول: «يجب أن لا تنظر للأجانب نظرة عدا، بل ربما يتوجب علينا أن ننظر إليهم كأصدقاء ومساعدين، لأنهم أصبحوا وسيلة لسعادتنا، ولإعلاء كلمة الله في هذا الزمان، لكونهم وسطاء لرقينا ومشوقين»^(١)

إذاً فالنورسي يريد إقامة علاقات حوارية، بعيداً عن نظرة العدا، حتى مع غير المسلمين، وذلك لتجاوز الصدام الذي يسببه التنازع والصراع والتدافع بين الأمم والثقافات من أجل البقاء، وأن يقتنع العالم الإسلامي والغربي على حد سواء، بأن العلاقة بينهم يجب أن تكون على أساس الأخوة الإنسانية إنطلاقاً من قول رسول الله ﷺ (كلكم لأدم وآدم من تراب).

لذلك فإن مفهوم الحوار الحضاري في رسائل النور، يقدم بديلاً موضوعياً لفكرة صدام الحضارات والثقافات، من خلال عرضه مبدأ «التكامل» بدل «الصراع» و «التعايش» بدل «الإقصاء»^(٢) شريطة أن يقوم الحوار بين جميع المتحاورين على قدم المساواة، وعلى احترام تعدد الثقافات، وهو ما نستشفه من قول النورسي:

(١) د. آزاد سعيد؛ أعمال مؤتمر «ممارسة حياة إيمانية فاعلة»، ص ١٠٧، استانبول، ٢٠٠٤.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، ص ١٤١، وانظر إلى ما يتطلبه أدب الحوار، لشيخ الأزهر أ.د. محمد سيد طنطاوي: أدب الحوار في الإسلام، نهضة مصر، ٢٠٠٣ م.

«إعلم أن شرط انتظام الهيئة الاجتماعية، أن لا تتجافي طبقات الإنسان، وأن لا تتباعد طبقة الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيط الصلة بينهما»^(١)

وهذه المقولة تعكس رؤية النورسي في الدعوة لتكامل صورة الحوار الإيجابي بين الجميع، عبر نظام رباني تنشده الإنسانية، ينتج عنه التآلف والتساكن، وتعميم الخير ودفع الشر: «لأن الخير هو أصل العالم، والشر تبعية، ولأن الخير كلي، والشر جزئي»^(٢)، لذلك لا بد من انتصار قوة الخير على قوة الشر من أجل نجاح مشروع عالم تتعدد فيه الهويات الثقافية..

وينطلق النورسي في مشروعه الحواري من منطلقات أساسية، لا غنى لهذا الحوار عنها، تبدأ بالإيمان، ثم القيم الأخلاقية والروحية، ويأتي ذلك قبول التكامل مع الثقافات والحضارات على أساس «خذ ما صفا دع ما كدر»^(٣) فنأخذ ما يتوافق مع شريعتنا، ونرفض الاتجاهات المادية والمفسدة.

ثم الإقناع بالبراهين للإيضاح والتفاهم، وهذه المنطلقات وغيرها، في حد ذاتها كفيلة بضمان حرية الحوار، فلا يجوز أحد على أحد.

وتأسيساً على ذلك مثلاً: فإن الحوار الذي يطرحه النورسي في رسائل النور لحل القضايا الشائكة، لا ينحصر في مجرد حوارات كلامية بين الناس، أو خطب رسمية متبادلة في المحافل والمنتديات والمؤتمرات، بل من حكمة نابعة من جوهر الإيمان.

لقد كانت الخلفية الروحية، تشكل في فكر النورسي، المحرك الرئيسي في نظريته لأهمية الحوار، ولهذا فهو يرى أن أزمة العالم رغم امتلاكها الكثير من الخيرات، هي أزمة روحية في المقام الأول، ولا يمكن أن يخرج هذا العالم

(١) النورسي: إشارات الإعجاز، ص ٥٤.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٣.

(٣) النورسي: الكلمات، ص ٨٥٤.

من أزمته دون مراعاة الجوانب الروحية، وإلا فإن مصير البشرية يبقى مجهول العواقب، فيقول: «ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة.. وهو المصاب في روحه ووجدانه»^(١).

إذاً فالنورسي يطرح قضية الخواء الروحي والإيماني على طاولة الحوار، باعتبار أن الإنسان هو أساس الحضارات ومبدعها.

وقد وظف النورسي الخطاب القرآني في الحض على إقامة علائق ودية بين المجتمعات الإنسانية، حيث سعى في رسائل النور «إلى استثمار المخزون الإيماني لتحسين العالم بضرورة التكامل ونبذ التناكر والتحاكم»^(٢).

وبناءً على ذلك فإن للإيمان دور جوهري في إشاعة التفاهم بين شعوب العالم، وخاصة بين المسلمين - سنة وشيعة - لما يمتلكه من سلطة روحية قوية، تؤدي كما ورد في الرسائل إلى «تشكيل نظام إنساني بديع يتكسر فيه الحقد والكراهية بين شعوب العالم»^(٣).

وبدون الارتكاز على قاعدة الإيمان التي هي أهم القواعد، تتناسل آلام وأحزان البشرية وتسودها التفرقة ويعتريها القلق في حاضرها ومستقبلها^(٤) وبالتالي تنعدم فيها مؤشرات الحوار الجاد، والهادف والمخلص بين الشعوب.

ويدعوا النورسي للتحاور مع «مدنية المؤمنين لأن باطنها أعلى من ظاهرها، ومعناها أتم من صورتها، وفي جوفها أنسية وتحب وتعاون.

والسر: أن المؤمن بسر الإيمان والتوحيد يرى أخوة بين كل الكائنات، وأنسية وتحبباً بين أجزائها، لاسيما بين الآدميين، ولاسيما بين المؤمنين، ويرى أخوة في الأصل والمبدأ والماضي، وتلاقياً في المنتهى والنتيجة في المستقبل»^(٥).

(١) النورسي: اللمعات، ص ١٧٧.

(٢) النورسي: المكتوبات، ص ٤١٣.

(٣) النورسي: المثوي العربي النوري، ص ١٥٧.

(٤) النورسي: سيرة ذاتية، ص ١٧٤.

(٥) النورسي: المثوي العربي النوري، ص ١٨١.

بل وينطلق النورسي في حوارهِ مع بقية الأديان من منطلق القرآن، ومنها قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

ولقد عمل النورسي في حوار الأديان على إدراج النقاط المشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، والتي تضمن إمكانية العمل المشترك بين المسلمين والمسيحيين ضد الإلحاد، بناءً على حقيقة مشتركة جوهرية بين الديانتين، وهي التقاؤهما في الإيمان بحقائق أبدية، بأن لهذا العالم خالق واحد لا يموت، ولم يكن وجود هذا العالم صدفة وعبثاً، وكذلك الإيمان بالغيب.

«ونشاطات النورسي في مجال الحوار الإسلامي المسيحي تتصف بنوعين من الحوار..»

١- حوار داخلي يستهدف التفاهم حول المواقف المشتركة لتشديد الإيمان في صفوف الناس بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية.

ففي هذا الصدد قام النورسي عام (١٩٥٣ م) بزيارة للبطريك «أثينا غوراس» في مقره الواقع في «إستانبول» لإيجاد سبل تعاون بين مسلمي تركيا ومسيحييها لمواجهة الموجه الإلحادية المعادية التي بدأت تغزو تركيا.^(١)

٢- حوار خارجي لإقامة علاقات ودية متينة مع المسيحيين في أوروبا، وبهذا الخصوص بادر النورسي بإرسال مجموعة من أعماله إلى البابا «بيوس الثاني عشر» في الفاتيكان.

فأرسل مجمع الفاتيكان احترامه وتقديره للمسلمين والإسلام.^(٢) وهذا ما يجب على المسلمين فعله، لا أن نتناحر فيما بيننا، وترك نشر تعاليم الإسلام للأخرين.

(١) النورسي: اللغات، ص ٢٢٩. وانظر، سيرة ذاتية، ص ٩٣.

(٢) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٣٨.

ويعتبر النورسي أن الجذور لكل نزاع مذهبي أو ديني هو «الغرور والأناية في النفس، وتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفه على باطل، فيقع الاختلاف والمنافسة، بدل الاتفاق والمحبة»^(١)

ويؤسس النورسي قاعدة يمكن بناء الحوار عليها، حيث يوصي «باتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك حق يستطيع القول: «إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل» من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، لكن لا يجوز له أن يقول: «الحق هو مسلكي فحسب، أو أن الحسن والجمال في مسلكي وحده» الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها»^(٢)

فالنورسي يرى: أنه لا لوم على الإنسان إذ افتخر بقيمه الروحانية التي يؤمن بها، وتقوده في هذه الدنيا وهي غير قابلة للنقاش، ولكن الأمر يختلف إذا تعدى على الآخرين بسبب معتقداتهم، بدلاً من الإنصات والاستماع إليهم، وإكمال معلوماته الدينية واحترامهم.

وفي نهاية المطاف تبقى عليه حرية الاختيار، إذا أن الحوار بين المذاهب والأديان ليس وسيلة للتبشير أو إجبار الغير على اعتناق مذهب، أو دين معين.

ويؤكد النورسي من خلال رسائل النور، أن حرية الحوار بين المذاهب الإسلامية، على أساس الأخوة والمحبة والإخلاص، يكون مرآة صادقة لعرض سماحة الإسلام وتعاليمه، وأن الإسلام يمنح ويضمن حرية الدين للمجتمع بأسره، فيقول: «حرية غير المسلمين جزء من حريتنا»^(٣)

وقرر النورسي أن الحوار لا بد وأن يكون نابعاً من علم ومعرفة تامة، بما سيدور الحوار عليه، وتتم مناقشته، لكي نحصل بعد ذلك على التفاهم والاتحاد، حيث

(١) النورسي: اللمعات، ص ٢٢٨.

(٢) النورسي: اللمعات، ص ٢٢٩.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٩٦.

إنه لا يمكن أن «يحصّل الاتحاد بالجهل، بل الاتحاد هو امتزاج للأفكار، وهذا الامتزاج لا يتم إلا بالنور الوضيء للمعرفة»^(١)

وبهذا يتبين أن النورسي كان أبرز المفكرين الذي أسسوا مشروعاً متكاملًا لحرية الحوار بجميع صورته وأشكاله، وهو يحتاج إلى نشرة والعمل به.

ويحتاج من الذين فهموا مضامين الرسالة الإنسانية الإسلامية، وأدركوا أبعاد المتغيرات العالمية الجديدة أن يكونوا سفراء كالنورسي، لعرض ونشر دينهم الوسطي المعتدل، وطرح القضايا العالقة والشائكة على طاولة حرية الحوار، التي لا تقبل أي استبداد أو إكراه أو إلزام، ولتكن وسيلتنا الإقناع كما وضع النورسي بأن «الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً»^(٢).

وبالحوار الحر والإقناع نستطيع إزالة الكثير من العوائق والموانع التي تعوق تلاقي المسلمين مع بعضهم البعض، وتلاقي الحضارات والثقافات وأفرادها مع الحضارة والثقافة الإسلامية، تلك «الموانع التي حرمت الأجانب من نعمة الإسلام»^(٣). لهذا فإننا نرى أن مسؤولية المثقف المسلم اليوم، تستوجب الشجاعة الفكرية، وإيجاد الخطاب الحر المقنع لتقديم الإسلام على حقيقته داخلياً وخارجياً، لا على الصور التي تأتي بها أحداث العنف والإرهاب وتلتقطها وسائل الإعلام لإشعال نيران الكراهية (داخلياً وخارجياً) والتهويل بالخطر الإسلامي على الحضارة، وعلى الإنسانية.

كما أن حرية الحوار تتطلب إشاعة وتوضيح أن الإسلام لم ولن يؤمن بالطائفية والمذهبية الضيقة والعنصرية، بل يؤمن بالإنسان كوحدة واحدة، وأنه كائن حوارى، يحيا بالحوار، وداخل الحوار.

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٢١.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٢٧-٥٣٥.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٢٣.

والدليل على أهمية الحوار أن القرآن كله ذو طبيعة حوارية، والحوار الحر هو الذي اتبعه الأنبياء في الدعوة والتبليغ والتعليم والإرشاد.

كما أن حرية الحوار هي أبسط صورة لتبادل الأفكار، ونبذ الاستبداد، وإزالة الأحقاد، وهي بذلك المرحلة التمهيديّة البسيطة لكل عمل مشترك.

ومن خلال حرية الحوار يتحقق قول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)

التحرر من معوقات تفعيل الوحدة والتقريب التحرر الجهل

لقد «ناضل النورسي بكل قوة في سبيل الله تعالى، لإنقاذ الناس من غيابة الجهل، ولجّة الإلحاد».^(١)

ونادى على أبناء وطنه قائلاً: «يا أبناء وطني وإخواني، كفاكم نوماً، تيقظوا فلقد أذن الصباح وإلا ستنهبكم الغفلة وأنتم تغطون في نوم عميق في صحراء الجهل القاحلة».^(٢)

وذلك لأن «الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوروبا لتحمل ظناً خاطئاً من أن الشريعة تعين الاستبداد».^(٣)

ويبين النورسي أن جهلنا الذي نفشى فينا أدى «إلى جهل الأجانب بالإسلام».^(٤)
«ثم إن أعداءنا ليسوا الأجانب.. وإنما الذي أردانا إلى هذا الوضع وحال بيننا وبين إعلاء كلمة الله هو مخالفتنا للشريعة الغراء نتيجة جهلنا بها».

«ألا تباً وسحقاً وبعداً للجهل».^(٥)

إذاً فالإمام النورسي يعلن أن أعداءنا ليسوا الأجانب فقط، وإنما بجهلنا لتعاليم الإسلام جعلناهم دون أن نشعر، جهلاء أيضاً بالإسلام، فأصبحنا سويماً دون أن نشعر، أعداء لجهلنا بسماحة تعاليم الإسلام.

ويتحدث النورسي عن العدو الحقيقي لنا فيقول: «إن عدونا هو الجهل والضرورة والاختلاف، وسنجاهد هؤلاء الأعداء الثلاثة بسلاح الصناعة والمعرفة والإيقان».^(٦)

(١) النورسي: الشعاعات، ص ٦١١.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٦٣.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٤٣.

(٤) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٣٥.

(٥) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٧٥.

(٦) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٤٣.

ويبين أن «الحرية الشرعية تهتف بكم: اهجموا على الجهل والفقير بالعلم والصنعة»^(١).

ويبين النورسي أن «الآيات القرآنية التي تخاطب العقل البشري تسأل: لم تتركوا العلم وتختارون طريق الجهل؟»^(٢) مع أن الإسلام يعادي الجهل.

ويرى النورسي أن أعجب عجائب الجهل وأتعسه هو الجهل الذي وقع فيه «قسماً من أهل الضلالة الذين يطلق عليهم الماديون الذين توهموا أزلية المادة والقوة، فسبحان الله.

فمن كان له مسكة من عقل لا بد أن يحكم بأن هذا جهل ما بعده جهل وخرافة. إن هؤلاء التعساء قد وقعوا في عبادة آلهة كثيرة، لأنهم أعرضوا عن الوحدانية المطلقة... فتأمل مبلغ الحضيض الذي سقطوا فيه، وسحيق الدرك الأسفل من الجهل الذي تردوا فيه»^(٣).

«وما هذا إلا فتح لباب الجهل المطلق، المنافي للإنسان المكرم المخلوق في أحسن تقويم»^(٤).

إذاً فالنورسي يوضح أنه لا بد من التحرر من الجهل، لأنه غير لائق بإنسان كرمه الله بالعقل وأحسن تقويمه أن يكون جاهلاً.

وهذا ما دفع النورسي الإنسان لكي يخاطب الإنسان المكرم أن يتحرر من هذا الجهل لما له من مساوئ.

ويذكر النورسي طرفاً من هذه المساوئ، فيقول مبيناً بأن: «الجهل مجلبة للوساوس، بينما العلم على نقيضه دافع لشرها»^(٥).

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٦٣.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٩٥.

(٣) النورسي: اللغات، ص ٥٧٦، ٥٧٧.

(٤) النورسي: الملاحق، ص ٣٥٩.

(٥) النورسي: الكلمات، ص ٣٠٣.

وكذلك من المساوىء «التعصب الناشئ عن الجهل». (١)

ويضيف النورسي أن أعظم المساوىء التي نعاني منها هو: أن «هذا الجهل كان مانعاً وعائقاً أمام تعلم الكثير من العلوم» (٢) «فعدّبتنا بجهنم الجهل» (٣).
ويبين النورسي كذلك «أن السلطة المستندة إلى القوة والإكراه، هي الحاكمة في سالف الأزمان، وهي محكومة بالتدني والانقراض، حيث إنها حصيلة «الجهل والوحشية» (٤).

ويرى النورسي: أن التحرر من الجهل يغلق أبواب الخرافات، لأنه إذا تسلم الجهل المجاز حول له إلى حقيقة فيقول: «إذا وقع المجاز من يد العالم إلى يد الجهل ينقلب إلى حقيقة ويفتح الباب للخرافات، إذ المجازات والتشبيهات إذا ما اقتطفتها يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور.. انقلبتا إلى «حقيقة» مستفرغة من الطراوة والنداوة، فتصير سراباً خادعاً بعدما كانت شراباً زلالاً، وتصبح عجوزاً شمطاء بعد ما كانت فاتنة حسناء.

ومما أطلعني على هذه الحقيقة ودلني عليها، هو حدوث خسوف القمر.

فقلت: فلم يشاهد القمر؟ قالت: إن ثعابين السماء شبه شفاقة.

فانظر كيف تحول التشبيه إلى حقيقة فحجبت حقيقة الحال» (٥)

لذا يدعوا النورسي «للتحرر من ظلام الفكر، لأنه يولد الظلم والجهل». (٦)

وكعادة النورسي الذي لم يفصح عن داء إلا وقدم له دواء.

فراه يقدم العلاج النافع لتحرر الإنسان من الجهل، وهذا العلاج هو القرآن الكريم «حقاً، إن تمزيق ستار العاديات - التي هي مصدر الجهل المركب - بيانات

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٣٠.

(٢) النورسي: الشعاعات، ص ٥٩٧.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٣.

(٤) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٦٩.

(٥) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٠.

(٦) النورسي: الكلمات، ص ٨٤٨.

نافذة، واستخراج خوارق العادات المستترة تحت ذلك الستار وإظهارها بجلاء، وتحطيم طاغوت الطبيعة - التي هي منبع الضلالة - بسيف البراهين الأمامية، وتشيت حجب الغفلة الكثيفة بصيحات مدوية كالرعد، وحل طلسم الكون المغلق والمعمر العجيب للعالم، الذي أعجز الفلسفة البشرية والحكمة الإنسانية، ما هو إلا من صنع هذا القرآن المعجز البيان»^(١)

كما قدم النورسي علاجاً آخر لكي يتحرر الإنسان من الجهل، فدعا إلى «إنشاء جامعات دينية لتزيل الجهل الذي هو داء الأمة الوبيل»^(٢) وذلك على غرار الأزهر الشريف.

ومن خلال ما سبق يتضح أن النورسي يريد تحرير الإنسان من الجهل الذي يعوق معرفته بربه وخالقه، ويعوق عقله من الحرية الفكرية، ويعوقه من الوصول إلى الحقيقة، ويفتح أمامه باب الخرافات، ثم يبين العلاج النافع وهو القرآن الكريم الذي حطم سد الجهل، وإنشاء دور التعليم الدينية ومدارسه «رسائل النور التي تزيل طلسم الجهل».^(٣)

ولعل الأهم هو أن الجهل بحقيقة تعاليم الإسلام المعتدلة، والجهل بكيفية معالجة القضايا الفرعية المذهبية، أدى إلى التنافر بين بعض المسلمين هذا من ناحية، وأدى إلى نظرة الغرب للإسلام والمسلمين نظرة إزدراء، ثم حكمهم عليه بالرجعية والهمجية.

والعلاج هو بسط تعاليم الإسلام بصورة مرنة، بعيداً عن التشدد وإثارة الفتنة وتهيج المشاعر، ودراسة الإسلام بمنهجية الأزهر الشريف، الذي لا يفرق بين الأراء الإجهادية، بل إن الدكتور عبدالحليم محمود (رحمه الله) أصدر فتوى بالعمل بمذاهب السنة والشيعة على حد سواء، دون التجريح في أي طرف.

(١) النورسي: الكلمات، ص ٤٤٦.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام: ص ٤٥١.

(٣) النورسي: الملاحق، ص ٢٠٤.

إذا فإزالة الجهل، والبعد عن التجريح والإساءة للصحابة والأولياء والعلماء، يقع أولاً على عاتق العلماء المخلصين لهذا الدين.

التحرر من التقليد

« التقليد لغة: هو جعل القلادة في العنق.

وتقليد الولاية: هو جعل الولاية قلائد في أعناقهم»^(١)

والقرآن الكريم عندما أرسى قواعد البحث وأصول التفكير، فإنه عمل على تحرير العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة السيئة، وعاب على المقلدين بلا وعي أو إدراك، الذين يقولون:

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣)

وبين القرآن أن التقليد يسوق الإنسان دون استيعاب إلى الظن والهوى والاسترسال مع الباطل ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم: ٢٨).

ويقوم التقليد على تعطيل حواس الإنسان، وحتى إن تم استخدامها فإن المقلد يستخدم حواسه التي أمده المولى بها للمعرفة والاستكشاف استخداماً سيئاً ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

ولعل بعض ما بيناه، يبين فساد التقليد، لأنه يجعل الإنسان أسيراً، ومكبلاً بأغلال من يقلده، وكما قال عبيد الله بن المعتمر رحمه الله «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد».^(٢)

لهذا يدعوا النورسي إلى التحرر من التقليد لكي لا يكون الإنسان مكبلاً بأغلال التقليد للآخرين.

(١) أبو محمد بن سعيد البيلاوي: التقليد المشروع منه والممنوع، ص ٩، دار الفرقان، باكوس.

(٢) أبو محمد بن سعيد البيلاوي: التقليد المشروع منه والممنوع: ص ١٦.

ولكي لا يعوق التقليد النظر الإنساني أن يرى الحقائق الإيمانية التي تمهد له سعادة الدنيا والآخرة وتوصله بخالفه، وفي المقابل لا تربطه بالماضي الخرافي.

ويرى النورسي أن التقليد يمثل سداً منيعاً أمام الحرية الشخصية وحرية الفكر وحرية الرأي بل ومناقضاً لجميع صور الحرية، ومناقضاً لإنسانية الإنسان، وعائقاً لمهمته في الاستخلاف والانطلاق والتعمير، ويكرس الجمود.

وهذا التقليد منافٍ لأسس الإسلام ومبادئه التي أرساها لانطلاق حرية الإنسان في العقيدة، والفكر، والرأي، وغيرها من الحريات.

ويصرح النورسي أن القرآن يمقت التقليد، ويحض ويشجع على التفكير والتدبر والملاحظة، فيقول: «إن القرآن الكريم يستشهد العقل ويحثه على التدبر والملاحظة بقوله تعالى: (أفلا يتفكرون.. أفلا يتدبرون.. أفلا يعقلون).

فيمنح لأهل العلم وأرباب الفكر والعقل بهذا مقاماً رفيعاً باسم الدين، ويوليهم أهمية خاصة، فلا يعزل العقل، ولا يحجر على عقول أهل الفكر ويكتم أفواههم، ولا يطلب التقليد الأعمى كما هو في المذهب الكاثوليكي»^(١)

وذلك لأن الإسلام ليس «كسائر الأديان المبنية على التقليد والتعصب»^(٢) ويبين النورسي «أن الأقوام المتيقظة في آسيا قد تمسكوا بالقومية، وخذوا حذو أوروبا في كل النواحي، حتى ضحوا بكثير من مقدساتهم في سبيل ذلك التقليد.

والحال إن كل قوم يلائمه لباس على قده وقامته، وحتى لو كان نوع القماش واحداً فإنه، يلزم الاختلاف في الطراز، إذ لا يمكن إلباس المرأة ملابس الشرطي، ولا يمكن إلباس العالم الديني ملابس الخليعات. فالتقليد الأعمى يؤدي في كثير من الأحيان إلى حالة من الهزء والسخرية»^(٣)

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٥٦٢.

(٢) النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص ١٠٥.

(٣) النورسي: المكتوبات، ص ٤١٧.

«وليس له إلا التقليد الذي يرميه في أحضان الاضطراب والارتباك»^(١) فتسلب بذلك حريته، ويظل مكبلاً وأسيراً بتقليد غيره، ويحوطه الخوف والاضطراب، وتصبح «الأفكار مقيدة بالتقليد»^(٢).

ويبين النورسي «إن هذا العصر العجيب، الذي أثقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية بما كثر عليه من متطلبات الحياة، وضيق عليه مواردها، وحول حاجاته غير الضرورية إلى ضرورة، بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضاً»^(٣).

«فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان، مفتقراً إلى عشرين حاجة بدلاً من أربع منها ضرورية»^(٤) فقط.

ويبين النورسي كذلك أن التقليد يسلب من الإنسان حرية الاختيار، وذلك رداً لمن قال له: «نحن الآن مضطرون» أي أننا مضطرون في تقليد بعض الأصول الأوروبية، وموجبات المدنية حسب القاعدة المعروفة «إن الضرورات تبيح المحظورات».

قلت لهم: إنكم منخدعون تماماً، لأن الضرورة النابعة من سوء الاختيار لا تبيح المحظورات»^(٥)

ويتواصل سعيد النورسي «محذراً من التعصب المقيت والتقليد المشين»^(٦) وخاصة للذين يحاولون مسخ الشعائر الإسلامية بتقليدهم للغرب هذا من ناحية، ومن يعملون للوقعة والفرقة بين المسلمين وتناحرهم من ناحية أخرى.

ويكشف النورسي عن ذلك ويبين «أن مستند الذين يحاولون تغيير الشعائر

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٨٨.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤١.

(٣) النورسي: ملاحق، ص ١٤٥.

(٤) النورسي: ملاحق، ص ٣٧٨.

(٥) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٧٠.

(٦) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٧٨.

الإسلامية وتبديلها وحجتهم نابعة من تقليد الأجانب تقليداً أعمى كما هو في كل الأمور الفاسدة»^(١)

ويؤكد النورسي: أن من أسباب تأخر المسلمين وتدنيتهم وسوء أحوالهم ناتج من تقليد مساوئ المدينة الأوروبية تقليداً ببغائياً - بسوء حظنا أو سوء اختيارنا - مما ولّد تركنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بمشكلات ومصاعب»^(٢)

ويُرجع النورسي الموانع التي سيطرت على الأجانب، وحالت بينهم وبين تفهمهم للشريعة الإسلامية، وتفهم تعاليمها السمحة المعتدلة إلى «التقليد، والجهل، وتعصبهم، وسيطرة القسس عليهم»^(٣) وهذه الموانع لا يجب أن تجد أرضاً بيننا.

ومن خلال ما سبق يتضح أن النورسي يرفض التقليد الأعمى الذي يسوق الإنسان إلى التحرر والسفاهة، وخاصة تقليد مساوئ الغرب شبراً بشبر، ثم سعي بعض المسلمين لتطبيقه.

وان كان في المقابل لا يرفض اقتباس ما يتوافق مع شريعة الإسلام بمعيار «خذ ما صفا ودع ما كدر».

ونلاحظ أن النورسي يدعوا للتحرر من التقليد، لما فيه من تذويب للشخصية المسلمة، وهذا ما يرفضه النورسي، لأن الحرية في مجمل صورها، تتجلى وتبرز عندما يكون للفرد دوره في قيادة الفكر الإنساني، بعيداً عن الوصاية الخارجية والداخلية، سواء كانت هذه الوصاية نابعة من مصدر سياسي أو ديني.

كما أن الحرية تستدعي وتستلزم الانطلاق من أسر التقليد، وذلك لاستقلالية الشخصية، وتفعيل دور العقل، وتحقيق مبدأ حرية الذات وحرية الاختيار.

والنورسي يرفض التقليد لأنه «يحجم الطاقات، وهو الأمر الذي أضر

(١) النورسي: مکتوبات، ص ٥٥٨.

(٢) النورسي: صیقل الإسلام، ص ٤٧١.

(٣) النورسي: صیقل الإسلام، ص ٢٣.

بالإسلام والمسلمين، ولم يسعفهم بالتطور، لأنهم انغلقوا تحت طائلة التسليم والتقليد.»^(١)

التحرر من الأنانية والعجب والغرور

الحرية تركز على أنها إحدى صور الحق، الذي ينبو فيه المسلم عن جميع المسلمين، ويمثلهم في تصرفاتهم العامة (كما في دعوى الحسبة)^(٢) وتلك الحرية لا تتحقق مع تواجد مرض الأنانية والعجب والغرور، إلا إذا تبرأ وبرىء من يريد الحرية الحققة من هذه الأمراض.

«ولذلك فإن الآية الكريمة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٣) تبين استعداد الإنسان إلى الظلم الرهيب المغرور في فطرته.

فالذي تمكن فيه الحرص والأنانية، يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء يقف دون تحقيق أهوائه، حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع.

ولا شك أن الأنانية من الأمراض الخطيرة التي يمكن أن تصيب النفس البشرية بسهولة (وذلك حين تتعد عن منحج الله) وهي تتعارض كلية مع الشريعة الإسلامية، التي تهدف في مجموعها إلى تفاعل الإنسان مع المجتمع تفاعلاً تاماً، حتى يصير ذلك المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»^(٣).

ولكن كيف تتعاضد الأنانية والعجب والغرور في نفس الإنسان؟

ويجيب النورسي على هذا التساؤل فيقول:- «إن الغفلة عن المالك الحقيقي «جل جلاله» سبب لفرعونية النفس، فتتوهم نفسها مالكة لها، فيتشكل في وهماها دائرة لحاكميتها، ثم تقيس الناس، بل الأسباب على نفسها، فتقسم مال الله عليها، فتعارض الأحكام الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها.

(١) أ. د. عشراقي سليمان؛ النورسي في رحاب القرآن، ص ١٢٢.

(٢) د. منيب محمد ربيع؛ ضمانات الحرية في النظام الإسلامي وتطبيقها، ص ٢٤، سلسلة البحوث الإسلامية ١٩٨٣ م

(٣) خديجة النبروي؛ مشكلات نفسية للإنسان، ص ٨٩، ٩٠.

مع أن الحكمة في إعطاء أناية لها: أن تصير واحداً قياسياً لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفتها في غير ما وضعت له.

فالنفس ليست مالكة لنفسها ولا لجسمها الذي هو ما كينة دقيقة عجيبة إلهية»^(١) ويخاطب الإمام النورسي نفسه قائلاً: اعلم يا «أنا» أن ما التفت على رأسك من سلاسل الإيجاد العلمية، واتصلت بأنانيتك من سطور الصنائع الشعورية، وما أخذت بأيدي حوائج ذاتك، ومن وسائل المدد والإجابة، تدل على أن موجدك وصانعك ومغيثك يسمع أنينات فاقاتك فيتحنن لها، ونداء حاجاتك وآمالك فيتعهدا بفضلها سبحانه.

فيا أيتها الحجيرة الكبرى المعبرة بـ «أنا» المركبة من تلك الحجيرات، فقولي: يا إلهي يا ربي... لك الملك ولك الحمد، أنا مسافر في وديعتك وأمانتك ومملوكك الذي هو هذا الجسد بمشتملاته»^(٢).

وأعلمي يا نفس: أن ما أنعم الله عليك من وجودك وتوابعه، ما هو إلا إباحة وليس بتمليك، فلك أن تتصرف فيما أعطاك، كما يرضى من أعطى، لا كما ترضى أنت»^(٣).
وعليك أن تردي دائماً ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)

أي أن المال له، وأنا في أمره، وإليه أذهب، ما على لو لم أقصر في حفظه.. فهذا بلا شك أدعى إلى توجيه «أنا» في مسارها الصحيح.

ويقول النورسي - رحمه الله - : إن هذه ثلاثون سنة لي، مجادلة مع طاغوتين، وهما: «أنا» في الإنسان، و«الطبيعة» في العالم.

أما «أنا» فرأيته مرآة ظلياً حرفياً، لكن نظر الإنسان إليه نظراً اسماً قصدياً بالأصالة فتفزع عليه وتمرد.

(١) النورسي: المثنوي العربي النوري، ص ١٢٨

(٢) النورسي: المثنوي العربي النوري، ص ١٣٠

(٣) النورسي المثنوي العربي النوري، ص ٢٠٨.

أما «الطبيعة» فرأيتها صنعة إلهية وصبغة رحمانية، لكن نظر البشر إليها بنظر الغفلة، فتحوّلت لهم «طبيعة» فتألّفت عند ماديهم، فأنشأت كفران النعم المنجر إلى الكفر»^(١).

ويرى الإمام النورسي أن الإنسان في الحقيقة غيب في هيكل شهودي..، فواحد من غيوب الإنسان هو «أنا» المودع في عمق أعماقه، ففيه مفتاح العالم وفيه العقل، الذي يعقل به الوجود والحس، الذي يقتحم به عالم الممكنات.

ويبين النورسي في الكلمة الثلاثون من رسالة «أنا»^(٢): - أن الإنسان إذا أدار مفتاح «أنا» في أقفال السماوات والأرض، انفتحت له وكشفت عن أسرارها، وأشارت إلى موجدتها، وعينت له موقعه من العالم، وحجمه الذري، إزاء كبرياء الله وعظمته وجبروته.

ولكن «أنا» كثيراً ما ينسى حجمه، ويغفل عن موقعه، فيتيه عجباً، ويختال افتخاراً على السماوات والأرض والجبال، بتحملة سر أمانة التكليف، وبمنحه الإرادة والقدرة على الاختيار والترجيح.

فالنورسي يحذر الإنسان من السقوط في مهاوي «أنا» (الذميمة) ويحثه على الارتقاء إلى مرتبة «الإنسان الصعب» الذي يستعصى على الابتلاع والسقوط بين شدقيه عندما يملأه الغرور ويتوهم أن ما يملكه من صفات، إنما هي صفات ذاتية الوجود فيه، وليست اعتبارية ومنحة ربانية، فينقلب بتكبره وجحوده إلى طاغوت مخيف، يستعبد صاحبه، ويستعبد الآخرين من حوله، فيتضخم، ويستغلظ، ويتورم، ويصرخ بلسان فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النّازعات: ٢٤).

وبلسان النمرود: ﴿أَنَا أَحْيَى وَأَمِيتٌ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ولهذا السبب، كثيراً ما يتحرج الأتقياء الصالحون، والأولياء المقربون،

(١) النورسي: المثنوي العربي النوري، ص ٢٢١

(٢) النورسي: الكلمات، ص ٦٣٥.

من الإشارة إلى أنفسهم بكلمة «أنا» تورعاً من أن يتحرك في أنفسهم - بتكرار هذه الكلمة - عرق أناهم» في العجب والكبر الماحق لكل حسنات التقوى والصلاح.^(١)

«ويستنكر الإمام النورسي بشدة تعاضم أنانية الإنسان وعجبه وغروره بنفسه، لأنه يوقن يقيناً لا حدود له بقول الله تعالى ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ صَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)

وبعض من لبسوا ثوب الغرور والأنا، وأنهم أصحاب لسان فصيح، ومنطق جذاب في إثارة القضايا الخلافية على شاشات القنوات الفضائية، نسوا قدرة الله في تحقيق قوله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٩)

ومن وحي هذه الآيات الكريمة يخاطب النورسي نفسه، ويخاطب كل إنسان يبحث عن الحقيقة فيقول: يا «أنا» المتمرد المغرور المتكبر: انظر إلى درجة ضعفك وعجزك وفقرك ومسكنتك... إذ يبارزك ويصارعك «الحوين» الذي لا يرى إلا بتكبيره مرات ودرجات.^(٢)

ويبين النورسي أخطار الأنانية والغرور، وأنها من أشد الأخطار التي يمكن أن تواجه المجتمع الإسلامي، لأنها تؤدي إلى تفكك المجتمع، وسيادة قوى الضلال فيه، وكذلك تعوق من حرية الآخرين.

ويقول الإمام النورسي في ذلك: «إن المواليين للضلالة يرومون سحب إخواني عني، مستفيدين من الأنانية والغرور الكامن في الإنسان..»

وفي الحقيقة إن أخطر وأضعف عرق ينبض في الإنسان، إنما هو عرق الغرور، إذ يمكنهم بالتربيت على ذلك العرق وتلطيئه، أن يدفعوه إلى كثير من المفاسد.

إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا «أنا» فهو يجوب بهم في وديان الضلالة، فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك «أنا».

وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم «أنا» فعليهم تركه لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم أنهم مثلهم يعبدون النفس.

(١) أديب إبراهيم الدباغ: مطارحات في المعرفة الإبانية عند النورسي، ص ١١، ١٢.

(٢) النورسي: المثوي العربي النوري، ص ١٧٨.

لذا فإن عدم ترك «أنا» بنخس للحق تجاه خدمة الحق.

زد على ذلك أن الخدمة القرآنية التي اجتمعنا عليها ترفض «أنا» وتطلب «نحن». فلا تقولوا: «أنا». بل قولوا: «نحن».

التحرر من التعصب

إن الإسلام يمقت التعصب والتشدد لأنه أسرُّ للإنسان، وعائق لحرية الفكر والرأي والحوار، كما أنه يقضي على كل جديد قبل أن يولد.

والتعصب مصدره الجهل، وهو لا يولد إلا «العنصرية والأناية»^(١) والعنف والعناد والمغالاة والهوس والسفسطة.

ويبين النورسي ميزة الإسلام الحق التي تميزه عن سائر الأديان، بأنه دين العقل والحكمة والعلم، وليس دين التعصب.

فيقول أثناء شرحه لقوله تعالى ﴿ولكن لا يعلمون﴾، وأمثالها من فواصل الآيات من «لا يعقلون» و «لا يتفكرون» و «لا يتذكرون» وغيرها، تشير إلى أن الديانة الإسلامية مؤسسة على العقل والحكمة والعلم، فمن شأنها أن يقبلها كل عقل سليم، لا كسائر الأديان المبنية على التقليد والتعصب»^(٢).

لهذا نجد أن النورسي «سار على المنهج الإسلامي الذي يرفض التعصب» فسلك مسلك الاعتدال، مسترشداً بالمنهج الإسلامي السالم من التعصب الذميمة، الذي يعيق كل تجديد وجديد، ويتنافى مع مفهوم الحرية والشورى في ضوء الإسلام. لهذا سعى النورسي محذراً من التعصب المقيت»^(٣) ورافعاً لشعار حرية الرأي والعقيدة بقوله «ليتكلم ضميرك الحر المطلق من قيد التعصب»^(٤).

ونلاحظ من قول النورسي بأن الإسلام مؤسس على العقل والحكمة والعلم.

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٤٦.

(٢) النورسي: إشارات الإعجاز، ص ١٠٥.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٤) النورسي: إشارات الإعجاز، ص ٢٤٤.

وقوله النهج الإسلامي السالم من التعصب الذميم: أنه في القول الأول يريد بيان أن التعصب منبعه ومصدره الجهل، وهذا ما عناه وذكره بقوله: «التعصب الناشئ عن الجهل»^(١)

وقوله: «الجهل المطبق الذي تربع على عرشه التعصب الذميم»^(٢) ونتج عن هذا تأخر الأمة معرفياً، وبزوال هذا التعصب الناشئ عن الجهل «سيعتلي الإسلام عرش الحقائق والمعارف»^(٣).

ويؤكد النورسي أن سبب تأخر المسلمين وتدنيهم هو التعصب، فيقول:
«إن سبب تأخرنا وتدنينا وسوء أحوالنا ناتج من أشياء منها:

التعصب المقيت في غير محله، سواء لدى عالم جاهل أو جاهل عالم»^(٤)
ونلاحظ في قول النورسي أنه يريد أن يؤكد بأن التعصب عائق ومقيد للحرية العلمية والفكرية والاقتصادية، بل وعائق لجميع صور تقدم الأمة الإسلامية.

أما قوله: (الثاني) بالنهج الإسلامي السالم من التعصب المقيت، فإنه يريد أن يلمح إلى بعض المنتسبين إلى الفكر الإسلامي من المذاهب والمسالك، ولكنهم يشوهون صورة منهج الإسلام بتعصبهم المذموم الذي يرفضه الشرع، ولهذا يقول:

« إن من سيئات استبداد الأحاسيس: تأسيس المسالك والمذاهب غالباً على التعصب... وتضليل الآخرين، أو على السفسطة..، بينما هذه الثلاثة مذمومة في نظر الشرع، منافية للأخوة الإسلامية، مفرقة للانتساب الجنسي (الإنساني)»^(٥)

ولعل ما تعانيه الأمة حالياً، ناتج من التعصب المذهبي، سواء بين الطوائف، أو منتسبي المذاهب بعضها مع بعض، مما كان سبباً في إعاقة تقدم الأمة ورفيها،

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٣٠.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٢٣.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٢٣.

(٤) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٧١.

(٥) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥١.

ونشب من جراء ذلك تطرف فكري وتشدد وتعصب مذهبي، وانطلقت الألسنة بلهجة تكفيرية، لا تتناسب ولا تتفق مع سماحة الدين الإسلامي، ولا تتوافق مع حرية الإنسان وكرامته مع بني جنسه، كما أنها لا تتلاقى مع ما تميزت به الأمة من الخيرية، وأنها أمة وسطا.

ويسجل التاريخ الإسلامي كثيراً من صور التعصب الفكري خاصة بين الفرق الكلامية، ثم استقر هذا التعصب أخيراً بين السنة والشيعة، نتج عنه اتهامات تكفيرية وإراقة دماء، بينما العالم مشغول بالتحديث والتجديد والابتكار والاختراع والتقدم.

لهذا يؤكد النورسي أن العلاج يكمن في «إنقاذ الإسلام من الأساطير، والإسرائيليات، والتعصب الممقوت، تلك التي صدأت سيف الإسلام المهند»^(١).

أما الاستمرار في التعصب المقيد لجميع الحريات، ومقيد لجمع شمل الأمة الإسلامية، فإنه يؤدي إلى الضلال، إذ أن: «العناد يلزم أحياناً المغالين في التعصب بالضلال والباطل، حتى إذا ساعد الشيطان أحدهم قال: إنه ملك ويطرح عليه.

بينما إذا رأى ملكاً في صف من يخالفه في الرأي، قال إنه شيطان قد بدل ملبسه، فيبدأ بمعاداته ويلعنه»^(٢).

ويقرر النورسي: «أن القرآن الكريم قد سل سيفه الألماسي البارق، وفتح القلوب والعقول واستولت فضائل الإسلام على العناد، فمزقت أنوار القرآن حجب التعصب الذميم»^(٣).

وبعد أن يرفض النورسي جميع صور التعصب، فإنه يقدم العلاج الذي يحرر الإنسان من هذا الخلق الذميم، الذي لا يتوافق مع الحرية الإنسانية، أو الشورى الشرعية، ولا يتوافق مع إنسانية الإنسان، ولا يتوافق مع سماحة الإسلام.

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٣٠.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٦٣.

(٣) النورسي: الكلمات، ص ٤١.

وأبرز هذه العلاجات هو إفساح المجال للحرية المعرفية، وذلك بامتزاج العلوم الحديثة مع العلوم الدينية للقضاء على التعصب، فيقول: «إن ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فامتزاجهما تتجلى الحقيقة، فتتربى همة الطالب وتعلوا بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى، والحيل والشبهات في الثانية»^(١)

والأهم أن يتخلى العلماء والساسة عن التعصب، وأن يتخلوا عن شحن وتهيج العوام بالشعارات التي ترسخ الكراهية ضد من يخالفونهم الرأي أو المذهب، وأن نتذكر دائماً قول رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»

التحرر من العنف

إن ما تعانيه البشرية، وخاصة في زماننا هذا من تنامي ظاهرة مرضية غريبة، تتسارع وتيرتها إلى مستويات خطيرة، أضحت تهدد أمن الأبرياء في مشارق الأرض ومغاربها، وهي ظاهرة العنف والإرهاب، وما يقترن بها من أعمال همجية ووحشية فظيعة، وما يحصل بسببها في كثير من بلدان العالم، من ترويع وتشريد وتخريب واختطاف واغتيالات وتفجيرات وإراقة دماء وهدم مباني وتلف أموال، بلا حساب أو رقيب داخلي، ولا وازع إيماني، فمتى حصلت هذه الآفات سلبت حرية الأبرياء، وأزالت راحة البال منهم وحرمتهم من حياة حرة كريمة.

والعنف لا يصدر في الغالب إلا من شخصية فكرية متعصبة وغير متزنة، ومن نفس مشوشة ومنفعلة.

ويؤكد النورسي أن منبع العنف: هو «التعصب العنصري والأناية»^(٢)

وبما أن النورسي ينظر إلى الحرية من خلال دائرة الشرع، فإننا نجد أن الشرع

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٢٨.

(٢) النورسي: الشعاعات، ص ٣٤٦.

الحنيف حث على ضرورة الحرية الإنسانية، وتحقيق الأمن، ونهى عن كل ما يعيق حرية الحركة والتنقل وحرية الصناعة والاقتصاد والعمل، أو يسيء إلى الحرث والنسل، من أعمال التخريب والفساد، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠).

وقد قص الله تعالى في القرآن الكريم ما عاقب به الأمم السابقة لما طغت واستبدت واستعدت الضعفاء من عباد الله، وانتهجت مبدأ العنف والجحود، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَنَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ٦-١٤)

وليس هذا فحسب، بل يؤكد القرآن على تحقيق الأمن، وحفظ وصيانة الأنفس، وحمايتها من التلف، وحماية حرياتهم من أي عنف.

ولهذا فإن الله تعالى نهى نهياً شديداً عن قتل النفس البرئية بغير الحق، وأن حياة الفرد مرتبطة أهميتها بحياة الجماعة، فقال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (المائدة: ٣٢).

فهذه النصوص وغيرها، تقرر رفض الشارع الحكيم للعنف، وتفيد بمنطوقها ومفهومها التشديد والمبالغة في النهي عن قتل النفس المسلمة، وما قيل عن المسلمين يقال أيضاً عن غيرهم.

فقد دعا الشرع الحنيف إلى تأمين حريات غير المسلمين، ما لم يكونوا من المحاربين لأهل الإسلام، أو من معاونين على إخراجهم من ديارهم، كما حث على احترامهم، والإحسان إليهم، والبر بهم، والعدل في معاملاتهم،

وعدم التعرض لهم بالأذى، يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، أن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرى رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(١).

وفي ضوء التوجيهات الشرعية السابقة، سعى النورسي إلى إعلان قراره برفضه للعنف، أو التحريض عليه، وتأييده للحرية الشرعية، وسعى إلى بيان أن ربانية التشريع الإسلامي السمح، وواقعيتها قضت أن «تضع أعظم دستور للعدالة المحضة التي تقر: أنه لا يهدر دم بريء، ولا تزهد روحه حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء»^(٢).

وهذه الخصيصة في نظر النورسي تمثل جوهر الخلاف بين سياسة التحرر للمدينة الحاضرة، وبين الحرية الشرعية المنضبطة وعدالة الإسلام.

وفي ظل هذه القناعات الإيمانية الراسخة، والمبررات المنطقية السليمة الراضية للعنف، عمل النورسي على شحذ همم الأتباع، للإسهام في تحقيق الأمن والأمان، وذلك من خلال رسائل النور التي تسعى لتمكين الدين وإظهار سماحته، وبطلان إدعاء الغرب بأن الإسلام دين العنف، وانه انتشر بالسيف، وأنه عائق للحرية.

هذا بالإضافة إلى سعي النورسي إلى خدمة الوطن وإسعاده، وبناء المواطن الصالح في نفسه والساعي إلى إصلاح غيره.

وهذا القناعات هي التي وجهت اهتمام النورسي، وجعلته ينذر حياته لنشر الأمن. وقد ذكر النورسي في أكثر من مناسبة، أن قناعاته الشخصية قد أملت عليه

(١) حديث شريف؛ أخرجه البخاري في صحيحه، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم (٢٩٩٥) وأخرجه: الترمذي في سننه، باب ما جاء فيما يقتل نفساً (١٤٠٣).

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٣٣٧.

«بذل كل حياته في سبيل إسعاد هذه الأمة، ونشر الأمن والسعادة في ربوع البلاد»^(١) ويشهد لهذا الاختيار تصريحاته المتكررة أمام جهات أمنية وطنية.

والنورسي يؤكد أن الدخول إلى دائرة العنف في القول أو العمل أمر لا يليق بالأحرار، ولا يفق ومبادئ الإسلام وتعاليمه.

وأكد على هذا من خلال رفضه للمشاركة في ثورة الأقاليم التي يتزعمها الشيخ «سعيد بيران»^(٢) لما سيستج من جراء ذلك عنف وإراقة دماء.

بل واستطاع النورسي إقناع «حسين باشا»^(٣) وهو شيخ عشيرة «حيدران» بعدم الإنضمام لدوائر العنف، لكي لا تراق الدماء وتهدر الحريات.

ويفرق النورسي بين العنف الدائر داخل المجتمع المسلم، والعنف المتبادل بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات فيقول: «الفرق بين الجهاد الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر»^(٤).

وقبل الحديث عن هذين الصنفين (الداخلي والخارجي) للعنف، فإنه يجب إيضاح شيء هام ألا وهو مفهوم الجهاد عند النورسي.

إن الذي يؤكد رفضه للعنف ودعوته للتحرر منه هو مفهوم الجهاد، حيث إنه يغير المفهوم الاصطلاحي المعروف للجهاد بأنه الدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال بالقتال واستخدام السلاح، إلى مفهوم آخر يعبر عنه «بالجهاد المعنوي»^(٥) تارة، و «الجهاد المادي»^(٦) تارة أخرى «وجهاد النفس وهو ما يعبر عنه بالجهاد الأكبر»^(٧) وتارة يعبر عنه بـ «الجهاد الفكري»^(٨).

(١) النورسي: الشعاعات، ص ٥٤٤.

(٢) د. سمير رجب: الفكر الأدبي والديني عند النورسي، ص ٦١.

(٣) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٤) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٧٠.

(٥) النورسي: اللمعات، ص ٢٣٦، وانظر الملاحق، ص ١٦٩-١٧٠.

(٦) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٥٢٨-٥٢٩.

(٧) النورسي: صبقل الإسلام، ص ٥٣١، ٥٣٤.

(٨) النورسي: الشعاعات، ص ٣٥٧.

ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن النورسي يُغفل تاريخاً حافلاً للجهد بمعناه الاصطلاحي.

بل أنه يؤكد على ضرورة «سوق الجيش إلى الجهد»^(١) عند الضرورة تحت إمرة الحاكم، وأن أفضل شرف يحصل عليه الإنسان هو «أن يرزقك الله الشهادة أو شرف الجهد»^(٢).

ومع ذلك فإنه يحذر من الزمن الذي تنقلب فيه المفاهيم، فيقول:

« سيكون زمان يخفى الضد ضده، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمان زهيد، ويطلق اسم البغي على الجهد في سبيل الله، ويسمى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية»^(٣).

ويقرر النورسي أن أبرز العوامل التي ينتج عنها العنف في المجتمع المسلم هو الخلاف بين المسلمين، سواء كان هذا الخلاف فكرياً أم مذهبياً أم سياسياً أم غير ذلك.

وهذا ما أكد عليه النورسي من خلال معارضته للحركة التي أثارت الأكراد علي الدولة بقوله: «نحن الأكراد مسلمون، والأترك إخواننا، فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه، فهذا لا يجوز شرعاً».

إن السيف لا يشهر إلا بوجه الأعداء الخارجيين.

والنورسي يعلل ذلك بأن الاتفاق لا يتحقق بالتخويف والإكراه، بل بالرجوع إلى شريعة الرسول ﷺ، والنظر إلى المقاصد السامية التي ندين الله بها جميعاً^(٤)

ويرجع النورسي أسباب العنف الدائر بين المسلمين إلى أمور أبرزها:

(١) النورسي: المکتوبات، ص ٥٢.

(٢) النورسي: الكلمات، ص ٨٩٠.

(٣) النورسي: الكلمات، ص ٨٤٩.

(٤) النورسي: المکتوبات، ص ٣٤١. بتصرف.

«ضعف الإيمان، والجهل والأنانية، وعدم معرفة الروابط الإيمانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض»^(١).

ويتحدث النورسي عن العنف المعنوي الدائر بين المسالك والمذاهب والطوائف، ويرى أن من أولى الشرور التي يؤدي إليها مسلك من المسالك، هو ظنه امتلاك ناصية الحقيقة، فيسعى مدعيها إلى فرضها بالإكراه، الذي يمثل مظهراً من مظاهر العنف المقيت، يتبعها الانزلاق خلف هوى التكفير.

ولعلنا نجد في شخص النورسي مثلاً يحتذى به في التواضع والتسامح، وهذا ما نجده على لسانه حيث نراه يقول:

« نعم، إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً. إذ الإكراه، والقسر، والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة، هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع»^(٢).

ويرى النورسي أن «ما يسببه التحايز، والتطرف، والعناد، والحسد، من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين، وما يوغر صدورهم من حقد، وغل، وعداء مرفوض أصلاً. ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى. فضلاً عن أن العداء ظلم شنيع، يفسد حياة الإنسان: الشخصية، والاجتماعية، والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة»^(٣).

ويعرض النورسي في رسائله الكثير من وقائع العنف المعنوي التكفير والتبديع والتضليل و «الاستبداد الفكري بين المسالك» و «الطرق والمذاهب والطوائف» ويقدم لها العلاج.

ولعل أبرز ما تعرض له بالتفصيل، هو الصراع والخلاف التاريخي الكامن

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٩٢.

(٢) النورسي: اللغات، ص ٢٥٩.

(٣) النورسي: مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، ترجمة إحسان قاسم، ص ٢٠٣، سوزلر، القاهرة،

بين السنة والشيعة الذي لا يزال يثير الإحن والأحقاد، بل لا يزال إلى يوم الناس هذا يسيل الدماء، ويذكر في آخره أنه: «لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء...»^(١). ثم يخلص النورسي إلى توجيه نداء للطرفين بضرورة رفع هذا النزاع، وسد الطريق على من يستغله لضرب أحدهما بالآخر، ويعيق حرية الفكر والحياة بينهم، فيقول:

«فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة.

ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلماً لكم، أرفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه، وإن لم تزيلوا هذا النزاع، فإن الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً، تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائها تحطم تلك الأداة أيضاً، فيلزمكم نبذ المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لأنكم أهل التوحيد، بينكم مئات الروابط المقدسة الداعية إلى الأخوة والاتحاد»^(٢).

ويلاحظ من كلام النورسي أنه ينسب إلى كل فريق أهم ما يميزه عن الآخر، أو ما يحب أن يذكر به، وذلك أدعى لقبول نصحه وإرشاده لهم.

كما أن النورسي يلمح دون أن يصرح أن للنظم الغربية يد في إذكاء وتنمية هذه الظاهرة عند المسلمين بطرق مباشرة، لاستغلالها كوسيلة للضغط على الدول الإسلامية، ومن ثم السيطرة على خيراتها، كما فعلوا في بعض البلاد العربية والآسيوية المسلمة.

لهذا كان خطابه للسنة والشيعة لإزالة كل ما يعوق حرية الفكر والحوار، وترسيخ حرية الأمن والتنقل والنفوس، مع المحاولة لتأسيس علاقة تمنع الصدام، وتعترض طريق ما يسمى «الإرهاب» الذي يدخل باسمه الغرب بلاد الإسلام، وبحجج واهية، وذلك لأن الجميع في سفينة واحدة.

(١) النورسي: اللغات، ص ٣٧.

(٢) النورسي: اللغات، ص ٣٨.

ويدعوهم النورسي إلي «الاختلاف الايجابي البناء المثبت، ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظريته «بحرية» دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم (أي عدم إعاقة حرية الطرف الآخر في عرض أفكاره) بل يكون سعيه لإكمال النقص، ورأب الصدع، والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً.

أما الاختلاف السلبي: فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلاً..، حيث إن المتنازعين والمختلفين يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء»^(١).

ويهتف النورسي بأعلى صوته «أيها العالم الإسلامي إن حياتك في الاتحاد وإن موتك في الفرقة والاختلاف، لأن الإسلام دين السلام والأمان، يرفض النزاع والخصام في الداخل»^(٢).

أما في حالة العناد والعداء الناشئ من العنف، فإن النورسي يقدم علاجاً يستطيع الإنسان به أن يحرر نفسه من هذا الداء، فيقول: «إن كنت تريد أن تعادي أحداً، فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها، واستئصال شأفتها.

وحاول أن تعادي من هو أعدى أعدائك وأشد ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها..

واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها، جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداة قبل أي شيء آخر»^(٣).

فالنورسي يتحدث عن عداة النفس الأمانة بالسوء، وهو ما يشير إليه بالجهاد الأكبر أي جهاد النفس.

ويتحدث النورسي بعد ذلك عن العنف بين المسلمين وغيرهم من غير المسلمين،

(١) النورسي: مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، ص ٢٠٩.

(٢) النورسي: الكلمات، ص ٨٦٣ باختصار.

(٣) النورسي: مرشد أهل القرآن، ص ٢٠٨.

ويقرر أن الإسلام والقرآن بريئان من سياسة العنف، التي يتخذها بعض المتسترين من المسلمين جراء مصلحة شخصية، أو أنانية مقبولة، أو جهل وتعصب ذميم.

وهذه الأخطاء التي يرتكبها البعض هي التي جعلت «أوروبا تظن أن الشريعة هي التي تمد الاستبداد بالقوة وتعينه، حاش وكلا.. إن الجهل والتعصب المتفشين فينا، قد ساعداً أوروبا لتحمل ظناً خاطئاً من أن الشريعة تعين الاستبداد»^(١) وتعوق الحرية، بل وتفتقدها.

ويرى النورسي أن علاج الخلاف الديني، أو الفكري، أو العلمي، والسياسي، مع المسلمين، وغير المسلمين، لا يكون بالعنف، إلا في حالة الدفاع ضد العدوان الخارجي.

وقد اتخذ النورسي في جهاده ضد أعداء الإسلام منهجاً فريداً متميزاً، ليرز حقيقة الإسلام وسمو تعاليمه، وإقناعهم بأنه دين المحبة والسلام والأمان والحرية والعدالة والمساواة، وليس دين العنف والإرهاب والاستبداد والظلم، فيقول: «أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً»^(٢).

ويقول أيضاً: «إن الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تتسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق»^(٣).

فإذا كان هذا هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع غير المسلمين، ألا يليق أن يكون هو الأسلوب الأصوب للتعامل مع المسلمين بعضهم البعض.

ومن خلال ما سبق يتضح أن النورسي يرفض العنف، ويدعوا إلى التحرر

(١) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٨٣.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٥٣٥.

(٣) النورسي: الملاحق، ص ٢٠٣.

من العنف، لأنه عائق لحرية الآخرين، ولا يليق بكرامة الإسلام وعزته، ولا يتفق وإنسانية الإنسان.

ويتجلى لنا من خلال ما سبق أن النورسي في مصاف المصلحين الذين لم يتخذوا أتباعهم وتلاميذهم للزج بهم لتصفية حساباتهم الشخصية مع غيرهم من المعارضين لأفكارهم وأرائهم وتوجهاتهم، وخاصة الساسة.

بل إنه يؤكد أنه لم يستخدم العنف كوسيلة للثأر حتى ممن ضايقوه، فيقول: «إن أصدقائي وأحبابي الذين يلاحظون راحتي وأحوالي، يستغربون من إثاري الصمت وتجملي بالصبر تجاه كل مصيبة تنزل بي فيتساءلون: كيف تتحمل الضيق»^(١).

فيجيب: «إن العنت الذي يذيقني إياه أهل الدنيا، والأذى والتضييق علىّ منهم، إن كان تجاه نفسي القاصرة الملطخة بالعيوب، فإني أعفو عنهم، لعل نفسي تصلح من شأنها بهذا التعذيب فيكون كفارة لذنوبها، فلتن قاسيت من أذى الدنيا المضيقة، فأنا شاكر ربي، إذ قد رأيت بهجتها ومتعتها.

ولكن إن كان أهل الدنيا يذيقونني العذاب لقيامي بخدمة الإيمان والقرآن، فالدفاع عن هذا ليس من شأني وإنما أُحيله إلى العزيز الجبار.

وإن كان المراد من ذلك التضييق: إفساد توجه الناس إليّ، والحيلولة دون إقبالهم عليّ، أي للحد من الشهرة الكاذبة، التي لا أساس لها، بل هي السبب في الرياء وإفساد الإخلاص...، فعليهم إذن رحمة الله وبركاته، ولكن إن كان قصدهم من التهوين من شأني وإسقاطي في أعين الناس يخص الحقائق القرآنية التي أقوم بتبليغها، فعبثاً يحاولون»^(٢).

فالنورسي دائماً يعمل تحت مظلة «الشريعة الحقة، لا كما يطالب بها المتمردون»^(٣) الذين يبذرون العنف باسم الدين.

(١) النورسي: المکتوبات، ص ٧٩.

(٢) النورسي: المکتوبات، ص ٨٤-٨٥.

(٣) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٤٠.

بل باسم الدين كان النورسي يعمل على قلع جذور العنف «وتهدئة المشاعر المتهيجة»^(١) ومثال ذلك: «ما فعله بتهدئة الطلاب في جامع بايزيد»^(٢) و «تهدئته للجنود الثائرين في أحداث ٣١ مارت»^(٣).

وكان النورسي يعمل دائماً على أساس مبدأ: «أنظر إلى الأحسن من كل شيء»^(٤). كما أن النورسي لم يبدأ بحركته الإصلاحية من موقع عاجي، أو يلقي الأوامر لأتباعه ويقوموا بتنفيذها، بل كان ينصح نفسه أولاً، فيقول: «إني أخطب نفسي في نصائحني لأنني أرى نفسي أحوج الناس إلى النصيحة»^(٥).

هذا بالإضافة إلى أنه رأى أن التخريب بدأ في القلب، ومن أجل ذلك بدأ الإصلاح من القلب، ليعبد صاحب هذا القلب عن العداوة والحقد والكرهية والعنف.

ويتصدر النورسي قائمة زعماء الحركات الإصلاحية في العالم بأسره (العربي والغربي) لرفضه استخدام طلابه ومؤيديه والنزج بهم للثأر والعنف، وإثارة القلاقل والتخريب ضد الدولة، على الرغم من قوتهم كثرة عددهم، الذي يزيد عن «خمسمائة ألف طالب»^(٦) بل كان دائماً يقوم باستئصال أي حركة ثورية أو تخريبية.

«فعلى الرغم من كثرة طلاب رسائل النور، ورغم ما في أيديهم إلى هذا الحد من القوة، لم يمسوا الأمن والنظام بشيء»^(٧).

والدليل: هو «عدم تورطهم طوال عشرين سنة بأية حادثة مخلة بالأمن الداخلي في أي مكان، وعدم تسجيل أي شيء ضدهم، لا من قبل الحكومة، ولا من قبل المحاكم»^(٨).

(١) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٤٤.

(٢) النورسي: صيقل الإسلام، ص ٤٤٥.

(٣) النورسي: المكتوبات، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(٤) النورسي: الكلمات، ص ٣٣.

(٥) النورسي: الكلمات، ص ٥.

(٦) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٤٧.

(٧) النورسي: الملاحق، ص ١٦٥.

(٨) النورسي: الشعاعات، ص ٣٣١، ٤٢٧.

ومرجع ذلك ليس من فراغ، بل بسبب ما غرسه النورسي في نفوسهم من حب الخير للإنسانية جمعاء، وتحديد الوظيفة الأساسية لهم، من خلال إرشاداته: «بأن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البناء، وليس السعي للعمل السلبي الهدام»^(١) «وفي الداخل ينبغي الوقوف أمام التخريبات المعنوية بشكل إيجابي بناء، وبالإخلاص التام»^(٢)

بل ويسجل التاريخ، أن النورسي رفض الانضمام أو الدخول في أي حلف يصدر عنه العنف، أو تراق من خلاله قطرة دم، وعلى سبيل المثال: عدم الانضمام في أحداث الشعب والعنف التي قادها الشيخ سعيد بيران^(٣)، أو أحداث «مَنَمَن»^(٤) «ورفضه لأحداث بتليس، ودخوله لإنهاء حالة العصيان والتمرد»^(٥).

ورفضه الدخول في حلف تراق فيه الماء مع «حسين باشا» شيخ عشيرة حيدران، بل عمل على إقناعه بعدم إراقة الدماء، وقال له: تقول عليك عشيرتك جَبْنٌ وخاف، ولا يقولوا أراق دماء»^(٦).

فالنورسي «كان يسعى دائماً بكل ما أوتي من قوة، لإقامة سد قرآني شبيه بسد ذي القرنين أمام الفوضى والإرهاب»^(٧) وكان يعلن دائماً «أن خدمتنا تسعى لإنقاذ الإيمان والنظام والأمن»^(٨)

والإمام النورسي حين أثر تفعيل المنهج الوقائي من أعمال العنف والتخريب واستئصالها نهائياً مع تحديث المفهوم الجهادي طبقاً لمقتضيات المرحلة والعصر. وذلك بإيجاد قنوات داخلية تحول دون وقوعها، لأن الوقاية خير من العلاج.

(١) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٦٩.

(٢) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٤٧٠.

(٣) النورسي: سيرة ذاتية، ص ١٨٧.

(٤) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٢٦٢.

(٥) النورسي: سيرة ذاتية، ص ١١٨-١١٩.

(٦) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٢٠٨.

(٧) النورسي: الملاحق، ص ٢٣٩.

(٨) النورسي: سيرة ذاتية، ص ٣١٣.

ولأنه يعلم، أن ما يترتب عن الأعمال الإرهابية من الأضرار المختلفة: سياسياً، وأديباً، واجتماعياً ونفسياً، أضخم من أن تعالج بعد حصولها بمجرد أساليب الردع، أو التشريعات الزجرية؟

والأهم من هذا وذاك، هو تلطيح اسم الإسلام بما ليس فيه، بأنه دين استبدادي، وعائق للحريات ويتهم بأنه دين الطائفية والعنصرية...، وهذا ظلم، والإسلام منه برئ.

وتبرز قدرة النورسي على تغيير مسار المفاهيم (ومنها مفهوم الجهاد) وشحنها دائماً ببعد إيجابي، وكأنه يريد أن يعلم الإنسان بصفة عامة، وليس الإنسان المسلم فقط، أينما كان هذا الإنسان ومتى وجد، أن يعلمه كيفية النظر إلى العالم والأشياء والواقع، وكل ما قد يتبادر إلى الذهن، نظرة إيجابية، تتفق مع إنسانية الإنسان المستخلف والمكرم، وتتفق مع حرّيته.

قراءة في أهم القضايا بفهم معتدل وصحيح

في الحقيقة لا أجد عندي مادة علمية كافية ومقنعة، أستطيع الغوص بها في بعض القضايا، التي تؤرق المشتغلين بالوحدة والتقريب من ناحية، وتفحم وتقطع الطريق أمام من يستعملوها لبث بذور الفرقة والخلاف من ناحية أخرى.

ولكن القارئ لرسائل النور، يجد أن الإمام النورسي بما أتاه الله من بصيرة مستنيرة بنور القرآن، أوجد بمشيئة الله مادة علمية مقنعة، لكي تزيل الأتات والأوجاع التي دبت بين المسلمين، وسعى وبذل جهداً خارقاً من أجل إيجاد حلول واقعية وعملية، لفك طلسم هذه القضايا، وهي حلول تتلاقى مع كل عقل سليم ويسلم بها، ويتقبلها كل مخلص يرجو الخير لأمته والنهوض بها، فجزى الله الإمام النورسي عن المسلمين خير الجزاء، على ما قدم من فكر مستنير ومعتدل للأمة الإسلامية.

لذا فإنني أضع بين أيديكم لمحات موجزة وليست تفصيلية، وأدعو كل من أراد الإستزادة أن يلقي بنفسه في أحضان رسائل النور، ليشرّب من رحيقها الرقراق، تلك الرسائل التي نبعت من نهر القرآن العذب الصافي.

ولذا سأضع رسالة منهاج السنة كما غرس بذور حروفها الإمام النورسي.

اللمعة الرابعة

(لقد ارتوي أن يُطلق على هذه الرسالة اسم «منهاج السنة»)

إنَّ «مسألة الإمامة» مع كونها مسألةً فرعيةً إلا أنَّ كثرة الاهتمام بها جعلتها تدخل ضمن مباحث الإيمان في كتب علم الكلام وأصول الدين، وغدت من هذه الجهة ذات علاقة بخدمتنا الأساسية، خدمة القرآن والإيمان، وقد بُحثت بحثاً جزئياً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٨-١٢٩)

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى: ٢٣)

سنشير إلى جملة من الحقائق العظيمة التي تزخر بها هذه الآيات الجليلة، وذلك ضمن مقامين اثنين.

المقام الأول

عبارة عن أربع نكات

النكته الأولى:

وهي تعبر عن كمال رأفة الرسول الأكرم ﷺ وغاية رحمته على أمته. نعم، لقد وردت رواياتٌ صحيحة تبين مدى رأفته الكاملة وشفقته التامة على أمته، بأنه ﷺ يدعو يوم الحشر الأعظم بـ(أمّتي أمّتي)^(١) في الوقت الذي يدعو كلُّ أحد، بل حتى الأنبياء عليهم السلام بـ(نفسى نفسى) من هول ذلك اليوم ورهبته. فكما تبين هذه

(١) انظر: البخاري، التوحيد ٣٢؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

الروايات عظيمَ شفقتة على أمته فقد سمعتُ والدته منه عند ولادته أنه يناجي: «أمّتي أمّتي» كما هو مصدّقٌ لدى أهل الكشف من الأولياء الصالحين. وكذا إنّ سيرته العطرة كلّها، وما نشره في الآفاق من مكارم الأخلاق المكلّلة بالشفقة والرحمة، تبين كمالَ رأفته وشفقتة، كما أنه أظهر عظيمَ شفقتة على أمته بإظهار حاجته التي لا تحدّ إلى صلوات أمته عليه، تلك الصلوات التي تبين مدى علاقته الرؤوفة بجميع سعادات أمته.

ففي ضوء هذه الرأفة الشاملة وهذه الرحمة الواسعة لهذا المرشد الرؤوف الرحيم ﷺ؛ كم يكون الإعراض عن سنّته السنّية كفراناً عظيماً بل موتاً للوجدان! قس ذلك بنفسك وقدّر.

النكته الثانية:

إنّ الرسول الأكرم ﷺ قد أبدى رأفةً عظيمةً تجاه أمورٍ وموادّ جزئية خاصة، ضمن مهمّته النبوية العامة الشاملة. فيبدو أن صرف تلك الشفقة العظيمة والرأفة الواسعة إلى تلك الأمور الجزئية والمواد الخاصة لا يناسب -في ظاهر الأمر- عظمَ وظيفة النبوة ولا يلائمها. ولكن الواقع والحقيقة أن تلك المادة الجزئية والأمر الخاص يمثل طرفَ سلسلة تتولى في المستقبل مهمةً نبويةً كليّةً؛ لذا أُعطي لمثلها تلك الأهمية البالغة.

مثال ذلك: إن إظهار الرسول ﷺ شفقةً فائقةً وأهميةً بالغةً للحسن والحسين رضي الله عنهما في صباهما،^(١) ليست هي شفقةً فطريةً ومحبةً نابعةً من الإحساس بصلة القربى وحدها، بل نابعةً أيضاً من أنها بدايةً لسلسلةٍ نورانيةٍ تتولى مهمةً من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلاً منها منشأً لجماعة عظيمة من وارثي النبوة، وممثلٌ عنها وقُدوةٌ لها.

نعم! إن حملَ الرسول ﷺ الحسن رضي الله عنه في حضنه وتقبيلَه رأسه^(٢) بكمال الشفقة والرحمة، هو لأجل الكثيرين من ورثة النبوة الشبيهين بالمهدي الحاملين للشريعة الغراء المتسلسلين من سلالة الحسن المنحدرين من نسله النوراني المبارك أمثال الشيخ

(١) انظر: البخاري، فضائل الصحابة ٢٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٦-٦٠.

(٢) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٤٧/٥؛ الطبراني، المعجم الكبير ٣/٣٢، ٢٢/٢٧٤.

الكيلائي. فلقد شاهد الرسول الكريم ﷺ ببصيرة النبوة ما يظطلع به هؤلاء الأكارم في المستقبل من مهام مقدسة جليمة، فاستحسن خدماتهم وقدر أعمالهم، فقبل رأس الحسن رضي الله عنه علامة على التقدير والحث. ثم إن الاهتمام العظيم الذي أولاه الرسول الكريم ﷺ بالحسين رضي الله عنه وعطفه الشديد نحوه إنما هو للذين يتسلسلون من نسله النوراني من أئمة عظام وارثي النبوة الحقيقيين الشبهيين بالمهدي من أمثال زين العابدين وجعفر الصادق.

نعم، فقد قبل ﷺ عنق الحسين رضي الله عنه،^(١) وأظهر له بالغ شفقتة وكمال اهتمامه لأجل أولئك الذين سيرفعون شأن الإسلام ويؤدون وظيفة الرسالة من بعده.

نعم، إن نظر الرسول ﷺ الذي يشاهد بقلبه الأنيس بالغيب ميدان الحشر الممتد في الأبدية وهو مازال في الدنيا، في خير القرون، والذي يرى الجنة في السهوات العلى وينظر إلى الملائكة هناك وهو في الأرض.. والذي يرى الأحداث المستترة بحجب الماضي المظلمة منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام، بل حظي برويته تعالى.. إن هذا النظر النوراني والبصيرة النافذة للمستقبل، لا ريب أنه قد رأى الأقطاب العظام وأئمة وريثة النبوة والمهديين المتسلسلين وراء الحسن والحسين رضي الله عنهما، فقبل رأسيهما باسم أولئك جميعاً.

نعم، إن في تقبيله ﷺ رأس الحسن رضي الله عنه حصّة عظيمة للشيخ الكيلائي.

النكتة الثالثة:

إن معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ - على قول - هو: أن الرسول الأكرم ﷺ لدى قيامه بمهمة الرسالة لا يسأل أجراً من أحد، إلا محبة آل بيته فحسب.

وإذا قيل: إن أجراً من حيث قرابة النسل قد أخذ بنظر الإعتبار حسب هذا المعنى. بينا الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) تدل على أن وظيفة الرسالة تستمر من حيث التقرب إلى الله بالتقوى لا من حيث قرابة النسل.

(١) انظر: ابن ماجه، المقدمة ١١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/١٧٢.

الجواب: إنَّ الرسول ﷺ قد شاهد بنظر النبوة الأنيس بالغيب: أن آل بيته سيكونون بمثابة شجرة نورانية عظيمة تمتد أغصانها وفروعها في العالم الإسلامي، فيرشدون مختلف طبقات العالم الإسلامي إلى الهدى والخير، ويكونون نماذج شاخصة للكلمات الإنسانية جمعاء، وسيظهرون بأكثرتهم المطلقة من آل البيت.

وقد كشف عن قبول دعاء أمته بحق آل البيت الوارد في التشهد وهو: (اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد). أي كما أن معظم المرشدين الهادين النورانيين من ملة إبراهيم عليه السلام هم أنبياء من نسله وآله، كذلك رأى ﷺ أن أقطاب آل بيته يكونون كأنبياء بني إسرائيل في الأمة المحمدية يؤدون وظيفة خدمة الإسلام العظيمة في شتى طرقها ومسالكها. ولأجل هذا أمر ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وطلب مودة أمته لآل بيته. والذي يؤيد هذه الحقيقة هو ما جاء في روايات أخرى أنه ﷺ قال: (يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي)^(١) ذلك لأن آل البيت هم منبع السنة الشريفة والمحافظون عليها والمكلفون أولاً بالالتزام بها.

وهكذا وضحت حقيقة هذا الحديث بناءً على ما ذكر آنفاً، أي بالاتباع التام للكتاب والسنة الشريفة. أي أن المراد من آل البيت من حيث وظيفة الرسالة هو اتباع السنة النبوية. فالذي يدع السنة الشريفة لا يكون من آل البيت حقيقة كما لا يمكن أن يكون مالياً حقيقياً لآل البيت.

ثم إن الحكمة في إرادته ﷺ في جمع الأمة حول آل البيت هي: أن الرسول الكريم ﷺ قد علم بإذن إلهي أن آل البيت سيكثر نسلهم بمرور الزمن بينما الإسلام سيؤول إلى الضعف. فيلزم والحالة هذه وجود جماعة مترابطة متساندة في منتهى القوة والكثرة لتكون مركزاً ومحوراً لرقى العالم الإسلامي المعنوي. وقد علم ﷺ بهذا بإذن إلهي فرغب في جمع أمته حول آل بيته.

(١) الترمذي، المناقب ٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ١٨١/٥.

نعم، إنَّ أفرادَ آل البيت وإن لم يكونوا سابقين ومتقدمين على غيرهم في الإيمان والاعتقاد، إلَّا أنهم يسبقونهم كثيراً في التسليم والالتزام والولاء للإسلام، لأنهم يوالون الإسلام فطرة وطبعاً ونسلاً. فالموالاة الطبيعية لا تُترك ولو كانت في ضعف وعدم شهرة أو حتى على باطل، فكيف بالموالاة لحقيقة ارتبطت بها سلسلةُ أجداده الذين ضحَّوا بأرواحهم رخيصةً في سبيلها فنالوا الشرف بها، فتلك الحقيقة هي في منتهى القوة وذروة الشرف وعلى الحق المين، أفيستطيع من يشعر بداهةً بمدى أصالة هذه الموالاة الفطرية أن يتركها؟

فأهل البيت بهذا الالتزام الشديد للإسلام وهو التزامٌ فطري يرون الأمانة البسيطة بجانب الإسلام برهاناً قوياً لأنهم يوالون الإسلام فطرةً بينما غيرهم لا يلتزم إلَّا بعد اقتناعه بالبرهان القوي.

النكتة الرابعة:

لمناسبة النكتة الثالثة نشير إشارة قصيرة إلى مسألة ضُخِّمت إلى درجة كبيرة بحيث دخلت كتبَ العقائد وتسلسلت مع أسس الإيمان، تلك هي مسألة النزاع بين أهل السنة والشيعة. والمسألة هي أن أهل السنة والجماعة يقولون: «إن سيدنا علياً رضي الله عنه هو رابعُ الخلفاء الراشدين، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أفضل منه وأحق بالخلافة، فتسلَّم الخلافة أولاً».

والشيعة يقولون: «إنَّ حقَّ الخلافة كان لعلي رضي الله عنه إلَّا أنه ظلم، وعلي رضي الله عنه أفضل من الكل». وخلاصة ما يوردونه من أدلة لدعواهم هي أنهم يقولون: إن ورودَ أحاديث شريفة كثيرة في فضائل سيدنا علي رضي الله عنه، وكونه مرجعاً للأكثرية المطلقة من الأولياء والطرق الصوفية، حتى لُقِّبَ بسلطان الأولياء، مع ما يتصف به من صفاتٍ فائقة في العلم والشجاعة والعبادة، فضلاً عن العلاقة القوية التي يُظهرها الرسول ﷺ به وبآل البيت الذين يأتون من نسله.. كلُّ ذلك يدلُّ على أنه الأفضل. فالخلافة كانت من حقه ولكن أُغتصبت منه.

الجواب: إن إقرار سيدنا علي رضي الله عنه نفسه مراراً وتكراراً،^(١) وأتباعه الخلفاء الثلاثة وتوليّه وظيفة «شيخ القضاة»، وكونه من أهل الحّل والعقد طوال عشرين سنة وأكثر.. كل ذلك يجرّح دعوى الشيعة.

ثم إن الفتوحات الإسلامية وجهاد الأعداء زمن الخلفاء الثلاثة، بخلاف ما حدث زمن خلافة علي رضي الله عنه من حوادث وفتن، تجرح أيضاً دعوى الشيعة من جهة الخلافة، أي إن دعوى أهل السنة والجماعة حق.

فإن قيل: إن الشيعة قسمان: أحدهما شيعة الولاية، والآخر شيعة الخلافة. فليكن هذا القسم الثاني غير مُحقّق باختلاط السياسة والأغراض في دعاوهم، ولكن لا أغراض ولا أطماع سياسية في القسم الأول. فضلاً عن ذلك فقد التحقت شيعة الولاية بشيعة الخلافة. أي إن قسماً من الأولياء في الطرق الصوفية يرون أن سيدنا علياً رضي الله عنه هو الأفضل، فيصدّقون دعوى شيعة الخلافة الذين هم بجانب السياسة.

الجواب: إنه ينبغي النظر إلى سيدنا علي رضي الله عنه من زاويتين أو من جهتين:

الجهة الأولى: النظر إليه من زاوية فضائله الشخصية ومقامه الشخصي الرفيع.

الجهة الثانية: هي من زاوية تمثيله الشخص المعنوي لآل البيت. والشخص المعنوي لآل البيت يعكس نوعاً من ماهية الرسول الكريم ﷺ.

ف باعتبار الجهة الأولى: إن جميع أهل الحقيقة وفي مقدمتهم سيدنا علي رضي الله عنه يقدّمون سيدنا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد رأوا مقامهما أكثر رفعةً في خدمة الإسلام والقرب الإلهي.

ومن حيث الجهة الثانية أي كون سيدنا علي رضي الله عنه ممثلاً عن الشخص المعنوي لآل البيت.^(٢) فالشخص المعنوي لآل البيت من حيث كونه ممثلاً للحقيقة

(١) انظر: البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ أبو داود، السنة ٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/١٠٦.

(٢) ذكر ابن الجوزي في كتاب مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٦٣ حول التفضيل ما يأتي: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدث أبي بحديث سفينة، فقلت يا أباي ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فقلت: فعلي بن أبي طالب؟ قال: يا بني علي بن أبي طالب من أهل البيت لا يقاس بهم أحد.

المحمدية، لا يرقى إليه شيءٌ بالموازنة. وكثرة الأحاديث النبوية الواردة في الثناء على سيدنا علي رضي الله عنه وبيان فضائله هي لأجل هذه الجهة الثانية. وما يؤيد هذه الحقيقة روايةٌ صحيحة بهذا المعنى: (إن نسل كل نبي منه، وأنا نسلي من علي).^(١)

أما سبب كثرة انتشار الأحاديث بحق شخصية سيدنا علي رضي الله عنه والثناء عليه أكثر من سائر الخلفاء الراشدين، فهو: أن أهل السنة والجماعة وهم أهل الحق، قد نشروا الروايات الواردة بحق سيدنا علي رضي الله عنه تجاه هجوم الأمويين والخوارج عليه وتقيصهم من شأنه ظلاماً. بينما الخلفاء الراشدون الآخرون لم يكونوا عرضةً لهذه الدرجة من النقد والجرح، لذا لم يروا داعياً لنشر الأحاديث الذكرة لفضائلهم.

ثم إنه ﷺ قد رأى بنظر النبوة أن سيدنا علياً رضي الله عنه سيتعرض لحوادث أليمة وقتن داخلية، فسلاًه، وأرشد الأمة بأحاديث شريفة من أمثال: (من كنت مولاه فعليّ مولاه)^(٢) وذلك لينقذ سيدنا علياً من اليأس وينجي الأمة من سوء الظن به.

إنّ المحبة المفرطة التي يوليها شيعةُ الولاية لسيدنا علي رضي الله عنه وتفضيلهم له من جهة الطريقة لا يجعلهم مسؤولين بمثل مسؤولية شيعة الخلافة، لأن أهل الولاية ينظرون نظر المحبة إلى مرشديهم حسب مسلكهم. ومن شأن المحب؛ الغلو والإفراط والرغبة في أن يرى محبوبه أعلى من مقامه. فهم يرون الأمر هكذا فعلاً.

فأهل الأحوال القلبية يمكن أن يُعذروا في أثناء غليان المحبة لديهم وغلبتها عليهم، ولكن بشرط ألا يتعدى تفضيلهم الناشئ من المحبة إلى ذم الخلفاء الراشدين وعداوتهم، وألا يخرج عن نطاق الأصول الإسلامية.

أما شيعةُ الخلافة فنظراً لدخول الأغراض السياسية فيها، فلا يمكنهم أن ينجوا من العداة والأغراض الشخصية، فيفقدون حق الاعتذار لهم، ويُحرمون منه. حتى إنهم يظهرون انتقامهم من «عمر» في صورة حبّ «علي» وذلك لأن القومية الإيرانية

(١) الطبراني، المعجم الكبير ٣/٤٣؛ الديلمي، المسند ١/١٧٢.

(٢) الترمذي، المناقب ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة ١١؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٨٤، ١١٨، ٤/٢٨١، ٥/٣٤٧.

قد جُرحت بيد سيدنا عمر رضي الله عنه. حتى أصبحوا مصداق القول: «لا لحب علي بل لبغض عمر». وإن خروج عمرو بن العاص على سيدنا علي رضي الله عنه وقتال عمر بن سعد سيدنا الحسين رضي الله عنه في المعركة الفجيعة المؤلمة، كل ذلك أورث الشيعة غيظاً شديداً وعداءً مفراطاً لاسم «عمر».

أما شيعة الولاية فليس لهم حق انتقاد أهل السنة والجماعة. لأن أهل السنة كما لا يُنقصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه فهم يحبونه حباً خالصاً جاداً، ولكنهم يجترزون من الإفراط في الحب الوارد ضرره وخطره في الحديث الشريف.

أما الثناء النبوي لشيعة علي رضي الله عنه كما ورد في أحاديث نبوية فإنما يعود إلى أهل السنة والجماعة لأنهم هم المتبعون لسيدنا علي رضي الله عنه على وفق الاستقامة، لذا فهم شيعة سيدنا علي رضي الله عنه.

وقد جاء في حديث صحيح صراحة؛ أن خطورة الغلو في محبة سيدنا علي رضي الله عنه كخطورة الغلو في محبة سيدنا عيسى عليه السلام على النصارى.^(١)

فإن قالت شيعة الولاية: إنه بعد قبول فضائل خارقة لسيدنا علي رضي الله عنه لا يمكن قبول تفضيل سيدنا الصديق رضي الله عنه عليه.

الجواب: إذا ما وُضع في كفة ميزان الفضائل الشخصية لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه أو فضائل سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وما قام كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتها، ووضع في الكفة الأخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي رضي الله عنه ومجاهدات الخلافة في زمانه وما اضطر إليه من معارك داخلية دامية أليمة وما تعرّض له بهذا من سوء الظن، فلا ريب أن كفة سيدنا الصديق رضي الله عنه أو كفة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أو كفة سيدنا ذي النورين رضي الله عنه هي التي تكون راجحة. وهذا الرجحان هو الذي شاهده أهل السنة والجماعة، وبنا تفضيلهم عليه.

(١) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ١/١٦٠، فضائل الصحابة برقم ١٠٨٧ و ١٢٢١ و ١٢٢٢؛ النسائي، الخصائص ٢٧؛ والبخاري، التاريخ ٢/١/٢٥٧.

ثم إن رتبة النبوة أسمى وأرفع بكثير من درجة الولاية، بحيث إن جلوةً بوزن درهم من النبوة تفضّل رطلاً من جلوة الولاية، كما أثبتناه في «الكلمة الثانية عشرة والكلمة الرابعة والعشرين» من «الكلمات»، فمن زاوية النظر هذه؛ فإن حصّة كل من الصديق والفاروق رضي الله عنهما من حيث وراثته النبوة وتأسيس أحكام الرسالة قد زيدت من الجانب الإلهي، فالتوفيق الذي حالّهما في زمن خلافتها قد صار دليلاً لدى أهل السنة والجماعة. وحيث إن فضائل سيدنا علي رضي الله عنه الشخصية لا تسقط من حكم تلك الحصّة الزائدة الكثيرة الآتية من وراثته النبوة، فقد أصبح سيدنا علي رضي الله عنه شيخ القضاة للشيخين المكرّمين زمن خلافتها، وكان في طاعتها.

إنّ أهل الحق، أهل السنة والجماعة الذين يحبّون سيدنا علياً رضي الله عنه ويوقّرونه، كيف لا يحبّون من كان سيدنا علي رضي الله عنه نفسه يحبّها ويجلّها؟

لنوضح هذه الحقيقة بمثال: رجل ثري جداً ورّع ميراثه وأمواله الطائلة على أولاده. فأعطى لأحدهم عشرين رطلاً من الفضة وأربعة أرتال من الذهب، وأعطى لآخر خمسة أرتال من الفضة وخمسة أرتال من الذهب، وأعطى لآخر ثلاثة أرتال من الفضة وخمسة أرتال من الذهب، فلا شك أن الأخيرين رغم أنهما قد قبضا أقل من الأول كميةً إلاّ أنهما قبضا أعلى منه نوعيةً.

وهكذا في ضوء هذا المثال، إن الزيادة القليلة في حصّة الشيخين من ذهب حقيقة الأقرية الإلهية المتجلية من وراثته النبوة وتأسيس أحكام الرسالة ترجح على الكثير من الفضائل الشخصية وجواهر الولاية والقرب الإلهي لسيدنا علي رضي الله عنه. فينبغي في الموازنة النظر من هذه الزاوية وأخذها بنظر الاعتبار، وإلاّ تتغير صورة الحقيقة إن كانت الموازنة تُعقد مع الشجاعة والعلم الشخصي وجانب الولاية.

ثم إن سيدنا علياً رضي الله عنه لا يباريه أحدٌ من جانب كونه الممثل في ذاته الشخص المعنوي لآل البيت، والذي تجلّى في هذه الشخصية المعنوية من حيث الوراثة النبوية المطلقة. وذلك لأن السر العظيم للرسول الأعظم ﷺ في هذا الجانب.

أما شيعة الخلافة فلا حق لهم غير الخجل أمام أهل السنة والجماعة. لأن هؤلاء يُنقصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه في دعواهم الحبّ المفرط له بل يُفضي مذهبهم إلى وصفه بسوء الخلق -حاشاه- حيث يقولون: إن سيدنا علياً رضي الله عنه قد مآسى سيدنا الصديق والفاروق رضي الله عنهما مع أنهما غير محققين واتقى منهما تقاةً. وباصطلاح الشيعة إنه عمل بـ«التقية». بمعنى أنه كان يخافهما وكان يراييهما في أعماله! إن وصف مثل هذا البطل الإسلامي العظيم الذي نال اسم «أسد الله» وأصبح قائداً لدى الصديقين ووزيراً لهما.. أقول إن وصفه بأنه كان يرايياً ويخاف ويتصنع بالحب لمن لا يحبهم حقاً، وأتباعه لغير المحققين أكثر من عشرين عاماً ومسايرتهما تحت سطوة الخوف، ليس من المحبة في شيء. وسيدنا علي رضي الله عنه يتبرأ من مثل هذه المحبة.

وهكذا فإن مذهب أهل الحق لا يُنقص من شأن سيدنا علي رضي الله عنه بأية جهة كانت، ولا يتهمه في أخلاقه قطعاً، ولا يسند إلى مثل هذا البطل المقدم الخوف، ويقولون: لو لم يكن سيدنا علي رضي الله عنه يرى الحق في الخلفاء الراشدين لما كان يعطيهم الولاء لدقيقة واحدة وما كان ينقاد لحكمهم أصلاً.

بمعنى أنه رضي الله عنه قد عرف أنهم على حق وأقرّ بفضلهم فبذل شجاعته الفائقة في سبيل محبة الحق.

نحصل مما سبق: أنه لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء. وإن الاستقامة هي الحد الوسط الذي اختاره أهل السنة والجماعة، ولكن مع الأسف كما تستر بعض أفكار الخوارج والوهابية بستار أهل السنة والجماعة فإن قسماً من المفتونين بالسياسة والملحدون يتنقدون سيدنا علياً رضي الله عنه ويقولون: «إنه لم يوفق كاملاً في إدارة دفة الخلافة لجهله -حاشاه- بالسياسة فلم يقدر على إدارة الأمة في زمانه». فإزاء هذا الاتهام الباطل من هؤلاء اتخذ الشيعة طوراً الغيظ والاستياء من أهل السنة. والحال إن دساتير أهل السنة وأسس مذهبهم لا تستلزم هذه الأفكار

بل تثبت عكسها. لذا لا يمكن إدانة أهل السنة بأفكار تردُّ من الخوارج ومن الملحدين قطعاً، بل إن أهل السنة هم أكثرُ ولاءً وحباً من الشيعة لسيدنا علي رضي الله عنه. فهم في جميع خطبهم ودعواتهم يذكرون سيدنا علياً رضي الله عنه بما يستحقه من الثناء وعلو الشأن ولاسيما الأولياء والأصفياء الذين هم بأكثريتهم المطلقة على مذهب أهل السنة والجماعة، فهم يتخذونه مرشدَهم وسيدَهم. فما ينبغي للشيعة أن يجابهوا أهل السنة بالعداء تاركين الخوارج والملحدين الذين هم أعداء الشيعة وأهل السنة معاً. حتى يترك قسمٌ من الشيعة السنة النبوية عناداً لأهل السنة!.

وعلى كل حال فقد أسهبننا في هذه المسألة حيث إنها قد بُحثت كثيراً بين العلماء.

فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة!

ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلماً لكم!

ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، وهو باطلٌ ومضر في الوقت نفسه. وإن لم تزيلوا هذا النزاع فإن الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر وتستعمله أداةً لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطّم تلك الأداة أيضاً.

فيلزمكم نبذ المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لأنكم أهل التوحيد، بينكم مئات الروابط المقدسة الداعية إلى الأخوة والاتحاد.

الصحابة في دائرة بيت النبوة

إذا كان من حق سيدنا رسول الله ﷺ علينا أن نتأسى به، وأن نعمل بشرع الله وسنته، وأن ننفذ أمر الله بالصلاة عليه، وأن نجبه أكثر من حيننا لأنفسنا، وأن نجعل حب الصحابة الأجلاء - رضوان الله عليهم - لرسول الله نموذجاً يحتذى به.

فإنه من الواجب كذلك أن نحب الصحابة - رضوان الله عليهم - تبعاً لحب رسول الله لهم، وأن نذكرهم بكل ما هو طيب وجميل، جزاء ما قدموه للإسلام، ونصرتهم له، ودفاعهم عنه، وبذلهم النفس والنفيس من أجل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن نتشبه بمكارم أخلاقهم.

ويجب في المقابل ألا نخوض في أعراضهم بالسوء، أو نتلفظ عليهم بما لا يليق من فحش الكلام، وألا ننش في ما كان بينهم من أحداث نحن لم نكن معاصرين لها، أو واقفين على أمرها، ولسنا على علم بصدق وكذب من أوردتها وقصها، ولم نقف على معرفة الدوافع والنوايا الحقيقية التي دفعت من سردها وقام بترويجه، وتعتمد تشويه الصورة النقية للإسلام، من خلال تشويه صورة الصحابة الأبرار، وإبرازه سوء العلاقة والمعاملة بين الصحابة في علاقاتهم، ورسمها ووضعها في دائرة التماحن والتحزب والتناحر والكذب والمؤامرة والتخوين والتهميش.

وهذه أمور لا يتقبلها صاحب قلب سليم، أو نفس سوية، ولا يقبل بها من له مسكة من عقل، أو بصر وبصيرة خافتة ضئيلة.

لأن هؤلاء الأبرار، الأخيار، الأصفياء، الأنقياء، الأطهار، صنعهم الله على عينه، واختارهم لمرافقة نبيه ورسوله ﷺ، وجعلهم حواريين، ورباهم الحبيب المصطفى في مدرسته.

كما أن المولى تبارك وتعالى مدحهم من فوق سبع سماوات، وأنزل فيهم قرأناً يتلى ويعبد به إلى أن تقوم الساعة، فقال تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ (التوبة: ١٠٠)

ويبين الرسول الكريم ﷺ، أن صحابته كنجوم ساطعة مضيئة، يهتدي بها المبصرون، فقال في الحديث الشريف: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

ولعل المتصفح لسيرة الصحابة الأجلاء في القرآن والسنة، يقف على مخزون كبير من فضائلهم، وأنهم أسوة وقدوة حسنة، إصطفاهم الله لصحبة رسوله ونصرة الإسلام.

أما ما يسود بين بعض الجهلاء من سوء العلاقة بين الصحابة، فالأمر يحتاج أولاً إلى تجلية البصر والبصيرة، وتنقية القلب من الأحقاد الدفينة، والبعد عن وساوس الشيطان والنفس اللئيمة الذميمة.

ولعل نظرة على المشهد المبارك أمام باب بيت رسول الله بين سيدنا علي وسيدنا أبو بكر - رضي الله عنهم أجمعين - يدحض جميع الافتراءات والأكاذيب:

حيث ورد أن أبا بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ذهبا ذات يوم لزيارة رسول الله في بيته، وعندما وصلا إلى الباب قال أبو بكر رضي الله عنه: تقدم يا علي.

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن آل بيته: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك الرسول ﷺ: «ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين أفضل من أبي بكر».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وكيف أتقدم عليك وقد قال فيك الرسول ﷺ: «زوجت خير النساء لخير الرجال، زوجت فاطمة لعلي».

فقال علي رضي الله عنه وآل بيته: وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد قال فيك الرسول ﷺ: «لو وزن إيمان الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر».

فقال أبو بكر رضي الله عنه : وكيف أتقدم عليك يا علي وقد قال فيك الرسول ﷺ :
«يحشر علي بن أبي طالب مع فاطمة والحسن والحسين راكبين يوم القيامة فيشير الناس
إلى علي في الموقف ويقولون : من هذا النبي ؟ فيقال لهم : ما هو بنبي، وإنما هو علي بن
أبي طالب».

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل بيته : وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد
قال فيك الرسول ﷺ : «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً».

فقال أبو بكر رضي الله عنه : وكيف أتقدم عليك وقد قال فيك الرسول ﷺ : إني
مع علي يوم القيامة، فيقول الله يا حبيبي لقد اخترت لك ابراهيم خير والدٍ واخترت
لك علياً خير أخٍ وصديق».

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل بيته : وكيف أتقدم عليك يا أبا بكر وقد
قال فيك مولانا عز وجل : ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾
فقال أبو بكر رضي الله عنه : وكيف أتقدم عليك وقد قال فيك مولانا عز وجل :
﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾

وبينا هما يتجادبان أطراف الحديث، إذا بالأمين جبريل عليه السلام يهبط على
الأمين سيدنا محمد ﷺ، ويقول له يا رسول الله : إن أبا بكر وعلياً واقفان بالباب
فقم إليهما.

فقام الرسول ﷺ إليهما، وجعل أبا بكر رضي الله عنه على يمينه وسيدنا علياً على
يساره، ودخل بهما إلى بيته، وقال لهما : «هكذا نحشر يوم القيامة».

هذا كان حال الصحابة رضوان الله عليهم فيما بينهم، وهذا نموذج من ملايين
النماذج، التي تبين وتكشف عن بطلان ما يثار عن سوء العلاقة بين الصحابة، وتوضح
كذب الحاقدين.

بل إن سيدنا رسول الله، وسيدنا علي وآل بيته لو كانوا بين أظهرنا، ما وسعهم إلا محاربة ومعاداة من يسيء لصحبهم بسوء، ودافعوا عن أطهر أجساد عرفتها البشرية. وهل يتصور إنسان عاقل، أن سيدنا علي إمام الزاهدين بعد رسول الله، يُخرج كلمة تُسيء لصحابة رسول الله الذين كانوا بالأمس القريب رفقاء جهاد لنصرة الإسلام، وكان يرى بأم عينه، كيف كان الواحد منهم يضع جسده أمام الآخر حتى لا تصل له ضربة رمح أو سيف، وكان كل واحد منهم يسارع ليفدي صاحبه.

وإذا أردت أن تقف على حقيقة حالهم - أي الصحابة رضوان الله عليهم - فإنني أفق بك على حالهم من خلال شخصية سيدنا علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه : حيث جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل بيته ذات يوم وقال له : يا أمير المؤمنين، لقد أشتريت داراً وأريد أن تكتب لي عقد الشراء بيديك، فنظر سيدنا أمير المؤمنين إلى وجه الرجل، فرأى الدنيا قد تربعت على عرش قلبه، وأراد أمير المؤمنين أن يلقيه درساً يذكره بالله تعالى.

فأمسك أمير المؤمنين بالقلم وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد : فقد اشترى ميت من ميت داراً تقع في بلد المذنبين وسكة الغافلين، لها حدود أربعة : الحد الأول ينتهي إلى الموت، والحد الثاني ينتهي إلى القبر، والحد الثالث ينتهي إلى الحساب، والحد الرابع ينتهي إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فهل يتسلل إلى عقل أي أحد سوء بهؤلاء الأخيار الأطهار ؟

ولكني لا أريد أن أطيل في الحديث أكثر من هذا، لكي أضع بين أيديكم ذيل رسالة الإجهاد وجزء من المکتوب الخامس العشر التي وضع لبناتها الإمام النورسي في كتابه الكلمات والمكتوبات، لتكشف لنا ما هو غامض علينا، وتزيل ما ألتبس على البعض من أصحاب العيون القاصرة، حتى لا نكون ممن قال فيهم الإمام علي رضي الله عنه وآل بيته : لا تكون ممن يقول بقول الزاهدين ويعمل بعمل الراغبين، ويجب الصالحين ولا يعمل بعملهم، ويغض المذنبين وهو أحدهم.

ذيل رسالة الاجتهاد

يخص الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين

أقول كما قال مولانا جامي:

يا رَسُولَ اللَّهِ بِهِ بَاشِدٌ چُونِ سَكِ اصْحَابِ كَهْفِ
دَاخِلِ جَنَّتِ شَوْمَ دَرُ زُمْرِهِ ي اصْحَابِ تُو؟
أَوْ رُوْدُ دَرُ جَنَّتِ مَنْ دَرُ جَهَنَّمَ كَي رَوَاسْتِ؟!
أَوْ سَكِ اصْحَابِ كَهْفِ مَنْ سَكِ اصْحَابِ تُو؟^(١)

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْحُبْ بِجَهْدِهِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ^ع وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ ^ط تَرَدُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ^ع ذَلِكَ مَثَلُهُمْ
فِي التَّوْرَةِ ^ع وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى
سُقُوذِهِ يُعْجِبُ الزَّرْعَ لِيَغْضِبَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩)

(١) ترجمة الأبيات الفارسية المتصدرة بما يشبه الشعر:

يا رسول الله ما ضر لود خلَّت الجنة مع الداخلين،
ككلب أصحاب الكهف في زمرة أصحابك الأولين.
أيضا أليق بالجنة أنا أمن حرس الكهف سنين
هو كلب أصحاب الرقيم وأنا كلب أصحاب الأمين.

تسأل يا أخي: أن هناك روايات تفيد أنه عند انتشار البدع يمكن أن يبلغ مؤمنون صادقون درجة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وربما يسبقونهم، فهل هذه الروايات صحيحة؟ وإن كانت كذلك، فما حقيقتها؟

الجواب: إن إجماع أهل السنة والجماعة هو حجة قاطعة بأن الصحابة الكرام هم أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام. فالصحيح من تلك الروايات يخص الفضائل الجزئية وليس الفضائل الكلية، إذ قد يترجح المرجوح على الراجح في الفضائل الجزئية وفي كمالي خاص معين، وإلا فلا يبلغ أحد من حيث الفضائل الكلية منزلة الصحابة الكرام الذين أنشأ الله تعالى عليهم في قرآنه المبين ووصفهم في التوراة والإنجيل، كما هو في ختام سورة الفتح.

وسنين ثلاثا من الحكم المنطوية على أسباب ثلاثة من بين الكثير من الأسباب والحكم.

الحكمة الأولى

إن الصحبة النبوية إكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالون من أنوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنين من عمره في السير والسلوك؛ ذلك لأن في الصحبة النبوية انصباغا بصبغة الحقيقة، وانعكاسا لأنوارها. إذ يستطيع المرء بانعكاس ذلك النور الأعظم أن يرقى إلى مراتب سامية ودرجات رفيعة، وأن يحظى بالتبعية والانتساب بأرفع المقامات. مثله في هذا مثل خادم السلطان، الذي يستطيع أن يصل إلى مواقع رفيعة لا يقدر على بلوغها قواد السلطان وأمرؤه.

ومن هذا السر نرى أنه لا يستطيع أن يرقى أعظم ولي من أولياء الله الصالحين إلى مرتبة صحابي كريم للرسول الأعظم ﷺ، بل حتى لو تشرف أولياء صالحون مرارا بصحبة النبي ﷺ في الصحوة، كجلال الدين السيوطي مثلا، وأكرموا بلقائه يقظة في هذا العالم، فلا يبلغون أيضا درجة الصحابة. لأن صحبة الصحابة الكرام للنبي ﷺ كانت بنور النبوة، إذ كانوا يصحبونه في حالة كونه نبيا رسولا. أما الأولياء الصالحون

فإن رؤيتهم له ﷺ إنما هي بعد وفاته، أي بعد انقطاع الوحي، فهي صحبة بنور الولاية، أي إن تمثل الرسول ﷺ وظهوره لنظرهم إنما هو من حيث الولاية الأحمدية، وليس باعتبار النبوة. فما دام الأمر هكذا، فلا بد أن تتفاوت الصحبتان بمقدار سمو درجة النبوة وعلوها على مرتبة الولاية.

ولكي يتوضح ما للصحبة النبوية من تأثير خارق ونور عظيم، يكفي ملاحظة ما يأتي:

بينما أعراي غليظ القلب يند بنته بيده، إذا به يكسب خلال حضوره مجلس الرسول ﷺ ومن صحبته ساعة من الزمان، رقة قلب وسعة صدر وشفافية روح ما يجعله يتحاشى قتل نملة صغيرة. أو آخرُ يجهل شرائع الحضارة وعلومها، يحضر مجلس الرسول الكريم ﷺ فيُصبح مُعلماً لأرقى الأمم المتحضرة، كالهند والصين. ويحكّم بينهم بالقسطاس المستقيم، ويغدو لهم مثلاً أعلى وقدوة طيبة.

السبب الثاني

لقد أثبتنا في رسالة «الاجتهاد» أن الصحابة الكرام هم في قمة الكمال الإنساني، حيث إن التحول العظيم الذي أحدثه الإسلام في مجرى الحياة في ذلك الوقت، سواء في المجتمع أو في الفرد، قد أبرز جمال الخير والحق وأظهر نصاعتهما الباهرة، وكشف عن خبث الشر والباطل وبيّن سماجتتهما وقبحهما، حتى انجلى كل من الحق والباطل والصدق والكذب بوضوح تام، يكاد المرء يلمسه لمس اليد، وانفرجت المسافة بين الخير والشر وبين الصدق والكذب، ما بين الإيثار والكفر، بل ما بين الجنة والنار.

لذا فالصحابة الكرام رضى الله عنهم الذين وهبوا فطراً سليمة ومشاعر سامية، وهم التواقون لمعالي الأمور ومحاسن الأخلاق شدوا أنظارهم إلى الذي تستمّ قمة أعلى عليّ الكمال والداعي إلى الخير والصدق والحق، بل هو المثال الأكمل والنموذج الأتم، ذلكم الرسول الكريم حبيب رب العالمين محمد ﷺ، فبدلوا كل ما وهبهم الله سبحانه من قوة للانضواء تحت لوائه، بمقتضى سجيّتهم الطاهرة وجلبّتهم النقية،

ولم يُر منهم أيُّ ميل كان إلى أباطيل مسيلمة الكذاب الذي هو مثال الكذب والشر والباطل والخرافات.

ولتوضيح الأمر نسوق هذا المثال: تُعرض أحيانا في سوق الحضارة البشرية ومعرض الحياة الاجتماعية أشياء لها من الآثار السيئة المرعبة والنتائج الشريرة الخبيثة ما للسمّ الزعاف للمجتمع. فكل من كانت له فطرة سليمة ينفر منها بشدة ويتجنبها ولا يقربها.. وتُعرض كذلك أشياء أخرى وأمتعة معنوية في السوق نفسها، لها من النتائج الطيبة والآثار الحسنة ما يستقطب الأنظارَ إليها، وكأنها الدواء الناجع لأمراض المجتمع، لذا يسعى نحوها المفطورون على الخير والصلاح.

وهكذا، ففي عصر النبوة السعيد وخير القرون على الإطلاق، عُرضت في سوق الحياة الاجتماعية أمور. فبديهي أن يسعى الصحابة الكرام نحو الصدق والخير والحق لما يملكون من فطر صافية وسجايا سامية، وبديهي كذلك أن ينفروا ويتجنبوا كلَّ ماله نتائج وخيمة وشقاء الدنيا والآخرة كالكذب والشر والكفر، فالتفوا حول راية الرسول الكريم ﷺ وتجنبوا مهازل مسيلمة الكذاب الذي يمثل الكذب والشر والباطل.

بيد أن الأمور تغيرت تدريجيا وبمرور الزمن فلم تبق على حالها كما هي في قرون الخير، فتقلصت المسافة بين الكذب والصدق رويدا رويدا كلما اقتربنا إلى عصورنا الحاضرة حتى أصبحا مترادفين متكاتفين في العصر الحاضر، فصار الصدق والكذب يُعرضان معا في معرض واحد، ويصدران معا من مصدر واحد ففسدت الأخلاق الاجتماعية واختلت موازينها. وزادت الدعايات السياسية إخفاء قبح الكذب المرعب وسترَ جمال الصدق الباهر.

فهل يقوى أحد على الجرأة في عصر كهذا ويدعي: أستطيع أن أدنو من مرتبة أولئك الكرام العظام الذين بلغوا من اليقين والتقوى والعدالة والصدق وبذل النفس والنفيس في سبيل الحق ما لم يبلغه أحد، فضلا عن أن يسبقهم؟

سأورد حالة مرّت عليّ توضّح جانبنا من هذه المسألة: لقد خطر على قلبي ذات يوم

سؤال وهو: لم لا يبلغ أشخاص أمثال محي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظت في أثناء قولي في سجود في صلاة: «سبحان ربي الأعلى» أن شيئاً من الحقائق الجليلة لعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها، بل انكشف شيء منها. فقلت في قلبي: ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جواباً على سؤال، وإرشاداً إلى استحالة إدراك أحدٍ من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة؛ ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشورور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تبيّنت لدى أهل الخير نوازه، فغدا كل ذكر وتسييح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة ويعبر عنها تعبيراً ندياً نضراً، فارتشفت مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار ارتشافت صافياً يقظاً حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكمة، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة وحواس متببهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسييح والتحميد يشعرون بجميع معانيها ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية.

بيد أن الأمور لم تبق على ذلك الوضع الندي والطراوة والجدّة، فتبدلت تدريجياً بمرور الزمن حتى غطت اللطائف في نوم عميق، وغفلت المشاعر والحواس وانصرفت عن الحقائق، ففقدت الأجيال اللاحقة شيئاً فشيئاً قدرتهم على تذوق طراوة تلك الكلمات الطيبة والتلذذ بطعومها ونداوتها، فغدت لديهم كالثمار الفاقدة لظراواتها ونضارتها، حتى لكأنها جفت وبيست ولم تعد تحمل لهم إلا نزراً يسيراً من الطراوة، لا تستخلص إلا بعد إعمال الذهن والتفكير العميق، وبذل الجهد وصرف الطاقة.

لذا فالصحابي الجليل الذي ينال مقاما وفضيلةً في أربعين دقيقة لا يناله غيره إلا في أربعين يوما، بل في أربعين سنة، وذلك بفضل الصحبة النبوية الشريفة.

السبب الثالث

لقد أثبتنا في كل من الكلمات «الثانية عشرة والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين»: أن نسبة النبوة إلى الولاية كنسبة الشمس المشهودة بذاتها إلى صورتها المثالية الظاهرة في المرايا، لذا فإن سموً منزلة العاملين في دائرة النبوة وهم الصحابة الكرام الذين كانوا أقرب النجوم إلى تلك الشمس الساطعة، وعلوً مرتبتهم على الأولياء الصالحين، هو بنسبة سموً دائرة النبوة وعلوها على دائرة الولاية، بل حتى لو كسب أحد الأولياء مرتبة الولاية الكبرى، وهي مرتبة ورثة الأنبياء والصدّيقين وولاية الصحابة، فإنه لا يبلغ مقام أولئك الصفوة المتقدمين في الصف الأول، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

سنيين ثلاثة أوجه فقط من بين الوجوه العديدة لهذا السبب الثالث:

الوجه الأول: لا يمكن اللحاق بالصحابة الكرام في الاجتهاد، أي في استنباط الأحكام، أي إدراك مرضاة الله سبحانه من خلال كلامه؛ لأنّ محور ذلك الانقلاب الإلهي العظيم الذي حدث في ذلك الوقت كان يدور على مرضاة الرب من خلال فهم أحكامه الإلهية. فالأذهان كلّها كانت مفتوحةً متوجهةً إلى استنباط الأحكام، والقلوب كلّها كانت متلهفةً إلى معرفة: ماذا يريد منا ربُّنا؟ فالمحادثات والمحاورات كانت تتضمن هذه المعاني، والظروف والأحداث تجري في ضوئها.

وحيث إنّ كل شيء في ذلك الوقت وكلّ حال وكلّ محاوراة ومجالسة ومحادثة وحكاية تجري بما يرشد إلى تلك المعاني ويدل عليها، لذا كانت -تلك الظروف- تكملّ قابليات الصحابة الكرام وتنور أفكارهم وتُهيئ استعداداتهم لقدح زنادها للاجتهاد واستنباط الأحكام، إذ كانوا يكسبون من المَلَكَة على الاستنباط والاجتهاد في يوم واحد أو في شهر واحد ما لا يمكن أن يحصل عليه في هذا الوقت من هو

في مستوى ذكائهم واستعدادهم في عشر سنوات، بل في مائة سنة، لأن الأُنظار في الوقت الحاضر متوجهة إلى نيل حياة دنيوية رغيدة دون سعادة الآخرة الأبدية وحياة النعيم المقيم فيها، فالأُنظارُ مصرّوفة عنها. فمهمومُ العيش التي تتضاعف بعدم التوكل على الله تلقي ثقلها على روح الإنسان وتجعلها في اضطراب وقلق، والفلسفةُ المادية والطبيعية تكَلِّ العقلَ وتعمي البصيرة. فترى المحيط الاجتماعي الحاضر مثلما لا يمدّد ذهنَ ذلك الشخص «الذكي» لا يؤازر استعدادَه الفطري نحو الاجتهاد فضلاً عن أنه يشتته ويرهقه أكثر.

ولقد عقدنا موازنة في رسالة «الاجتهاد» بين سفيان ابن عيينة ومَن هو في مستوى ذكائه في هذا العصر، وخلصنا من الموازنة إلى: «أن ما حصل عليه سفيان في عصره من القدرة على الاستنباط في عشر سنوات لا يمكن أن يحصل عليه من هو بمستوى ذكائه في هذا العصر في مائة سنة».

الوجه الثاني: لا يمكن للحاق بالصحابة الكرام في قريهم من الله بخطى الولاية؛ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو أقربُ إلينا من جبل الوريد، أما نحن فبعيدون عنه بُعداً مطلقاً. والإنسان يمكنه أن ينال القربَ منه بالصورتين الآتيتين:

الصورة الأولى: من حيث انكشاف أقربيته سبحانه وتعالى للعبد. فقربُ النبوة إليه تعالى هو من هذا الانكشاف. والصحابة الكرام من حيث إنهم ورثة النبوة والصحبة النبوية يحظون بهذا الانكشاف.

الصورة الثانية: من حيث بُعدنا عنه سبحانه، فالتشرف بشيء من قُربه سبحانه يكون بقطع المراتب إليه. وأغلبُ طرق الولاية، وما فيها من سيرٍ وسلوكٍ تجري على هذه الصورة، سواء منها السيرُ الأنفسي أو الآفاقي.

فالصورة الأولى التي هي انكشافُ أقربيته سبحانه -أي قُربه سبحانه من العبد- هبة محضة منه تعالى وليس كسبا قط، بل هو انجذاب إلهي وجذب رحماني،

ومحبوبة خالصة. فالطريق قصير، إلا أنه ثابت رصين، وهو عال رفيع سام جدا، وخالص طاهر لا ظلَّ فيه ولا كدر.

أما الصورة الأخرى من التقرب إلى الله، فهي كسبية، طويلة، فيها شوائب وظلال، ورغم أن خوارقها كثيرة فإنها لا تبلغ الصورة الأولى من حيث الأهمية والتقرب منه تعالى.

ولنوضح ذلك بمثال: لأجل إدراك أمس من هذا اليوم هناك طريقان:

الأول: الانسلاخ من وقائع الزمن وجريانه بقوة قدسية، والعروج إلى ما فوق الزمان، ورؤية أمس حاضرا كالיום.

أما الثاني: فهو قطع مسافة سنة كاملة لملاقاة أمس من جديد، ومع ذلك لا يمكن أن تمسك به، لأنه يدعك ويمضي.

وهكذا الأمر في النفوذ من الظاهر إلى الحقيقة، فإنه بصورتين:

الأولى: الانجذاب إلى الحقيقة مباشرةً ووجدان الحقيقة في عين الظاهر المشاهد، من دون الدخول إلى برزخ الطريقة.

الثانية: قطع مراتب كثيرة بالسير والسلوك.

فأهل الولاية رغم أنهم يوقفون إلى فناء النفس الأمانة بالسوء ويقتلونهم، فإنهم لا يبلغون مرتبة الصحابة الكرام، لأن نفوس الصحابة كانت مزكاة ومطهّرة، فنالوا كثيرا من أنواع العبادة وضروبا مختلفة من ألوان الشكر والحمد بأجهزة النفس العديدة، بينما عبادة الأولياء - بعد فناء النفس - تصبح يسيرة وسهلة.

الوجه الثالث: لا يمكن إدراك الصحابة الكرام في فضائل الأعمال وثواب الأفعال وجزاء الآخرة، لأن الجندي المرابط لساعةٍ من الزمن في ظروف صعبة تحيطه، وفي موقع مهم مخيف، يكسب فضيلةً وثوابا يقابل سنة من العبادة، وإذا أصيب بطلقة واحدة في دقيقة واحدة، فإنه يسمو إلى مرتبةٍ لا يمكن بلوغها في مراتب الولاية

إلاّ في أربعين يوماً على أقل تقدير. كذلك الأمر في جهاد الصحابة الكرام عند إرساء دعائم الإسلام، ونشر أحكام القرآن، وإعلانهم الحرب على العالم أجمع باسم الإسلام، فهو مرتبة عظيمة وخدمة جليلة لا ترقى سنّة كاملة من العمل لدى غيرهم إلى دققة واحدة من عملهم، بل يصح أن يقال:

إنّ دقائق عمر الصحابة الكرام جميعها - في تلك الخدمة المقدسة - إننا هي بمثل الدققة التي استشهد فيها الجندي، وإنّ ساعات عمرهم كلّها هي بمثل الساعة لذلك الجندي الفدائي المرباط في موقع خطر مرعب. فالعمل قليل، إلاّ أن الأجر عظيم والثواب جزيل، والأهمية جليلة.

نعم، إنّ الصحابة الكرام إننا يمثلون اللبنة الأولى في تأسيس صرح الإسلام، وهم الصف الأول في نشر أنوار القرآن، فلهم إذن قسط وافر من جميع حسنات الأمة، حسب قاعدة «السبب كالفاعل». فالأمة الإسلامية في أثناء ترديدها: «اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم» إننا تبين ما للآل والصحب الكرام من حظ وافر في حسنات الأمة جميعها.

ولكي نوضح ما يترتب من نتائج عظيمة على أثر ضئيل في البداية نسوق الأمثلة الآتية: خاصية صغيرة مهمة في جذر النبات تأخذ صورةً عظيمة في أغصانها، فتلك الخاصية في الجذر إذن هي أعظم من أعظم غصن.. وارتفاع ضئيل في البداية يكون تدريجياً عظيماً في النهاية.. وإنّ الزيادة الطفيفة في نقطة المركز، ولو بمقدار أنملة، تكون أحياناً بمقدار متر كامل في الدائرة المحيطة.

وهكذا فلأنّ الصحابة الكرام هم مؤسسو الإسلام، وجذور شجرة الإسلام المنيرة، وبداية الخطوط الأساسية لبناء الإسلام، وركيزة المجتمع الإسلامي وأئمتّه، وأقرب الناس إلى شمس النبوة المنيرة وسراج الحقيقة.. فعمل قليل منهم هو عظيم جليل، وخدمة ضئيلة يقدمونها هي جسيمة كثيرة، فلا يمكن اللحاق بهم وإدراكهم إلاّ أن يكون المرء صحابياً مثلهم.

اللهم صلّ على سيدنا محمد الذي قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١) و«خير القرون قرني..»^(٢) وعلى آله وأصحابه وسلم.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

سؤال وجواب

سؤال: يُقال إن الصحابة الكرام قد رأوا الرسول ﷺ عياناً ثم آمنوا به وصدّقوه، أما نحن فقد آمنّا به من دون أن نراه، فإيماننا إذن أقوى من إيمانهم، فضلاً عن أن هناك رواياتٍ تؤيد ما نذهب إليه!!

الجواب: إن الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، قد وقفوا أمام جميع التيارات الفكرية في العالم أجمع والتي كانت تعادي حقائق الإسلام وتصدّها. فآمنوا إيماناً راسخاً صادقاً خالصاً مع أنهم لم يروا من الرسول الكريم ﷺ بعد إلا ظاهر صورته الإنسانية، بل آمنوا به أحياناً من دون أن يروا منه معجزةً، وأصبح إيمانهم من الرسوخ والمتانة ما لا تزعه جميع تلك الأفكار العامة المناهضة للإسلام، بل لم تؤثر ولو بأدنى شبهة أو وسوسة.

أما أنتم فمَعَ أنكم لم تروا صورته الظاهرة وشخصيته البشرية التي هي بمثابة نواة لشجرة طوبى النبوة، فإن أفكار عالم الإسلام تشدّ من إيمانكم وتمدّه وتعزّزه، فضلاً عن أنكم ترون بعين العقل، شخصية الرسول الكريم المعنوية ﷺ المنورة بأنوار الإسلام وحقائق القرآن، تلك الشخصية المهيبة بألفٍ من معجزاته الثابتة.. أفيؤازن إيمانكم هذا مع إيمانهم العظيم؟. فأين إيمانكم الذي يهوي في شرك الشبهات بمجرد كلام يُطلقه فيلسوف مادي أوروبي، من إيمانهم الذي كان كالطود الشامخ لا يتزعزع أمام الأعاصير التي يثيرها جميع أهل الكفر والإلحاد واليهود والنصارى والحكماء؟

(١) العجلوني، كشف الخفاء ١/١٣٢؛ المناوي، فيض القدير ٦/٢٩٧.

(٢) حديث «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». البخاري، فضائل أصحاب النبي ﷺ ١، الشهادة ٩، الرقاق ٧، الإيذان ١٠، ٢٧؛ الترمذي، الفتن ٤٥، الشهادة ٤، المناقب ٥٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٣٧٨، ٤١٧، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٢.

فيا أيها المدّعي! أين إيمانك الواهي الذي قد لا يقوى لأداء الفرائض على وجهها من صلابة وقوة إيمانهم وعظيم تقواهم وصلاحهم الذي بلغ مرتبة الإحسان؟ أما ما ورد في الحديث الشريف بما معناه: أنّ الذين لم يروني وآمنوا بي هم أفضل منكم..^(١) فهو يخصّ الفضائل الخاصة، وهو بحق بعض الأشخاص. بينما بحثنا هذا هو في الفضائل الكلية وما يعود إلى الأكثرية المطلقة.

السؤال الثاني: يقولون: إنّ الأولياء الصالحين وأصحاب الكمال قد تركوا الدنيا وعافوا ما فيها، بمضمون ما ورد في حديث شريف: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»^(٢)، بينما الصحابة الكرام قد أخذوا بأمور الدنيا وأقبلوا عليها ولم يدعوها، بل قد سبق قسم منهم أهل الحضارة في أخذهم بمتطلبات الدنيا. فكيف تقول: إن أصغر صحابي من أمثال هؤلاء هو كأعظم وليّ من أولياء الله الصالحين؟

الجواب: لقد أثبتنا إثباتا قاطعا في «الموقف الثاني والثالث من الكلمة الثانية والثلاثين»:

أنّ للدنيا ثلاثة وجوه: فإبداء المحبة إلى وجهي الدنيا المتطلعين إلى الأسماء الحسنى والآخرة، ليس نقصا في العبودية، بل هو مناط كمال الإنسان وسموّ إيمانه، إذ كلما جهد الإنسان في محبته لذينك الوجهين كسب مزيدا من العبادة ومزيدا من معرفة الله سبحانه. ومن هنا كانت دنيا الصحابة الكرام متوجهة إلى ذينك الوجهين، فعُدّوها مزرعة الآخرة وزرعوا الحسنة وجنوا الثمرات اليانعة من الثواب الجزيل والأجر العظيم، واعتبروا الدنيا وما فيها كأنها مرايا تعكس أنوار تجليات الأسماء الحسنى، فتأملوا فيها وفكروا في جنباتها بلهفة وشوق، فتقربوا إلى الله أكثر. وفي الوقت نفسه تركوا الوجه الثالث من الدنيا وهو وجهها الفاني المتطلع إلى شهوات الإنسان وهو.

السؤال الثالث: إن الطرق الصوفية هي سبل الوصول إلى الحقائق، وأشهرها

(١) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٥/٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦٤.

(٢) انظر: البيهقي، شعب الإيمان ٧/٣٣٨؛ ابن أبي عاصم، الزهد ٩؛ أبو نعيم، حلية الأولياء ٦/٣٨٨؛

العجلوني، كشف الحفاء ١/٤١٢.

وأسمائها هي الطريقة النقشبندية التي تعدّ الجادة الكبرى. وقد لخص قواعدُها بعضُ أقطابها هكذا:

دَرْ طَرِيقِ نَقْشِبَنْدِي لَا زِمُّ أَمْدٍ چَارِ تَرَكْ:
تَرَكْ دُنْيَا، تَرَكْ عُقْبِي، تَرَكْ هَسْتِي، تَرَكْ تَرَكْ

أي يلزم في الطريقة النقشبندية ترك أربعة أشياء: ترك الدنيا بأن لا تجعلها مقصودا بالذات. وترك الآخرة بحساب النفس. وترك النفس، أي أن تنساها، ثم ترك الترك. أي أن لا تتفكر بهذا الترك، لئلا تقع في العجب والفخر. بمعنى أن معرفة الله والكمالات الإنسانية الحقيقيتين إنما تحصل في ترك ما سواه تعالى..

الجواب: لو كان الإنسان مجرد قلب فقط، لكان عليه أن يترك كل ما سواه تعالى، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه. ولكن للإنسان لطائف كثيرة جدا كالقلب، منها العقل والروح والسر، كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها.

فالإنسان الكامل هو كالصحابة الكرام، يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله. فيسوق القلب كالقائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة بطريق عبودية خاص بها. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنودا في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح، كما هو لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. وإلا فإن ترك القلب جنوده دارجا وحده لإنقاذ نفسه، ليس من الفخر والاعتزاز، بل هو نتيجة اضطرار ليس إلا.

السؤال الرابع: من أين ينشأ ادعاء الأفضلية تجاه الصحابة الكرام؟ ومن هم الذين يثيرون هذا الادعاء؟ ولماذا تُثار هذه المسائل في الوقت الحاضر؟ ومن أين ينبعث ادعاء بلوغ المجتهدين العظام؟

الجواب: إن الذين يقولون بهذه المسائل هم قسمان:

قسم منهم: رأوا بعض الأحاديث الشريفة ونشروها كي يحفّزوا الشوق لدى المتقين وأهل الصلاح في هذا الوقت ويرغبوهم في الدين.. فهؤلاء هم أهل دين وعلم، وهم مخلصون. وليس لنا ما نعلّق به عليهم، وهم قلة ويتبهنون بسرعة.

أما القسم الآخر: فهم أناس مغرورون جدا، ومعجبون بأنفسهم أيّما إعجاب، يريدون أن يبتوا انسلاخهم من المذاهب الفقهية تحت ادعاء أنهم في مستوى المجتهدين العظام، بل يحاولون إمرار إلحادهم وانسلاخهم من الدين بادعاء أنهم في مستوى الصحب الكرام، فهؤلاء الضالون قد وقعوا:

أولا: في هاوية السفاهة حتى غدوا معتادين عليها، ولا يستطيعون أن يتركوا ما اعتادوه، وينهضوا بتكاليف الشرع التي تردعهم عن السفاهة. فترى أحدهم يبرّر نفسه قائلا: «إن هذه المسائل إنما هي مسائل اجتهادية، والمذاهب الفقهية متباينة في أمثال هذه المسائل، وهم رجال قد اجتهدوا ونحن أيضا رجال أمثالهم، يمكننا أن نجتهد مثلهم، فلربما يخطئون مثلنا، لذا نؤدي العبادات بالشكل الذي يروق لنا نحن، أي لسنا مضطرين إلى اتّباعهم!!». فهؤلاء التعساء يحلّون ربة المذاهب عن أنفسهم بهذه الدسيسة الشيطانية. فما أوهاما من دسيسة وما أرخصها من تبرير! وقد أثبتنا ذلك في رسالة «الاجتهاد».

ثانيا: إنهم عندما رأوا أنّ دسيستهم لا تكمل حلقائها عند حدّ التعرض للمجتهدين العظام، بدؤوا يتعرضون للصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، حيث إن المجتهدين يحملون النظريات الدينية وحدّها، وهؤلاء الضالون يرومون هدم الضروريات الدينية وتغييرها، فلو قالوا: «نحن أفضل من المجتهدين» لم تنته قضيتهم، حيث إنّ ميدان المجتهدين النظر في المسائل الفرعية، دون النصوص الشرعية، لذا تراهم وهم منسلخون من المذاهب يبدؤون بمسّ الصحابة الأجلاء الذين هم حاملو الضروريات الدينية. ولكن هيهات! فليس أمثال هؤلاء الأنعام الذين هم في صورة إنسان، بل حتى الإنسان الحقيقي، بل الكاملون منهم

وهم أعظم الأولياء الصالحين، لا يمكنهم أن يكسبوا دعوى المماثلة مع أصغر صحابي جليل. كما أثبتناه في رسالة «الاجتهاد».

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى رَسُولِكَ الَّذِي قَالَ: «لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١)

من المكتوب الخامس العشر

أخي العزيز! إن سؤالك الأول الذي هو:

معلومٌ أن صغار الصحابة هم أعظمُ بكثير من أعظم الأولياء، فلماذا إذن لم يكشف الصحابةُ الكرام بنظر ولايتهم المفسدين المندسين في المجتمع، حتى سببوا استشهاد ثلاثة من الخلفاء الراشدين؟

جوابه: في مقامين اثنين:

المقام الأول

بتوضيح سر دقيق للولاية وبيانه تحل عقدة السؤال وهو أن ولاية الصحابة الكرام هي «الولاية الكبرى». ومنبعها وأصولها الأولى من وراثه النبوة، وطريقها: النفوذ من الظاهر إلى الحقيقة مباشرة، من دون المرور بطريق البرزخ. فهي ولاية متوجهة إلى انكشاف «الأقربية الإلهية» حيث إن طريق هذه الولاية رغم قصرها الشديد ساميةٌ وعاليةٌ جداً، حوارُها قليلة وكشوفاتها وكراماتها نادراً ما تظهر، إلا أن مزاياها وفضائلها عالية جداً. بينا كراماتُ الأولياء أغلبها ليست اختيارية. فقد يظهر منهم أمرٌ خارق للعادة من حيث لم يحتسبوا، إكراماً من الله لهم، وأغلبُ هذه الكشوفات والكرامات يظهر لهم أثناء فترة السير والسلوك وعند مرورهم في برزخ الطريقة. وحينما يتجردون -إلى حد ما- من حظوظ البشرية ينالون حالات خارقة للعادة.

أما الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فهم ليسوا مضطرين إلى قطع

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ﷺ؛ ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢١، ٢٢٢.

الدائرة العظيمة بالسير والسلوك ضمن الطريقة للوصول إلى الحقيقة، وذلك لتشرفهم بانعكاس أنوار الصحة النبوية الشريفة، فهم قادرون - بهذا السر - أن ينفذوا من الظاهر إلى الحقيقة بخطوة واحدة وفي جلسة واحدة. فمثلاً:

إن هناك طريقتين لإدراك ليلة القدر التي مضت ليلتها بالأمس وغدت ماضياً:

الأولى: معاناة الأيام يوماً بعد يوم سنة كاملة، لأجل الوصول إلى تلك الليلة المباركة مرة أخرى ومقابلتها وموافقتها. فلا بد من السير والسلوك وقطع سنة كاملة للظفر بهذه «القريبة الإلهية». وهذا هو مسلك معظم السالكين من أهل الطرق.

الثانية: انسلاخ الجسم المادي المقيّد بالزمان من غلافه، والتسامي روحياً بالتجرد، ورؤية ليلة القدر الماضية بالأمس مع ليلة العيد المُقبلة بعد يوم حاضرتين مائلتين كأنهما اليوم الحاضر، حيث إنّ الروح ليست مقيدة بالزمان. فحينما تسمو الأحاسيس الإنسانية إلى درجة رهافة الروح يتوسع ذلك الزمان الحاضر، ويطوي فيه الماضي والمستقبل، فتكون الأوقات الماضية والمستقبلية بالنسبة للآخرين بمثابة الحاضر بالنسبة إليه.

في ضوء هذا التمثيل، يكون العبور إلى ليلة القدر الماضية بالأمس، بالرقى إلى مرتبة الروح ومشاهدة الماضي كأنه الحاضر. وأساس هذا السر الغامض إنما هو انكشاف «الأقريبة الإلهية».

ولنوضح هذا بمثال:

إن الشمس قريبةٌ منا لأن ضياءها وحرارتها وصورتها تتمثل في مرآتنا التي في أيدينا، ولكن نحن بعيدون عنها. فلو أحسنا بأقربيتها من حيث النورانية، وأدركنا علاقتنا مع صورتها المثالية في مرآتنا، وعرفناها بتلك الوساطة، ولمسنا حقيقة ضيائها وحرارتها وهيئتها فإن أقربيتها تنكشف لنا لدرجة تُغرّينا بتكوين علاقة معها عن معرفة وقرب.

ولكن لو أردنا التقرب إليها والتعرّف عليها من حيث بُعدنا عنها، لاضطررنا إلى كثير جداً من السير الفكري والسلوك العقلي لنصعد فكراً بصحبة القوانين العلمية

إلى السماوات وتصور من ثمة الشمس متألقاً في فضاء الكون، ولا بد من الاستعانة بهذه القوانين والتدقيقات المطولة جداً لإدراك ما في ماهيتها من ضياء وحرارة وألوان سبعة. وبعد هذا كله قد نحصل على القربية المعنوية منها، بمثل التي حصل عليها الشخص الأول بتأمل يسير في مرآته.

وعلى غرار هذا المثال؛ فالنبوة، والولاية الموروثة عنها، متوجهتان إلى انكشاف «الأقربية الإلهية». أما سائر الولايات فإن معظمها تسلك على أساس «القربية الإلهية» فتضطر إلى السير والسلوك عبر مراتب عدة قبل بلوغها المقام المطلوب.

المقام الثاني

إنّ الذي كان وراء حوادث الفتن ليس هو عدداً قليلاً من اليهود كي يمكن حصرهم وإيقاف ذلك الفساد، وإطفاء تلك الفتن بمجرد كشفهم. إذ بدخول أقوام كثيرة متباينة إلى حظيرة الإسلام، تداخلت واختلطت تيارات متناقضة وغير متجانسة في باطنها مع عقيدة الإسلام. وبخاصة أولئك الذين أُصيب غرورهم القومي بالضربات القوية من يد سيدنا عمر رضي الله عنه. فكانوا يضمرون في نفوسهم الانتقامَ ويتربصون الفرصة له حيث أبطل دينهم السابق ودُمّر سلطانهم وأزيلت دولتهم التي كانت مدار افتخارهم وعزّهم؛ لذا فقد كانوا يحملون إحساساً بالانتقام شعورياً وغير شعوري من خلافة الإسلام. ولهذا قيل إن المنافقين الدساسين الأذكياء أمثال اليهود قد استغلوا تلك الحالة الاجتماعية.

أي أنّ مقاومة تلك الفتن وإزالتها هي بمواجهتها بإصلاح ذلك المجتمع وتنوير الأفكار المختلفة، وليس بكشف قلّة من المفسدين.

وإذا قيل: إن سيدنا عمر رضي الله عنه قد هتف من فوق المنبر بـ«سارية» أحد قواد سراياه وهو على بُعد مسيرة شهر منه بـ«يا سارية الجبل الجبل!»^(١) فهتافه هذا

(١) انظر: أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة ٣٥٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٥٥٣/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية ٧/١٣٠؛ ابن عدي، الكامل ٢/٤٤١-٤٤٢؛ العجلوني، كشف الخفاء ٢/٣٨٠ (رقم الحديث ٣١٧٢).

وتوجیہہ هذا أصبحا سبباً من أسباب نيل النصر في تلك المعركة. هذه الحادثة المشهورة تبين مدى نفاذ بصيرته الحادة.

والسؤال هو: لماذا لم تر تلك البصيرة بنظرها الثاقب قاتله «فيروز» الذي كان قريباً منه؟

الجواب: نجيب عن هذا السؤال بما أجاب عنه سيدنا يعقوب عليه السلام،^(۱) فقد سئل عليه السلام: كيف وجدت ریح يوسف عليه السلام من قميصه الذي في أرض مصر، ولم تره في الجُبِّ القريب منك في أرض كنعان؟

فأجاب عليه السلام: إن حالاتنا كالبرق الخاطف، يظهر أحياناً ويختفي أخرى، فنكون أحياناً كمن هو جالس في أعلى مقام ويرى جميع ما حوله، وأحياناً أخرى لا نرى ظهر أقدامنا.

والخلاصة: إنه مهما كان الإنسان فاعلاً ذا اختيار إلا أن المشيئة الإلهية هي الأصل، والقدرة الإلهية حاكمٌ مهيمٌ والمشية الإلهية ترد المشيئة الإنسانية، بمضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ۳۰) وإذا جاء القدر عمي البصر، فينفذ حكمه، وإذا ما تكلم القدر تسكت القدرة البشرية، ويصمت الاختيار الجزئي.

مضمون سؤالكم الثاني هو: ما حقيقة الوقائع التي دبت في صفوف المسلمين في عهد سيدنا علي رضي الله عنه؟ وماذا نسمي أولئك الذين ماتوا وقتلوا فيها؟

الجواب: إن «معركة الجمل» التي دارت رحاها بين سيدنا علي رضي الله عنه وجماعته من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، هي معركة بين العدالة المحضّة والعدالة الإضافية (النسبية). وتوضيحها كالآتي:

(۱) ژمرش بوی پیراهن شنیدی
بگفت: احوال ما برق جهان است
گهی بر طارم اعلیٰ نشینم

چرادرجاه کنعانش نیدی
دی پید اودیکر دمرهان است
گهی بریشت بای خود نبینم

(سعدی شیرازی، گلستان) (المؤلف)

لقد جعل سيدنا علي رضي الله عنه، العدالة المحضّة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم. وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده وبمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله. أما معارضوه فقد قالوا: إنّ صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهّدين لكي تنشر العدالة المحضّة سلطانها على المجتمع، إلا أن دخول أقوام متباينة الطباع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام بمرور الزمن، في هذا المجتمع أدّى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق العدالة المحضّة، فغدا تطبيقها صعباً، لذا فقد اجتهدوا على أساس من العدالة النسبية التي هي اختياراً لأهون الشرّين.

ولكن، لأن المنافسة حول هذين النوعين من الاجتهاد آلت إلى ميدان السياسة، فقد نشبت الحرب بين الطرفين. وحيث إن كلّ طرف قد توصل إلى اجتهاده بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ومصصلحة الإسلام، ونشبت الحرب نتيجة هذا الاجتهاد الخالص لله، فيصح أن نقول: القاتل والمقتول كلاهما من أهل الجنة، وكلاهما مأجوران مثابان، رغم معرفتنا أن اجتهاد الإمام علي رضي الله عنه كان صواباً وأن اجتهاد مخالفيه مجانبٌ للصواب. وهؤلاء المخالفون ليسوا أهلاً للعقاب الأخروي. إذ المجتهد لله إذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، أي أنه ينال ثوابً بذله الجهد في الاجتهاد، وهو نوع من العبادة، أي هو معذور في خطئه.

وقد قال أحد أعلام علمائنا المحققين ويُعدُّ قوله حُجّة، شعراً باللغة الكردية:

رِي شَرِّ صَحَابَانَ مَكَّةَ قَالُ وَقِيلَ لَوْرَا جَنِّيْتَه قَاتِلُ وَهَمْ قَتِيلٌ (١)

أي لا تخض فيها وقع بين الصحب الكرام؛ لأن القاتل والمقتول كليهما في الجنة. أما إيضاح الفرق بين العدالة المحضّة والعدالة الإضافية فهو: إنّ حق الشخص البريء الواحد لا يبطل لأجل الناس جميعاً، أي أن حقه محفوظ،

(١) في نهج الأنام للأستاذ الأوحدي الملا خليل العمري السعدي ص ١٨ :

زَحْرًا صَحَابَانَ مَكِّنَ قَالَ وَقِيلَ بِهِشْتِيَه هَمْ قَاتِلُ وَهَمْ قَتِيلُ

وهذا المعنى هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) فلا يُضَحَّى بفردٍ واحد لأجل الحفاظ على سلامة الجميع؛ إذ الحق هو حقٌّ ضمن إطار الرحمة الإلهية، فلا يُنظر إلى كونه صغيراً أو كبيراً، لذا لا يُفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فردٍ وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضی في الأمر. أما إذا كانت التضحية برضاه ورغبةً منه فهي مسألة أخرى.

أما العدالة الإضافية فهي أن الجزء يُضحَّى به لأجل سلامة الجميع، فهذه العدالة لا تأخذ حق الفرد بنظر الاعتبار لأجل الجماعة، وإنما تحاول القيام بنوع من عدالة إضافية من حيث الشر الأهون. ولكن إذا كانت العدالة المحضنة قابلة للتطبيق فلا يُصار إلى العدالة الإضافية، وإن صار إليها فقد وقع الظلم. فالإمام علي رضي الله عنه قال: إن العدالة المحضنة قابلةٌ للتطبيق، كما كان عليه في عهد الشيخين. لذا حاول بناء الخلافة الإسلامية على تلك القاعدة من العدالة المحضنة. بينما معارضوه كانوا يقولون إن هذه العدالة المحضنة غيرُ قابلة للتطبيق، حيث هناك عوائقٌ ومشكلات كثيرة تظهر أثناء تطبيقها، فصار اجتهادهم إلى العدالة الإضافية.

أما ما أورده التاريخ من أسباب أخرى فهي ليست أسباباً حقيقية، بل حجج ومبررات واهية.

فإن قلت: لِمَ لَمْ يُوفَّق الإمام علي رضي الله عنه بمثل ما وُفق أسلافه في إدارة دفة الخلافة رغم اتصافه - من هذه الناحية - بقابليات فائقة وذكاء خارق، ولياقة تامة جديرة بمنصب الخلافة؟

الجواب: إن الإمام علياً كان حريئاً ومؤهلاً للقيام بمهماتٍ جسام تفوق أهمية السياسة والحكم، إذ لو كان التوفيق تاماً له في السياسة والحكم لما كان يحرز لقب «سيد الأولياء» بجدارة تامة، ذلك المقام المعنوي الذي هو أهلٌ له بحق. فظفر بسلطنة معنوية

وبحكم معنوي أرقى بكثير من خلافة سياسية ظاهرية. حيث أصبح بمثابة أستاذ الجميع، وغدا حُكْمُه المعنوي سارياً وماضياً إلى يوم القيامة.

أما ما وقع من حرب بين الإمام علي رضي الله عنه وسيدنا معاوية رضي الله عنه وأنصاره في واقعة «صفين» فهي حرب بين الخلافة والسلطنة -الملك الدنيوي- أي أن الإمام علياً رضي الله عنه قد اتخذ أحكام الدين وحقائق الإسلام والآخرة أساساً، فكان يُصَحِّي بقسم من قوانين الحُكْم والسلطنة وما تقتضيه السياسة من أمور فيها إجحاف، في سبيل الحقائق والأحكام. أما سيدنا معاوية ومن معه، فقد التزموا الرخصة الشرعية وتركوا الأخذ بالعزيمة، لأجل إسناد الحياة الاجتماعية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة. فعدّوا أنفسهم مضطرين في الأخذ بهذا المسلك في عالم السياسة. لذا رجّحوا الرخصة على العزيمة، فوقعوا في الخطأ.

أما مقاومة الحسن والحسين رضي الله عنهما للأمويين، فهي في حقيقتها صراع بين الدين والقومية، إذ اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقوية الدولة الإسلامية، وقدّمواهم على غيرهم، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام فأضروا من جهتين:

الأولى: آذوا الأقوام الأخرى بنظرتهم هذه، فولّدوا فيهم الكراهية والنفور.

الثانية: إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحاكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأثى له أن يبلغ العدالة! بينما الإسلام يجب ما قبله من عصبية جاهلية، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلم. (١) فلا يمكن إقامة رابطة القومية بدلاً من رابطة الدين في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قط وإنما تُهدر الحقوق ويضيع الإنصاف.

وهكذا فإن سيدنا الحسين رضي الله عنه قد تمسك برابطة الدين، وهو مُحَقَّق في ذلك، لذا قاوم الأمويين حتى رُزق مرتبة الشهادة.

(١) انظر حول العصبية: مسلم، الأمانة ٥٣-٥٤؛ أبو داود، الأدب ١١١؛ ابن ماجه، الفتن ٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/٤٨٨.

وإذا قيل: لِمَ لم ينجح سيدنا الحسين رضي الله عنه في مسعاه رغم أنه كان على حقّ و صواب؟ وكيف سمحت الرحمة الإلهية والقدر الإلهي أن تكون عاقبته وعاقبة آل بيته فاجعة أليمة؟

الجواب: إذا استثنينا المقرّبين من سيدنا الحسين رضي الله عنه، نجد أن الأقسام المختلفة الذين التحقوا بهم هم ممن أُصيب غرورهم القومي بجروح بيد العرب المسلمين، فهم يضمرون ثأراً تجاههم، مما كدّر صفاء النية ونقاءها التي كان يتحلّى بها مسلك الحسين ومن معه، وأدى تعكّر ذلك الصفاء وخفوت سطوع ذلك النهج القويم إلى تقهقرهم أمام أولئك.

أما حكمة تلك الحادثة المؤلمة من زاوية نظر القدر الإلهي فهي:

إن الحسن والحسين رضي الله عنهما وذويهما ونسلهما كانوا مرشحين لسلطنة معنوية ومؤهلين لتسّم مرتبة سامية معنوية. ولما كان الجمع بين سلطنة الدنيا وتلك السلطنة المعنوية من الصعوبة بمكان، لذا جعلهم القدر الإلهي يُعرضون عن الدنيا، وأظهر لهم وجه الدنيا الدميم، لئلا تبقى لهم علاقةً قلبية مع الدنيا، ودفعهم إلى أن ينفضوا أيديهم من سلطنة صورية دنيوية مؤقتة زائلة، بينما عيّنهم لتسّم الأمور لدى سلطنة معنوية سامية دائمة، فأصبحوا مرجعاً لأقطاب الأولياء بدلاً من أن يكونوا مرجعاً للولاة الاعتياديين.

أما سؤالكم الثالث الذي هو ما الحكمة في المصيبة الأليمة والمعاملة الظالمة التي أصابت أولئك الطاهرين الميامين؟.

الجواب: لقد بيّنا سابقاً أن هناك ثلاثة أسس كان معارضو سيدنا الحسين رضي الله عنه وهم الأمويون يسرون عليها والتي أدت إلى ارتكاب تلك المظالم والمعاملات القاسية:

الأول: هو دستور السياسة الظالم ومؤداه؛ أن الأشخاص يُضحّى بهم في سبيل الحفاظ على الدولة واستتباب النظام في البلاد.

الثاني: كانت دولتهم تستند إلى القومية والعنصرية، وكان الحاكم المهيمن على الأمور قانوناً القومية الظالم وهو: «كل شيء يُضحى به في سبيل الحفاظ على سلامة الأمة».

الثالث: تأصل عرقُ المنافسة لدى الأمويين منذ مدة طويلة تجاه الهاشميين، فظهر في «يزيد» وأمثاله. مما سبب تفجّر استعدادات ظالمة قاسية لا رحمة فيها ولا رأفة.

وهناك سبب رابع وهو الذي يخص الذين انضموا إلى صف سيدنا الحسين رضي الله عنه، وهو أن اعتماد الأمويين على قومية العرب وحدهم في إدارة شؤون الدولة، ونظرتهم المتعالية على سائر الأقسام كأنهم عبيد لديهم وتسميتهم بالموالي، أصاب غرور أولئك، مما دفعهم إلى الالتحاق بصف سيدنا الحسين، وهم يحملون نيةً غير خالصة لله. وهي نية أساسها دافع الثأر. هذا الأمر هيج العصبية القومية لدى الأمويين فأدى بهم الأمر إلى ارتكاب تلك الفاجعة الأليمة التي لا تجد فيها رحمة ولا عطفاً ولا رأفة.

هذه الأسباب الأربعة المذكورة: هي أسباب ظاهرية. إلا أننا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية القدر الإلهي نجد أن سيدنا الحسين وذويه رضي الله عنهم قد أحرزوا نتائج أخروية وسلطنةً روحية ورقياً معنوياً، من جراء تلك الفاجعة الأليمة، بحيث تكون تلك الآلام والصعوبات التي لاقوها في تلك الحادثة الأليمة زهيدةً ويسيرة تجاه تلك المنازل الرفيعة التي حظوا بها. فمثلاً:

إن الذي يستشهد نتيجة تعذيب يستغرق ساعة يغنم من المراتب العالية والدرجات السامية للشهادة ما لا يمكن أن يحصل عليها من يسعى بجهد متواصل خلال عشر سنين. فلو سئل ذلك الشهيد بعد فوزه بدرجة الشهادة عن ذلك التعذيب لأجاب: لقد فرتُ كثيراً جداً بشيء يسير جداً.^(١)

التفكر في الأخبار الغيبية

يعتقد بعض الناس أن ما يحدث على سطح هذا الكون، هو من صنع الأحداث والأسباب، دون التفكير والتدبر لحظة في خالق الأسباب وموجدّها، وأن ما يجري هي نتيجة لحسن الحظ والتخطيط أو ما يضادهما، أي نتيجة سوء الحظ وعدم التخطيط جيداً.

ولكن القارئ للقرآن الكريم والسنة النبوية، يعلم أن تدبير الله وقدرته وعلمه وحكمته ومشيتته.

هي تحدد مسار الأحداث على سطح هذا الكون حسب حاجة الناس وما يصلح لهم، وتتلاقى مع اختيار الإنسان وما يسعى له.

ومن خلال قرأتي للأخبار الغيبية التي قام الإمام النورسي بسردها، وهي أخبار نطق بها الصادق الأمين الذي قال في حقه ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤)

والرسول ﷺ أكد أنه مبلغ ليس أكثر ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ ﴾ (الأنعام: ٥٠)

وعلى الرغم من كثرة الآيات التي تبين محبة الله لرسوله، وعظمة منزلته عنده، وقربه منه، إلا أن ربنا يؤكد ويبريء حبيبه محمد ﷺ بأنه لا يستطيع أن يقول شيئاً غير ما يوحى إليه. قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٥)

ويتبين لنا من خلال قراءة هذه الأحاديث بصدق، وعقلانية، وضمير يقظ، وإيمان صادق، أن ما يطرح من قضايا خلافية، كقضية الحروب بين الصحابة الأجلاء، وقضية الإمامة، وغيرها من القضايا التي نتنازع عليها وحولها، ليس لنا أمام هذا كله إلا التسليم، وعدم الطعن في أحد، أو التهجم على شخص لمناصرة شخص آخر.

لأن الأمور الغيبية التي أخبر الصادق المصدوق بوقوعها، وقعت بالفعل، وهذا يدل دلالة أكيدة على صدق رسالة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وأصحابه إلى يوم الدين، والخلاف علي كل ما يتعلق بهذه الأخبار، أو التحيز لجزء والنصرة له بالهجوم على الأجزاء المتبقية، هو نوع من التشكيك، وعدم الصدق، ونقص في الإيمان بما أخبر به النبي العدنان.

ولا أظن مسلماً شهد بالوحدانية وبرسالة سيدنا محمد، وتعلق قلبه بمحبته، أن يُكذب شيئاً مما نطق به الصادق الأمين، ولكن أرجع ذلك إما لعدم إطلاعه على هذه النصوص النبوية، أو أنه اطلع عليها ولكنه لم يفهمها ولم يستوعب أبعادها ومعانيها والحكمة منها، وذلك ناتج إما من تعصب، أو جهل، أو فقدانه للتبصر والبصيرة.

لهذا أثرت أن أقوم بسرد ما أورده الإمام النورسي من أحاديث نبوية، نطق بها لسان نبينا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، لكي تكون العلاج لما سيصيب الأمة، والكاشف عما لا تصل إليه عقولنا القاصرة، والمدافع والناصر لكل طرف من آل بيته وصحابته وأمتة يُقذف بالإتهام والإفراء.

وهذه الأحاديث تخص الحوادث المتعلقة بأمور غيبية، نذكر منها بضعة أمثلة كما وردت في رسائل النور:

قال رسول الله ﷺ في خطبة بين جمع من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ونقل إلينا الحديث نقلاً صحيحاً ومتواتراً: «إن إبنی هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللهُ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١) وفي رواية: «عظيمنتين».

وبعد مرور أربعين سنة التقى جيشان عظيمان للمسلمين، فصالح الحسن معاوية رضى الله عنهما، وصدّق بهذا الصلح المعجزة الغيبية لجده الأجدد ﷺ.

(١) رواه البخاري عن أبي بكرة في كتاب الصلح (٢٤٤/٣) وفي علامات النبوة (٢٤٩/٤) وفي المناقب. ورواه الترمذي في المناقب وقال: حسن صحيح (تحفة الاحوذى ١٠/٢٧٧-٢٨٨) ورواه النسائي في الجمعة، وأحمد في مسنده (٣٧/٥)، ٤٤، ٤٩، ٥١، ٣٥٤، ورواه الطيالسي (برقم ٨٧٤) وأبو داود (٢/٥١٩-٥٢٠) باب ترك الكلام في الفتنة.

* ثبت بنقل صحيح أنه ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: ستقاتل الناكثين^(١) والقاسطين والمارقين^(٢). فأخبر عن، وقعة الجمل وصفين، وعن الخوارج.

* وقال ﷺ للزبير: «لتقاتلنّه وأنت ظالمٌ له»^(٣) عندما رآه وعلياً يتحابان.

* وقال ﷺ لأزواجه الطاهرات: «كيف بأحدكن تنبح عليها كلاب الحوآب»^(٤) «يقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثيرة..»^(٥).

وبعد ثلاثين سنة، تحققت هذه الأحاديث الصحيحة فعلاً، وذلك في وقعة الجمل، التي جرت بين عليّ وعائشة ومعها الطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين. كما تحققت في وقعة صفين التي جرت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وقد تحققت في وقعة حروراء ونهروان، التي كانت بين علي رضي الله عنه والخوارج.

* وأخبر ﷺ علياً عن الذي يقتله فقال: «الذي يضربك يا عليّ على هذه حتى تبلّ منها هذه»^(٦) أي تبلّ لحيته من دم رأسه، وكان عليّ يعرفه، وهو عبد الرحمن بن ملجم الخارجي.

- (١) (الناكثين): الذين نكثوا البيعة. (القاسطين): وهم الخوارج الذين مرقوا من الدين. (حوآب): قرية فيها الماء في طريق الذهاب من المدينة إلى البصرة.
- (٢) «عن علي قال: عهد لي رسول الله ﷺ في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين» وفي رواية: «أمرتُ بقتال الناكثين» فذكره، رواه الزبار والطبراني في الاوسط، وأحد إسنادي الزبار رجاله رجال الصحيح، غير الربيع بن سعيد ووثقه ابن حبان (مجمع الزوائد للهيتمي ٢٣٨/٧) وأورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (رقم ٤٤٦٣، ٤٤٦٢) وعزاه لأبي يعلى.
- (٣) أوردته ابن كثير في البداية والنهاية (٢١٣/٦) وقال: رواه البيهقي من طريق الهذيل بن بلال وفيه ضعف. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي حريز المازني وقال: رواه أبو يعلى، وفيه عبد الملك بن مسلم، قال البخاري: لم يصح حديثه (٢٣٥/٧). وانظر شرح الشفا لعلي القاري (١/٦٨٦-٦٨٧) وفيه: رواه البيهقي في دلائل النبوة من طرق، وفي المطالب العالية لابن حجر بالفاظ أخرى وبإسناد أخرى متقاربة (رقم ٤٤٧٠، ٤٤٧٥، ٤٤٧٦).
- (٤) حديث صحيح: رواه أحمد وغيره عن يحيى بن سعيد وغيره، ولفظ يحيى: قال: «لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً، نبحت الكلاب، قالت: أي ماء هذا؟ قالوا ماء الحوآب، قالت: ما اظنني إلا أني راجعة، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فإراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم، قالت: ان رسول الله ﷺ قال لها ذات يوم: كيف بأحدكن تنبح عليها كلاب الحوآب.. الخ، والحديث من أصح الأحاديث، ولذلك تتابع الأئمة على تصحيحه قديماً وحديثاً (مختصراً من سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٧٥)..»
- (٥) حديث صحيح: قال الهيثمي (٢٣٤/٧) رواه الزبار، رجاله ثقات، وكذا قاله الحافظ في الفتح (١٣، ٤٥) وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤/٢٩٧) بسياق قريب، ورمز المحقق لصحته وقال: قال البوصيري: رواه ابن أبي شيبه ورواته ثقات. اهـ. والبوصيري هذا هو غير الإمام البوصيري صاحب البردة.
- (٦) حيث صحيح: روى الطبراني والحاكم عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ قال: «الأحدثكم بأشقى =

* وأخبر كذلك عن ذي الثدية بعلامة فارقة فيه، أنه سيكون بين قتلى الخوارج، وفعلاً كان ذو الثدية فيهم، وهو «رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة» فجعله عليّ حجةً على أنه المُحِقُّ، وأعلن عن معجزة الرسول الأكرم ﷺ^(١).

* وأخبر ﷺ برواية صحيحة، عن أم سلمة وغيرها: أن الحسين يُقتل بالطفّ^(٢) أي في كربلاء. وبعد خمسين سنة وقعت تلك الفاجعة الأليمة، فصدقت ذلك الإخبار الغيبي.

* وأخبر ﷺ: «أن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً»^(٣) فكان كما أخبر. * وكذا أخبر عن فرق كثيرة، إذ ثبت أنه قال لعلي ما معناه: إن مثلك مثل عيسى عليه السلام، ستكون سبباً في هلاك فئتين من الناس: إحداهما من فرط المحبة، والأخرى من فرط العداوة^(٤).

=الناس، رجلين؟ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه، حتى تبل منها هذه» (صحيح الجامع الصغير برقم ٢٥٨٦ قال المحقق: صحيح). أما معرفة علي لقاتله فانظر المجمع (٩/ ١٣٨) قال الهيثمي: رجاله ثقات، وعزاه لأبي يعلى، وأورده الحافظ في المطالب (٤٥١٣) ورمز المحقق لثبوته

(١) روى البخاري (٤/ ٢٤٣) ومسلم (٢/ ٧٤٤ - ٧٤٥) عن أبي سعيد الخدري: قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أنه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله أعدل. فقال: «ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» فقال عمر: أئذن لي أن اضرب عنقه، فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله إلى رصافه إلى نفيه وهو قدحه، إلى كذذه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرت والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدر، ويخرجون على خير فرقة من الناس» قال أبو سعيد: اشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ واشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس، فأتى به، حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعتته.

(٢) حديث صحيح: أورده الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن أم سلمة أو عائشة، قال المحقق: اسناده صحيح، (١٣٥٧) قال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨٧) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وانظر المسند (٦/ ٢٩٤) وأخرجه الطبراني (٣/ ١١٣) عن عائشة بدون شك واسناده صحيح، أما ما ورد بأن قتله بالطفّ فقد أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ١٨٨) ويشهد له ما أخبر به ﷺ وحده بكونه على شاطئ الفرات وفي كربلاء، فهذا ثابت باحاديث صحيحة، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢١٧) وفضائل الصحابة (١٣٩١).

(٣) جزء من حديث أخرجه الحاكم ٤/ ١١٦. وقال الذهبي: هذا موضوع، والذي ثبت في الحديث الصحيح الذي بمعناه ما رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «أول الناس هلاكاً قریش، وأول قریش هلاكاً أهل بيتي» (صحيح الجامع الصغير ٢٥٥٨ قال المحقق: صحيح) وأنظر (سلسلة الاحاديث الصحيحة ١٧٣٧) وانظر بن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة (٢/ ٥٢٧، ٦٥٨) وابن ماجه في الفتن (٣٤) وابن أبي شيبه في المصنف (٧/ ٥٢٧).

(٤) أنظر: مسند أحمد بن حنبل (١/ ١٦٠) والبخاري: التاريخ الكبير (٣/ ٢٨١) والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ١٣٧)

حيث أفرط النصارى في حب عيسى عليه السلام، حتى تجاوزوا الحد المشروع فيهلكون.

وقالوا: إنه ابن الله - حاش لله -

واليهود أيضاً أفرطوا في العداوة له، فأنكروا نبوته ومنزلته الرفيعة.

وكذلك سيفرط فريق من الناس في الحب لك، ويتعدون الحدَّ المشروع فيهلكون، إذ قال ﷺ في حقهم: «لهم نَبْزٌ يُقال لهم الرفضة»^(١).

وفريق آخر سيفرطون في العداة لك وهم: الخوارج، وقسم من المغالين في موالة الأمويين وهم: الناصبة.

هنا يرد سؤال مهم:

يُقال: إن علياً رضي الله عنه كان أحرى بالخلافة وأولى بها، فهو ذو قرابة مع النبي ﷺ، وذو شجاعة نادرة خارقة، وذو علم غزير.. فلماذا لم يُقدّمه في الخلافة؟ ولماذا اضطربت أحوال المسلمين في عهده؟.

الجواب: لقد قال قطبٌ عظيم من آل البيت: كان الرسول ﷺ قد تمنى أن يكون عليّ هو الخليفة، ولكن أعلم من الغيب أن إرادة الله غير هذا، فتخلى عن رغبته تبعاً لما يريد الله سبحانه وتعالى.^(٢)

وفيا يأتي حكمة واحدة مما تنطوي عليه إرادة الله تعالى في هذا الأمر:

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أحوَج إلى الاتفاق والاتحاد بعدما ارتحل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فلو كان عليّ رضي الله عنه قد تولّى الخلافة، لكان هناك احتمالٌ قوي أن تثير أطواره المتسمة بعدم مسaire الآخرين واستقلالية آرائه، مع زهده الشديد وبسالته النادرة واستغنائه عن الناس، فضلاً عن شجاعته الفائقة،

(١) أنظر: العجم الأوسط للطبراني (٦/ ٣٥٥) وابو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٢٩) وأحمد بن حنبل في مسنده (١٠٣/١)

(٢) انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ١١/ ٢١٣؛ ابن عساکر، تاريخ دمشق ٤٥/ ٣٢٢.

فتحرّك - هذه المزايا - عرق المنافسة لدى كثير من الأشخاص والقبائل، فتنجم الفرقة بين صفوف المسلمين، مثلما حدث في عهد خلافته من حوادث وفتن.

أما سبب تأخر خلافة علي رضي الله عنه فإن أحد أسبابه هو ما يأتي:

لقد هبّت أعاصيرُ الفتن في أوساط أمة الإسلام التي تضم أقواماً متباينةً في الفكر والتي يحمل كلُّ منها بذورَ الفرقة إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، مثلما أخبر بذلك الرسول ﷺ،^(١) فكان ينبغي وجودَ شخصيةٍ قوية فذة، مهيبه الجانب، ذات شجاعة فائقة وفراسة نافذة ونسبٍ عريق أصيل من أهل البيت ومن بني هاشم، كي يثبت أمام هذه الفتن. فمثل هذه الشخصية الفذة، كانت تتمثل في علي رضي الله عنه، فثبت فعلاً أمام تلك الأعاصير الهوجاء.. ولقد أخبره الرسول ﷺ بذلك أنه سيحارب في سبيل تأويل القرآن كما حارب هو ﷺ في سبيل نزوله.^(٢) ثم إنه لولا علي رضي الله عنه لربما كانت سلطنة الدنيا تعصف بالأمويين وتفتنهم كلياً، وتزلّهم عن الصراط السوي، ولكن لأنهم كانوا يرون إزاءهم علياً وآل البيت، فقد حاولوا أن يبلغوا شأوهم ويوازوهم في مكانتهم لئلا يفقدوا منزلتهم في نظر الأمة، فاضطر أغلب رؤساء الدولة الأموية إلى حصّ أتباعهم على القيام بحفظ حقائق الإيمان ونشرها وصيانة أحكام القرآن والإسلام رغم أنهم لم يفعلوا شيئاً بأنفسهم، لذا نشأت في ظل دولتهم مئات الألوف من العلماء المحققين المجتهدين وأئمة الحديث والأولياء الصالحين والأصفياء والعاملين، فلولا كمالات يتصف بها آل البيت وصلحهم وولايتهم لله لزلّ الأمويون وابتعدوا كلياً عن طريق الصواب، كما آل إليه أمرهم في أواخر أيامهم، وكما حدث في أواخر أيام العباسيين.

وإذا قيل: لماذا لم تستقر الخلافة في آل البيت، علماً أنهم كانوا أحقّ بها؟

الجواب: إن سلطنة الدنيا خداعة، بينما أهل البيت مكلفون بالحفاظ على حقائق الإسلام وأحكام القرآن. وينبغي لمن يتسلّم زمام الخلافة ألا تغرّه الدنيا، كأن يكون معصوماً كالنبي، أو يكون عظيم التقوى عظيم الزهد كالخلفاء الراشدين

(١) انظر: الترمذي، الإيمان ١٨؛ أبو داود، السنة ١؛ ابن ماجه، الفتن ١٧؛ الدارمي، السير ٧٥.

(٢) انظر: الديلمي، المسند ١/٤٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/٣١، ٨٢؛ السنن الكبرى ٥/١٥٤.

وعمر بن عبد العزيز والمهدي العباسي لثلاثين عامًا. فسلطنة الدنيا لا تصلح لآل البيت، إذ تُنسيهم وظيفتهم الأساس؛ وهي المحافظة على الدين وخدمة الإسلام. وخلافة الدولة الفاطمية التي قامت باسم آل البيت في مصر، وحكومة الموحدين في أفريقيا، والدولة الصفوية في إيران، كلٌ منها غدت حُجَّةً على أن سلطنة الدنيا لا تصلح لآل البيت. بينما نراهم متى ما تركوا السلطنة، فقد سعوا سعيًا حثيثاً وبدلوا جهداً منقطع النظر في خدمة الإسلام ورفع راية القرآن.

فإن شئت فتأمل في الأقطاب الذين أتوا من سلالة الحسن رضي الله عنه، ولاسيما الأقطاب الأربعة، وبخاصة الشيخ الكيلاني. وإن شئت فتأمل في الأئمة الذين جاءوا من سلالة الحسين رضي الله عنه، ولاسيما زين العابدين و جعفر الصادق وأمثالهم.. فكلٌ من هؤلاء قد أصبح بمثابة مهديٍّ معنوي، بددوا الظلم والظلمات المعنوية بنشرهم أنوار القرآن وحقائق الإيمان، وأثبتوا حقاً أنهم وارثو جدِّهم الأجد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فإن قيل: ما حكمة تلك الفتنة الدموية الرهيبة التي أصابت الأمة الإسلامية في عصر الراشدين وخير القرون، حيث لا يليقُ بأولئك الأبرار القهْر ونزولُ المصائب وأين يكمن وجهُ الرحمة الإلهية فيها؟

الجواب: كما أن الأمطار الغزيرة المصحوبة بالعواصف في الربيع تثير كوامنَ قابليات كلِّ طائفة من طوائف النباتات وتكشفها فتتشر بذورَ وتُطلق النوى، فتفتح أزهارها الخاصة بها، ويتسلم كلٌّ منها مهمته الفطرية، كذلك الفتنة التي ابتلي بها الصحابة الكرام والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين، أثارَت بذورَ مواهبهم المختلفة، وحفّزت نوى قابلياتهم المتنوعة، فأندرت كلَّ طائفةٍ منهم وأخافتهم من أن الخطر مُحْدِقٌ بالإسلام، وأن النار ستشيب في صفوف المسلمين؛ مما جعل كلَّ طائفةٍ تهرع إلى حفظ الدين والدود عن حياض الإيمان، فأخذ كلٌّ منهم على عهده مهمةً من مهمات حفظ الإيمان وجمع شمل الإسلام، كلٌّ حسب قابليته، فانطلق بكلِّ جدٍّ وإخلاص

في هذه السبيل. فمنهم من قام بحفظ الحديث النبوي الشريف، ومنهم من قام بحفظ فقه الشريعة الغراء، ومنهم من قام بحفظ العقائد والحقائق الإيمانية، ومنهم من قام بحفظ القرآن الكريم.. وهكذا انصوت كل طائفة تحت مهمةٍ وواجب من الواجبات التي يفرضها حفظُ الإيمان وصيانةُ الإسلام، وسَعَتْ في سبيل أداء مهمتها سعياً حثيثاً، فتفتحت من البذور التي نشرتها تلك الأعاصيرُ الهوجاء العنيفة في الأرجاء، زهورٌ بهيجةٌ بألوان زاهية شتى في عالم الإسلام، حتى غدا العالم الإسلامي رياضاً يانعةً بالورود والرياحين. إلا أنه -للأسف- ظهرت بين تلك الرياض البديعة أشواكُ أهل البدع أيضاً. وكأن يد القدرة الإلهية قد خضت ذلك العصر بجلال وهيبة، وإدارته بشدة وعنق، فأثارت الهمم وألهمت المشاعر لدى أهل الهمة والغيرة، فبعثت تلك الحركة المنطلقة عن المركز؛ كثيراً من أئمة المجتهدين والمحدثين والحفاظ والأصفياء والأقطاب والأولياء إلى أنحاء العالم الإسلامي وألجأتهم إلى الهجرة. وهيجت المسلمين شرقاً وغرباً وفتحت بصيرتهم ليغنموا من كنوز القرآن وخزائنه.

فإن قيل: إن القرآن الكريم يأمر بحب آل البيت، وقد حث النبي ﷺ على ذلك، فلربما يشكّل هذا الحب عُذراً، حيث إن أهل الحب أهل انتشاء وسكر -أي ذاهلون- فلم لا تتنفع الشيعة ولا سيما الرافضة من هذا الحب ولا ينقذهم من العذاب، بل نرى العكس من ذلك فإنهم يُدانون من فرط الحب كما أشار إليه الحديث الشريف؟!.

الجواب: إن الحب قسمان

أحدهما: حُبٌّ (بالمعنى الحرفي) وهو حب عليّ والحسن والحسين وآل البيت محبةً لله وللرسول وفي سبيلهما. فهذا الحب يزيد حبّ الرسول ﷺ ويكون وسيلة لحب الله عز وجل. فهذا الحب مشروع، لا يضر إفراطه، لأنه لا يتجاوز الحدود ولا يستدعي ذم الغير وعداوته.

وثانيهما: حُبٌّ (بالمعنى الإسمي) وهو حُبُّهم حباً ذاتياً، ولأجلهم، أي حب عليّ من أجل شجاعته وكمالته، وحب الحسن والحسين من أجل فضائلهما ومزاياهما الكاملة

فحسب، من غير تذكّر للنبي ﷺ، حتى إنّ منهم من يحبهم ولو لم يعرف الله ورسوله. فهذا الحب لا يكون وسيلةً لحب الله ورسوله. وإذا ما كان في هذا الحب إفراط فإنه سيُفضي إلى ذم الغير وعداوته.

وهكذا أفرط منهم - كما ذكر في الحديث الشريف - في الحب لعليّ وتبرأوا من أبي بكر وعمر، فوقعوا في خسارة عظيمة. فكان هذا الحبّ السلبي - غير الإيجابي - سبباً لخسارتهم.^(١)

(١) النورسي: الكتابات، ص ١٣٠-١٤١.

الفتن الطائفية وآثارها على العالم الإسلامي ومستقبله

لعل السياسة أو السياسة الخطط والأهداف التي ترسمها الدول لتحقيق أهدافها ومطامعها لا ينتظر منها أي خير، ما دامت منفصلة كلياً عن أي وازع إيماني أو أخلاقي، وسياستها مؤسسة على الظلم والقهر والاستبداد، ورفضها إتاحة أي مساحة للعدل والحرية والمساواة.

ولعل الناظر في مجريات الأحداث على مستوى العالم، يجد أن السياسة المعادين للإسلام والمسلمين، أصبحوا (منذ زمن بعيد) يعملون بمنهجية، على تحديد وتوسيع وتغذية دوائر العنف، من تشريد، وتخريب، وتفجيرات و اغتيايات (أبرزها الاغتيالات السياسية) وتمويل من يقوم بالتنفيذ، بالمعدات والأموال والمساندة والتأييد.

وهذا ما جعل الإمام محمد عبده، يصور السياسية بأنها آلهة الشر، فيقول: «وتمخضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع، وغيروا خلق الله، وكانوا على ذلك قادرين»^(١).

وهذا ما جعله يستعيد بالله من السياسة كما استعاذ النورسي منها بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة»^(٢).

ولعلنا نلاحظ أن النورسي قدم الإستعاذة بالله من الشيطان أولاً، ثم تلاها بالسياسة، وهذا يبين لنا: أن السياسة التي يرفضها، ويرفض السير في ركبها، هي السياسة التي جعلت من الشيطان قائداً ومرشداً وأستاذاً لها، ذلك الشيطان الغربي الذي عشعش في عقول الساسة اللقطاء، فباض الفتنة والنفاق والشقاق والتأمر على الإسلام، وفرخ المأجورين المخربين.

(١) السيد يوسف: الإمام محمد عبده رائد الإجهاد، ص ٦٤، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٧م، القاهرة.

(٢) النورسي: المكتوبات، ص ٣٤٦، ٦١.

لهذا رفض النورسي هذه السياسة، أو العمل من خلالها، أو السير في ركابها، لأنها تولد العنف وتدمر إنسانية الإنسان، ولأنها من وجهة نظره: تمثل سياسة الوحش المفترس، الذي يلهث وراء منافعه، فيقول: «إن السياسة الحاضرة الدائرة على المنافع وحش رهيب، فالتودد إلى وحش جائع لا يدر عطفه، بل يثير شهيته ثم يعود فيطلب منك أجرة أنيابه وأظافره».^(١) وحيث تشتد حاجة الأمة إلى اتحاد الصفوف والتماسك، وإشاعة روح التفاهم والتعاون على البر والتقوى، وبند التعاون على الإثم والعدوان.

الإسلام دين الوحدة، كما هو دين التوحيد، وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالوحدة والأخوة والتآلف والتآزر، لأن ذلك رحمة تصونهم وتقوى أو اصبرهم.

وبالمقابل فقد نهى الله تعالى عن الفتنة ونبه من مخاطرها وشرورها.

فالفتنة مذمومة، وشرها مستطير بنص القرآن الكريم، قال تعالى ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ١٩١)

كما حذر الرسول ﷺ من الفتنة، لأنها تهدد وحدة المجتمع واستقراره وتراحم أهله، وقد وردت أحاديث عديدة في ذم الفتنة.

كما ورد عن الإمام على رضى الله عنه في نهج البلاغة وهو تلميذ رسول الله ﷺ قوله: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا على غير الله».

وفي موضع آخر: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة»

وفي خطبة أخرى: «إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت، ينكرون مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حوم الرياح، يصبن بلدا ويخطئن بلدا».

وهو أن الفتن تسلب الرؤية الموضوعية والاعتدال حتى من أصحابها.

(١) النورسي: الكلمات، ص ٨٥٠.

فهذا التحذير من الفتن جاء يبين مخاطر الفتنة، وأن خطرها وأثرها على الفرد والمجتمع، أكثر إيلاماً من وقع السيف القاطع، وأن الفتنة صماء بكماء عمياء، أي أنها ظلمة وجهل.

لأن الفتنة نزعة شيطانية لا تنسجم مع الوعي والحكمة، وتؤدي إلى الفرقة والهلاك، وذهاب الريح والقوة، وجلب الخذلان والخوار والذلة، قال تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦)

فالكل معرض للاختبار، فمن تأصل يقينه، ورسخ إيمانه فاز، ومن اخترق الشيطان قلبه وفكره أودى به ذلك إلى شرور، شررها يتطاير فيحرقه مع من حوله.

ومعالجة الفتن لا تكون بغير الإيمان، الإيمان العاصم من الشرور، وفي سماحة الدين والرحمة الدواء الناجح الذي يطفى الفتن والحروب، وينشر الفضيلة، التي تعطل مفاعيل المفسد، قال تعالى ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة: ٦٤).

وهذه الآية تذكرني بما فعله شاس بن قيس، ذلك الشيخ العتي في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الحقد والكراهية والحسد على المسلمين، فحين رأى وحدة المسلمين وتجمعهم على قلب رجل واحد، وما رآه من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فهل فرح لذلك وأنشرح صدره؟ كلا.

بل طرح ما أمتلىء به قلبه من حقد وحسد فقال: قد أجمع بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار.

فماذا فعل من أجل أن يفرق شملهم ويشتت وحدتهم؟

لقد أمر شاباً يهودياً كان معه، فقال له: أعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعثت وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل.

فتكلم القوم عند ذلك، وحرك فيهم نزعة الجاهلية وعرق العداوة.

فتنازعا وتفاخروا، وتحركت فيهم نوازع العصبية والقبلية، حتى تواب رجلا، أحدهما هو أوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس، والأخر جبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاتلا.

ثم قال أحدهما: إن شئتم - والله - رددناها الآن جذعة.

وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، فخرجوا إليها، وتحاور الناس، وأخذ كل فريق يدعو أتباعه.

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخرج إليهم ومعه المهاجرين وجمع من الأنصار، فقال: يا معشر الأنصار أمتم بالإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم، أفرجعون إلى ما كنتم عليه كفارا.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وعيونهم تذرِف الدمع ندماً، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم البعض.

ثم أنصرفوا مع رسول الله مؤلفة قلوبهم على محبة الله ورسوله، بعد أن صرف الله عنهم كيد عدوهم شاس بن قيس وما صنع.^(١)

وإذا كان الرسول قد نهض في المدينة لمنع الإقتال والفتنة بين الأوس والخزرج حيثما سعى الحاخام اليهودي شاس بن قيس، فالواجب اليوم يفرض على علماء الأمة، وأهل الرأي وأصحاب الاعتدال أن يقتدوا برسول الله، فيهبوا على قلب رجل واحد لنشر روح التآخي بين المسلمين جميعاً، ولنزع فتيل الفتنة الذي يؤججه بعض المتطرفين، والمترمتين، وذوى النزعات والأهواء والأغراض الفئوية والشخصية.

ذلك لأن العصبية أمر خطير، ومسلك وعر، ومنبع للفتن التي تهلك الحرث

(١) يوم بعث هذا هو آخر الحروب بين الأوس والخزرج، أنظر: السيرة النبوية لأبن هشام: ج ١، ص ٥٥٥، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ج ١، ٤٥١، وأنظر البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، سورة المنافقون أية ٨.

والنسل، ولا تتلائم وروح الإسلام، الذي يعتبر الوحدة مقصداً شرعياً، وأساساً إسلامياً، وضرورة دينية ووطنية في كل عصر ومصر.

فالحفاظ على وحدة الصف، ووآد الفتن، تستلزم التضحية والتحمل، والعفو والصفح، والتجاوز عن الأخطاء الناجمة عن الجهل، أو العصبية، أو الولاء للأجنبي والمذهبي، أو غير ذلك.

لأن الفتن سريعة الاشتعال، صعبة الإخماد، كبيرة الخسائر، لاتندمل جراحها إلا بجهد كبير وأمد بعيد، تسلب الاعتدال والاتزان والرؤية الموضوعية، حتى من أصحاب التوازن والاعتدال، إلا من رحم ربي.

وهذا يتطلب الالتزام بكل ما يؤدي إلى وحدة الأمة والتقريب بين المذاهب الإسلامية عبر إشاعة العقلانية المطلوبة، وروح الحوار الإسلامي البناء، والتآلف الصادق، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو مانعبر عنه بحركة التقريب، التي تمتلك جذوراً تمتد إلى أقدم العصور الإسلامية.

لأنها تستمد أصالتها وحيويتها من أصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الأمة في صنع الحضارة الإنسانية، أو الإسهام الفاعل فيها على الأقل.

وقد أثمرت جهود العلماء والمفكرين والمصلحين اتجاهاً عاماً نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية، وميلاً عاماً نحو تغليب لغة الحوار المنطقية، وترجيحاً على أية لغة أخرى، إنسجاماً مع توجهات الإسلام الأصلية، وتناغمًا مع رغبة العالمية نحو هذا الأسلوب فيما بين الحضارات والثقافات والأديان.

والمجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية إذ يستبشر خيراً بهذا الأمر، يرى ضرورة تعميقة في الأذهان والنفوس، لأنه اتجاه علمي ونفسي وخلقى في آن واحد.

يريد أن يتعالى فيه الإنسان المسلم على خلافه في الرأي مع الآخر، ويتغاضى عما يرتبه هذا الخلاف من مقتضيات التنوع في السلوك، وصولاً إلى الموقف الموحد من التحديات الكبرى، والفتن التي تتوجه نحو الأمة، وكذلك من الأمور الداخلية التي هي لوازم الشخصية الواحدة لها.

إلا أن عملية التعميق هذه لن تتحقق، إلا إذا قام العلماء والمفكرين المخلصين بعملية الاستيعاب الكامل للفكرة أولاً، ودراسة تاريخها وآثارها في مسيرة الأمة التاريخية والحضارية (بمنظور القرآن والسنة كما فعل الإمام النورسي رضي الله عنه) ثانياً، وتوعيه الجماهير بها وبآثارها ثالثاً، وبالتالي نقل الفكرة إلى الممارسة العملية اليومية المستمرة، حتى تتحقق ملكة التفاهم، ويسود ذلك الخلق المطلوب.

ولعل الأمر يتطلب التركيز على:

١- استقصاء الدوافع الشخصية والأهواء الذاتية.

٢- عدم استخدام الدين لتحقيق المطامع السياسية، والبعد عن تهيج مشاعر العامة والزج بهم لإثارة القلاقل والثورات والتخريبات وفرضها كواقع عملي لإرغام الساسة من الحكام للرضوخ لتحقيق مطامعهم، وذلك كله بإسم الدين.

لهذا فإن الإمام النورسي يرفض استخدام الدين كأداة لتحقيق الأغراض السياسية، ولكن يجعل من السياسة آلة للدين، فيقول:

«لا نجعل الدين أداة للسياسة، بل نتخذ السياسة آلة، وفي مصالحة ووثام معه»^(١).

فيا ليت هذا القول يصل إلى مسامع الأحزاب والجمعيات السياسية التي ترفع شعار الدين لتهيج مشاعر الأفراد ضد سياسة السلطان حين لا تُلبي مطالبهم، أو تتعارض أهدافهم مع أهداف السلطة القائمة.

ومن ناحية أخرى نرجوا أن يصل كلام النورسي إلى مسامع أرباب السلطة الذين

(١) النورسي؛ الشعاعات، ص ٣٦٣.

يستخدمون الدين كأداة لتحقيق مآربهم من خلال الفتاوى الدينية المطبوعة ببهارات تأويل الأدلة الشرعية.

٣- البعد عن النعرات العنصرية والقومية السلبية، والتعاش والتكامل بإسم الإسلام وتحت رايته.

٤- عدم النباش والتنقيب في قضايا ولت وأدبرت، وأصحابها أصبحوا في ذمة الله، وأمرها والحكم فيها مفوض لله، ولم يثبت أن الله فوض أحداً لنصرة فلان وسب الآخر، ولكن ما هو ثابت أن نقول سمعنا وأطعنا، وأن الصحابة جميعاً رضي الله عنهم صادقون عدول.

هذا بالإضافة إلى أن ما وقع من أحداث لم نراها بأعيننا ولم نكن شهوداً عليها، ولكن روايات وسير، والأصح أن نجعل القرآن والسنة الصحيحة هما المعيار والميزان في كل شيء، بعيداً عن التأويلات التي تخضع للمعايير السياسية والمذهبية والشخصية.

ولعل ما طرحه الإمام النورسي يستحق تسجيله هنا، وهو جواب لسؤال تم توجيهه إليه عن حب آل البيت^(١). فقال: إن الإمام علياً رضي الله عنه هو استاذ رسائل النور، وهو الذي يولي اهتماماً بالغاً برسائل النور في قصيدته «البديعة» بإشارات رمزية، وهو استاذي الخاص في الحقائق الايمانية.

وان محبة آل البيت قد نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اجْراً إِلَّا المودّة في القربى ﴾ (الشورى: ٢٣)

هذه المحبة اساس في مسلكتنا وفي رسائل النور، ويلزم ألا يكون لدى الطلاب الحقيقيين لرسائل النور أي ميل نحو معاداتها.

فالضلالة والزندقة تستغل الاختلاف في هذا العصر، حتى أن هناك تيارات قوية تجعل اهل الايمان في حيرة من امرهم حيث تُبدل الشعائر الاسلامية، ويُشنّ هجوم

(١) النورسي؛ الملاحق، ص٢٩٦.

عنيف على القرآن والإيمان، لذا لا ينبغي فتح باب المناقشة في الامور الفرعية الجزئية التي تسبب الاختلاف ازاء هذا العدو اللدود.

وكذا لا يلزم قطعاً ذم الذين ارتحلوا وذهبوا إلى الآخرة ودار الجزاء، فليس من مقتضى محبة آل البيت - المأمورون نحن بحبهم - بيان تقصيرات اولئك بياناً لاجدوى منه، بل فيه ضرر.. لأجل كل هذا فقد منع أهل السنة والجماعة مناقشة الفتن التي وقعت زمن الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

ولإشتراك الذين بُشّروا بالجنة كالزبير وطلحة، وكذلك أمنا عائشة الصديقة رضي الله عنهم اجمعين في واقعة الجمل، فقد حكم أهل السنة والجماعة على تلك الواقعة؛ انها نتيجة الاجتهاد، وان سيدنا علياً رضي الله عنه كان محقاً وعلى صواب، والآخرون ليس لهم الحق.

ولكن لأن الأمر ناشئ من الاجتهاد فهم معفون.

ثم انهم - أي أهل السنة والجماعة - يرون أن مناقشة أمر البغاة في حرب صفين فيها ضرر، إذ تثير المناقشة نزعتين متضادتين هما: نزعة تقف ضد محبة آل البيت، واخرى تغلو في حبهم «كالرافضة» فيتضرر الاسلام نتيجة ذلك.

لقد قال إمام علم الكلام سعد الدين التفتازاني أنه: «يجوز لعن يزيد» وأمثاله من الظالمين كالحجاج والوليد.

ولكن لم يقل أن «اللعن واجب، أو فيه خير وفضيلة، أو فيه ثواب وأجر» لأن الذين ينكرون القرآن الكريم ويجحدون بالرسول ﷺ ويرفضون صحبة الصحابة الكرام للرسول ﷺ كثيرون جداً لا يعدون ولا يحصون، وهم يصلون ويجولون امامنا.

ومن المعلوم شرعاً أن المرء إن لم يتذكر احداً من الذين يستحقون اللعنة ولم يلعنهم فليس في هذا بأس قط، لأن الذم واللعنة ليسا كالمدح والمحبة، فهما لا يدخلان في الاعمال الصالحة، وإن كان فيهما ضرر فهو ادهى.

وفي الوقت الحاضر، استغل المنافقون بعض العلماء، فأثاروا فيهم نزعة - ضد أهل البيت - علماً أن العلماء هم المأمورون بالحفاظ على الاسلام والحقائق الايمانية، حتى وصل بهم الأمر إلى مهاجمة أهل الحقيقة واتهامهم بانتحالهم نزعة التشيع، ونشب العداة بينهما، بحيث أنزل أولئك المنافقون ضربتهم القاضية بالجهتين معاً، وذلك باستعمال كل منهما ضد الآخر، ووضعه في مجابهته.

فهؤلاء الذين يسعون في انزال الضربة القاضية بالاسلام ماثلون امامنا.. وقد دوّنت جزءاً من هذا في رسالتك.

فمادام ليس هناك أمر شرعي في عدم الذم وفي عدم التكفير، بينما في الذم والتكفير حكم شرعي، فالذم والتكفير إن كانا على غير حق، ففيهما ضرر كبير.

وإن كانا على حق، فلا ثواب فيهما، لان هناك ما لا يحد من الناس ممن يستحقون الذم والتكفير، أي إن عدم التكفير وعدم الذم ليس فيهما حكم شرعي، وليس فيهما ضرر ايضاً.

ولاجل هذه الحقيقة فقد اتخذ أهل الحقيقة وأهل السنة، وفي مقدمتهم الائمة الاربعة، والائمة الاثنا عشر من اهل البيت، اتخذوا لأنفسهم قاعدة سامية، مستندين إلى تلك الحقيقة، فقالوا: لا يجوز مناقشة ما حدث بين المسلمين من الفتن، وليس فيها نفع، بل فيها ضرر.

ثم ان هناك صحابة كرام قد وُجدوا - على آية حال - في كل من الطرفين، فان بحث تلك الفتن يورد إلى القلب شيئاً من الانحياز إلى جهة، مما يولد اعتراضاً أو رفضاً لأولئك الصحابة العظام، أمثال طلحة والزبير رضي الله عنهما من العشرة المبشرين بالجنة.

وحتى لو كان هناك خطأ سبب للاعتراض فهناك احتمال قوي للتوبة.

إنه لا يليق قطعاً بالمؤمن الحصيف، ولا بوظيفته المقدسة في هذا الوقت

أن يهمل الذين ينزلون ضرباتهم القاضية بالاسلام فعلاً ممن يستحقون اللعنة والذم بالوف المرات، ويذهب إلى أزمان غابرة ليتحرى في الاحوال التي لم يأمر الشرع بالتحري فيها، والتي لاجدوى منها، بل فيها ضرر..

وكما جاء في رسالة الإخلاص:

«إن أهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون ايضاً إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتاً كل ما يثير الخلافات والمناقشات، دفعاً لعدوهم المشترك المتعدي، لان الكفر المطلق يشن هجوماً عنيفاً.

إن قسماً من الصحابة قد ظهروا في الجهة المخالفة للإمام علي في تلك الفتن نتيجة، الأخذ بالعدالة النسبية (الاضافية) واتباعاً للرخصة الشرعية، بدلاً من أن يكونوا مع الإمام علي، الذي ألزم نفسه الاخذ بالعدالة الحقيقية (المحضة) والاختذ بالعزائم الشرعية مع مسلكه المتسم بالزهد الشديد والاستغناء عن الناس والتكشف.

فاولئك الصحابة الكرام قد تركوا مسلك الإمام علي، ودخلوا في الصف المخالف له نتيجة هذا الاجتهاد، حتى أن «عقيل» وهو اخو الإمام علي و «ابن عباس» الملقب بحبر الامة، كانا في الصف المخالف للامام لفترة.

ولاجل كل هذا فقد اتخذ اهل السنة والجماعة القاعدة الاساسية الشرعية، وهي عدم جواز فتح ابواب تلك الفتن فقالوا: «من محاسن الشريعة سدّ ابواب الفتن»: وقد طهر الله ايدينا فنطهر ألسنتنا^(١)

لأنه: إن كان هناك بضعة أفراد يستحقون الاعتراض عليهم، إلا ان هذه النزعة، نزعة الانحياز إلى جهة يسوق إلى الاعتراض على أجلاء الصحابة الكرام ممن هم من العشرة المبشرين بالجنة، كالطلحة والزبير رضي الله عنهم، وحتى على قسم

(١) طهر الله ايدينا فنطهر ألسنتنا: من قول عمر بن عبد العزيز، انظر اليواقيت والجواهر للشعراني / ٢ / ٦٩ وشرح جوهرة التوحيد للباجوري ٣٣٤.

من أهل البيت ممن هم في الصف المعارض، فينتبه لدى المعترض عرق العداوة والذم تجاههم.

لهذا فاهل السنة يرجحون سد أبواب الفتن.

حتى أن سعد الدين التفتازاني وهو من ائمة علم الكلام وأهل السنة، الذي جَوَّز تلعين «يزيد والوليد» وتضليلهما، قد انبرى له السيد الشريف الجرجاني، وهو من أجلة علماء أهل السنة قائلاً:

«مع أن يزيد والوليد فاجران وظالمان غداران، إلا أن العلم بانهما قد رحلا إلى الآخرة على غير الإيمان من امور الغيب.

ولأن هذا غيب، ولا يعلم به علماً قاطعاً بأنهم قد تركوا الدنيا على غير الايمان، وليس لنا دليل قطعي، ولا نص جازم على ذلك، وهناك احتمال التوبة، وذهابهما من الدنيا على الايمان، فلاجل هذا لا تجوز اللعنة بمثل هذا التخصيص والتلعين الشخصي، وانما تجوز اللعنة إذا كانت عامة، كأن يقول: لعنة الله على الظالمين والمنافقين وإلا فلا ضرورة لغير هذا النوع من اللعنة، ولالزوم لها، بل لها ضرر».

وهكذا ردّ على سعد الدين التفتازاني.

«إن طرق البحث، أو حتى التفكير في ذلك الجرح العميق الذي أبكي العالم الاسلامي قبل الف وثلاثمائة سنة والذي دفع اهل الحقيقة جميعاً إلى اطلاق الزفرات والحسرات يُولمني المأ لا يطيقه مشربي الخاص. ولا سيما ان خدمة الايمان خدمة حقيقية بالإخلاص - منذ عشرين سنة - قد سحبتني كلياً من ميدان السياسة بكافة انواعها، ولم تدعني لقراءة جريدة واحدة طوال هذه المدة. لذا فاني احمل - مضطراً - حالة روحية تدفعني إلى عدم الالتفات إلى الحياة السياسية، وإيثار حياة الاسر المعذب طوال عشرين سنة التي خلت، وعدم مراجعة الحكومة - سوى دفاعاتي امام المحاكم - لئلا يرد نقص إلى خدمة الايمان، وحفاظاً على الإخلاص من الانتلام،

بل لم اهتم بأخبار الحرب العالمية، ولم اذكر احداً بها طوال عشر سنوات، لثلاث
اتلوث بالسياسة.

إن هناك ضرورة الآن، وهي إنقاذ أهل الايمان من لدغات ثعابين ماردة
تهاجمهم هجوماً شرساً من حيث حقائق الايمان، وتنفض سمومها القاتلة في
الكثيرين أمام انظارنا.

فما دام الوضع هكذا، فإن الانسلاخ من هذا الزمان الحالي، والذهاب إلى عصور
سابقة، ومشاهدة الظلم الرهيب الواقع على أهل البيت، يسحق روحي أكثر، ويفت
في القوة المعنوية ويعذبني عذاباً لا يوصف.

ان الدستور الغادر للسياسيين الظلمة الذين هو: «يُضحى بالفرد لأجل الجماعة»
له وقائع واحداث قاسية ظالمة تحت اسم «أهون الشرين» الذي اتخذه بعض الحكام
نوعاً من انواع العدالة الاضافية (النسبية) وبرزوه لمصلحة ادامة حكمهم.

حتى في هذا العصر، بموجب هذا الدستور الغادر يفني أحدهم قرية كاملة بخطأ
شخص واحد فيها، ويهلك ألوف الناس، لتوهم ضرر قد يلحق بسياستهم من جراء
معارضة عشرة اشخاص.

وحيث إن هذا الدستور الغادر للسياسة قد دخل إلى حد ما بين المسلمين في
العصور الاسلامية، فقد أثر السلف الصالحون السكوت - مضطرين - أمام هذه
الذساتير الرهيبة، فسدت أئمة اهل السنة والجماعة تلك الابواب بقولهم: طهر الله ايدينا
فقطهر ألسنتنا.

وما دام الذين ظلموا أهل البيت يرون عقابهم الآن في الآخرة عقاباً أليماً، بما
لايدع حاجة إلى معاونتنا بالهجوم على الظلمة، وينال أهل البيت المظلومون -
ثواب ما قاسوا من عذاب موقت - درجة عظيمة لا تبلغها عقولنا، لسعتها ورفعتها،
فالأولى إذن تهنتهم بألوف التهاني من حيث نيلهم تلك الرحمة الواسعة، وليس
التألم لحالهم الآن.

إذ مثلما أنهم حازوا ملايين المراتب والسعادات الباقية في الآخرة، مقابل بضع سنين من المتاعب والآلام، كذلك أصبح كل منهم سيداً وسلطاناً معنوياً، وإماماً في عالم الحقيقة، بدلاً من سلطنة دنيوية فانية في مدة حياتهم الدنيوية، وحاكمتها المؤقتة، وسياستها المضطربة، التي لا أهمية لها، وصاروا أئمة الأولياء والاقطاب، بدلاً من ولاية الولايات.

ففوزهم هذا هو فوز عظيم بملايين أضعاف مراتب الدنيا.

ولأجل هذا السر الدقيق، فقد اخذت الحقيقة السابقة من اساتذة سعيد الجديد، وهم الإمام الرباني، والشيخ الكيلاني، والإمام الغزالي، والإمام زين العابدين رضي الله عنهم - حيث تلقيت مناجاة «الجوشن الكبير» من هذين الإمامين - خاصة - وسيدنا الحسين والإمام علي رضي الله عنهم جميعاً.

فالدرس الذي تلقيته منهم لدى ارتباطي بهم ارتباطاً معنوياً دائماً - بواسطة الجوشن الكبير - هو تلك الحقيقة، لذا فالمشرب الحالي الوارد من رسائل النور إذن هو مشربهم الذي ارتشفته من منهلهم. لذا لا ينسجم ومشربنا النظر إلى غدر الظالمين، ولا حتى التفكير فيه، حيث قد نال الظالمون عقابهم، والمظلومون ثوابهم، بما هو فوق طوق عقولنا.

فالانشغال بمثل تلك المسائل يلحق الضرر بالوظيفة القرآنية التي كلفنا بها، ولا سيما والمصائب تنزل تترى على الدين في الوقت الحاضر.

إن علماء علم الكلام، وائمة اصول الدين، والمحققين الافذاذ من علماء اهل السنة والجماعة، بعد إجراء تحقيقات وتدقيقات كثيرة حول العقائد الاسلامية، واقامة المحاكمات العقلية، والموازنات في ضوء الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة، ارتضوا بدساتير في اصول الدين، تلك الدساتير تأمر بالحفاظ على مشرب رسائل النور الحالي، وتمدّها بالقوة.

ومن هنا لا يستطيع أي أحد، حتى لو كان من أهل البدع، وفي أي مكان كان، الاعتراض على مشربنا، ولما كانت حقيقة الإخلاص محفوظة فيه حفظاً تاماً، يستطيع أي نوع من أنواع أهل الإسلام الدخول في دائرة رسائل النور.

فالمتعصب في تشيعه، والمغالي في وهابيته، وأشد الفلاسفة مادية وعمقاً في العلم، وأكثر العلماء انانية وتزمتاً، قد بدأوا بالدخول معاً في دائرة النور، ويعيش قسم منهم الآن اخوة متحابين في تلك الدائرة، حتى أن هناك أمارات بدخول مبشرين نصارى من الروحانيين الحقيقيين في تلك الدائرة، لما يشعرون بضرورة الترابط والمصالحة، طارحين مواد المناقشة والمنازعة جانباً.

بمعنى أن رسائل النور التي أخبر عنها الإمام علي رضي الله عنه بأشارات تبلغ حوالي الأربعين وبدرجة الصراحة أحياناً، هي ضمامد لجروح هذا الزمان. ولهذا كفتنا تلك الدائرة فلا نخرج منها.

إن التعرض لشخص سيدنا علي كرم الله وجهه، ونقد حياته وسياسته الجارية على العدالة المحضة شيء، والتعرض لشخصيته المعنوية، ونقد كمالاته العلمية، ومقام ولايته، ووراثته للنبوّة، التي تفوق ألوف المرات شخصيته الظاهرية، وحياته الدنيوية، وسياسته الاجتماعية شيء آخر، وأتى لأحد الدنو من التعرض لها، أو نقدها، بل لم يرد ذلك قطعاً، ولن يرد.

ومن هنا يبدو رهيباً جداً تعرض الذين يحاولون الجمع بين الجهتين معاً، حيث يورث الحيرة والدهشة في صفوف أهل الايمان، من أنه: هل يمكن ان تحدث فتنة كهذه بين أهل الإيمان؟

علماً أنه عدا اشخاص تافهين خبيثين كيزيد والوليد، فإن القسم الأعظم ممن تعرضوا للإمام علي رضي الله عنه تعرضوا لإدارته الخاصة، وحياته الإنسانية الاجتماعية، فأخطأوا، وليس لكمالاته وكراماته ووراثته للنبوّة.

إن من الضروري ترك العداء الصغير الطفيف الداخلي لدى هجوم الأعداء الضخام الخارجيين، إذ بخلاف ذلك سيكون الأمر في حكم العون للعدو الكبير الخارجي.

ولهذا فعلى المنحازين من المسلمين إلى جهة من الجهات ضمن دائرة الإسلام، أن يتناسوا تلك العداوات الداخلية مؤقتاً، كما تقتضيه مصلحة الإسلام.^(١)

وعلينا أن نضع أمام أعيننا قول الله تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٤)

وقوله تعالى ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٢٥)

٥- إذا كان الله أمرنا بالبر والإحسان إلى أهل الملل الأخرى، والتودد إليهم، والقسط في معاملتهم ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة: ٨). أفلا يكون حرياً أن يكون ذلك بين أهل الملة الواحدة؟.

وإذا كان الله أمرنا بحسن الحوار، واللطف في الكلام، ولين الجانب مع أهل الملل الأخرى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

أفلا يكون من الأجدر أن نتعامل بالحب والمودة، بعيداً عن التشنج والتشدد والتعصب، وأن يؤسس حوارنا كما قال الله لنبيه ومصطفاه ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥)

٦- تحقيق الدستور النوراني الذي أكد عليه الإمام النورسي في المكتوبات:

(١) النورسي: الملاحق ص ٢٩٦-٣٠٣ بتصرف.

«وهو أن يتعامل كل طرف مع الآخر على أساس أن مسلكه حق أو هو أفضل ولكن لا يجوز أن يتعامل مع الآخرين على أساس أن مسلكه هو حق فحسب.

وعليك أن تقول الحق في كل ما تقول، ولكن ليس لك أن تضيع كل الحقائق،
وعليك أن تصدق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صواباً أن تقول كل صدق»^(١).

٧- البعد عن الأحكام التكفيرية والتبديعية والتضليلية، فليس من اللائق أن يتم الحكم على إنسان شهد بالوحدانية وبرسالة سيدنا محمد ﷺ، ويحكم عليه بهذه الأحكام، التي تنافي صريح القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

ورغم أن الإسلام وضح الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان، وحددها بدقة، فإن هذه الظاهرة الغريبة تُستغل حديثاً لإثارة الفتن الطائفية.

وقد زاد الجهل والتعصب الطين بلة، حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلاً لها، فيفتى بغير ما أنزل الله، وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التفكيرية والتكفيرية في عصرنا، مما أدى إلى سفك دماء الأبرياء على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والأمة، وهما من هذه الحالة براء.

٨- عدم التشكيك في النوايا، فإن القلوب بيد الله، والصدور لا يعلم ما بداخلها إلا من خلقها، فعلياً أن نتعامل بحسن الظن، وحسن النوايا، وأن نتلاقى على أساس سلامة الصدر كما كان النبي ﷺ يقابل أصحابه بصدر سليم، وكان يرفض تلقف أي خبر أو كلام يعكس صفو اللقاء.

أضف إلى كل هذا موانع أخرى: كأختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط، واعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله، وسوء ظن طائفة بطائفة أخرى، واعتبار تصورات المذهب من أقوال خصومه، ودخول من ليس أهلاً للحوار، في عملية الحوار. واتباع الأساليب الملتوية للظفر بالآخر، وغير ذلك مما لا يسعنا المجال للتعرض له، والمفروض حذفه، حتى نصل إلى التقريب المطلوب، ونطفئ نار الفتنة في عالمنا الملتهب.

(١) النورسي: المكتوبات ص ٣٣٨-٣٣٩ بتصرف.

وأخيراً لابد من التنويه إلى الملاحظات والنقاط التالية:

١- يدخل الخلاف في إطار الإجتهدات الفقهية أو التاريخية أو العقدية وغيرها، وعلينا الالتزام بمبدأ التعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

فجماعة التقريب متفقون على أن المسلمين كلهم شيعة، لأنهم جميعاً يحبون أهل بيت الرسول، وكلهم سنة، لأنهم جميعاً ملتزمون بالأخذ بسنة الرسول ﷺ الصحيحة، وحب الصحابة وتقديرهم دون تمييز بينهم.

٢- إن السنة والشيعة يجمعهما الإسلام بمنهجه الشامل والكامل (الكتاب والسنة النبوية) والتعدد في الآراء بين المذاهب ترجع إلى طبيعة التفكير الإنساني (الإجتهد)، وليس مرجعها الدين الإسلامي ذاته، فهو دين بكتاب واحد تعهد الله بحفظه، ولكنه يتسم بالمرونة ويشجع على سعة حرية الفكر.

فهي خلافات في التفسير، وليست خلافات حول النص القرآني، أو حول أركان الإسلام، أو حول الإيمان بالله وبالرسول وباليوم الآخر، ولكن المشكلة أن هناك بعض المتشددین من الفريقين، هم السبب في اشتداد الخلاف، وتبادل الاتهامات بالحق وبالباطل.

وقد عمل كل جانب على تشوية الجانب الآخر، وإلصاق التهم به، واختلاق الأكاذيب والأساطير حوله، وعلى ذلك لايجوز معاداة الشيعة أو السنة جميعاً، لإساءة بعض المتطرفين والمغالين منهم.

خاصة وقد أصدر الإمام الشيخ محمود شلتوت، فتواه الشهيرة بجواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، والمعروفة المصادر، ومنها مذهب الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية) وكان لهذه الفتوى صدقاً كبيراً في مختلف البلاد الإسلامية.

٣- الدعوة إلى التقريب ليست دعوة إلى تنازل أصحاب مذهب معين عن مذهبهم، بل هي دعوة إلى التفاهم والتعايش والتكامل، وليست دعوة إلى الإلغاء أو التنازل والإقصاء.

والمهم: أن يكتب في هذا المجال بروح موضوعية، واتجاه تقريبي سليم، يسهم في توفير الجو الصالح والصحيح للحوار.

٤- إن أساليب الحوار القرآنية، هي السبيل الأقوم للوصول إلى الحقيقة، والتفكير بالأهداف العليا ومواجهة التحديات والفتن العاصفة، التي تعمل على نفى ثقافتنا، بل كياننا الاسلامي.

٥- يجب الوقوف صفا واحداً في كل شبهة أو حدث يفرق بين المذاهب السنية والشيعية والزيدية والاباضية، واعتبار أى فتنة تفرق وحدة المسلمين هي من صنع أعداء الإسلام.

٦- يجب التأكيد على حرمة دم المسلمين وعرضه وماله، واستنكار الجرائم المرتكبة بأسم الهوية المذهبية.

٧- علينا التأكيد على فقه الائتلاف، وفقه التقريب والوحدة، ومواصلة الجهود المبذولة سابقاً للتقريب بين أبناء المذاهب الإسلامية، وإظهارها ونشرها، وإزالة العقبات التي تعترضها.

٨- يجب العمل على وقف كل تشويه، أو إساءة للإسلام والمقدسات الإسلامية، ونشر ثقافة احترام كل طرف للآخر، والتعاون والاحترام المتبادل، بحوار هادف يجمع ولا يفرق.

٩- علينا الإكثار من اللقاءات بين علماء الأمة الإسلامية، وإصدار كتب ومؤلفات وبيانات مشتركة ومناقشة مواضع الخلاف بحوار عقلاني، لتعزيز فكرة التقريب والتأخي.

١٠- يجب نقل ثقافة التقريب والتأخي من الأفراد المؤمنين بها، إلى ثقافة دينية في مؤسساتنا التعليمية، ويجب دراسة المذاهب كلها (سنية، وشيعية، وزيدية، وأباضية) في الجامعات والمراكز العلمية باعتبارها نتاج فكر إسلامي، وليست باعتبارها نصوص تعبدية مقدسة.

١١- يجب العمل على إبراز الوجه الحضاري المشرق للإسلام جوهرًا ومسلكًا، بالتمسك بجوهر الدين دون إفراط وتفريط، وإدانة مناهج التكفير العشوائي، والتطرف، والتعصب الأعمى، من أي مصدر كان، مع التأكيد على نهج التوازن والاعتدال والوسطية والسماحة والعفو.

١٢- عدم الإنشغال بلسعات البعوض كما يقول الإمام النورسي: علينا التجرد والابتعاد عن تلك الحالات التي تؤدي إلى التنافس والتحيز والتنازع.

فأسفًا، وألف أسف، لأهل العلم، ولأهل التقوى الضعفاء الذين يتعرضون - في الوقت الحاضر - إلى هجوم ثعابين مرعبة، ثم يتحججون بهفوات جزئية شبيهة بلسع البعوض، فيعاونون بانتقاد بعضهم البعض تلك الثعابين الماردة، ويمدّدون المنافقين الزنادقة بأسباب لتدميرهم وتحطيمهم، بل يساعدونهم في هلاك انفسهم بأيدي اولئك الخبيثاء.

يذكر اخونا المخلص جداً حسن عاطف في رسالته: أن عالمًا واعظًا شيخاً قد اتخذ طوراً يلحق الضرر برسائل النور، حيث حاول التعرض لها بالتهوين من شخصي الضعيف، بحجة تركي لسنة نبوية (اطلاق اللحية) علماً أن ذلك الترك مبني على عذرين مهمين.

أولاً: ليعلم ذلك الشخص، واعلموا أنتم كذلك، انني خادم رسائل النور، ودلال ذلك الدكان.

أما رسائل النور فهي تفسير حقيقي للقرآن الكريم، وهي وثيقة الصلة به، ذلك الكتاب الجليل المرتبط بالعرش الأعظم، لذا لا تسري اخطائي وتقصيراتي الشخصية إلى الرسائل.

ثانياً: بلّغوا ذلك العالم الواعظ عني السلام، فإنني أقبل انتقاده لشخصي، واعتراضه عليّ بتقدير وبرحابة صدر.

وأتم بدوركم لا تسوقوا ذلك العالم الفاضل، ولا أمثاله من العلماء إلى المناقشة والمناظرة.

ولو حدث تعدد وتجاوز علينا، فلا تقابلوه حتى بالدعاء عليهم، إذ أن ذلك المتجاوز أو المعترض أياً كان، هو أخونا من حيث الايمان، لأنه مؤمن.

حتى لو عادانا، فلا نستطيع ان نعاديه بمثل عدائه، حسب ما يرشدنا إليه مسلكنا، لأن هناك أعداء شرسين، وحيات لاذعة، ونحن لا نملك سوى النور، لا الصولجان.

والنور لا يؤلم، بل يلاطف بضياؤه، ولاسيما الذين هم ذوو علم، فلا تثيروا غرورهم العلمي إن كانوا على غرور وانانية، بل استرشدوا ما استطعتم بدستور الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)

فاصفحوا عنه حتى لو كان يحمل خطأً فكرياً.

فليس مثل هذا الشخص الفاضل من ذوي الدين والتقوى المنسوبين إلى الطرق الصوفية، بل حتى من المؤمنين المنسوبين إلى فرق ضالة، لا ينبغي أن نثير معهم نزاعاً وخصاماً في هذا العصر العجيب، بل لا نجعل نقاط اختلاف ونزاع موضع نقاش مع المؤمنين بالله واليوم الآخر حتى لو كانوا من النصارى.

هذا ما يقتضيه هذا العصر العجيب، وما يقتضيه مسلكنا الذي نسلكه، وما تقتضيه خدمتنا المقدسة^(١).

واتباعاً لدستور الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالكَاطِبِينَ الْعَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)

وحفاظاً على إيمان المؤمنين من التصدع، وذلك بالمحافظة على حسن الظن القائم بينهم وبين شيوخهم أو رؤسائهم.

(١) النورسي: الملاحق، ص ٢١٤-٢١٥ بتصرف.

واجتناباً لما يستفيد منه أهل الالحاد من هذه الخصومة بين طائفتين من أهل الحق بجرح الطائفة الأولى بسلاح الأخرى واعتراضاتها، وتهوين شأن الثانية بدلائل الأولى، ثم دحرهما معاً.

على طلبة النور حسب الأسس المذكورة:

ألا يواجهوا المعارضين بالحدة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل.

بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن انفسهم فحسب، مع اظهار روح المصالحة، والاجابة بوضوح عن نقاط الإعتراض، حيث إن الأناية في عصرنا هذا قد تطاولت واشربأت بعنقتها، حتى أصبح كل شخص لا يريد أن يذيب انانيته - التي هي كقطعة ثلج بطول قامته - ولا يرغب في تغييرها، بل يسوّغ لنفسه ويراهها معذورة دائماً، وها هنا ينشأ النزاع والخصومة، ويكون موضع استفادة أهل الباطل والضلال على حساب أصحاب الحق وأهله.

فعلينا بالتأني، وضبط النفس، والثبات، وعدم الولوج في العدا، وعدم التهوين من شأن الآخرين المعارضين.^(١)

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجعله لي ولوالدي ولأستاذنا النورسي وطلبة النور ذخيرة يوم الدين، ومعبراً للفوز بمغفرته ورضوانه وجنته ومحبه وعفوه، وأن يعفو ويغفر عن والدنا وأستاذنا النورسي وطلاب النور ومن سار على نهج محبتهم للإسلام والمسلمين، وأن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله، وأستغفر الله تعالى من أفعالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تصنع تزينا به، وكل علم وعمل قصدناه وجهك فخالطه ما يكدره.

(١) النورسي: الملاحق، ص١٩٩-٢٠٠ بتصرف.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	٩
وحدة الأصل الإنساني	١٦
المبادئ الإسلامية العامة للعلاقات الإنسانية	١٩
لحظة صدق ونظر وتدبر	٢٣
أهم الركائز المشتركة بين المسلمين	٢٨
القرآن يرفض الافتراق والاختلاف	٣٨
القرآن والمذهبية	٤٢
تفعيل مقومات الوحدة والتقريب	٥١
رسالة الأخوة	٥٦
رسالة الإخلاص	٦٩
حرية الحوار	٨٤
التحرر من معوقات تفعيل الوحدة والتقريب	٩٥
التحرر الجهل	٩٥
التحرر من التقليد	٩٩
التحرر من الأنانية والعجب والغرور	١٠٣
التحرر من التعصب	١٠٧
التحرر من العنف	١١٠

١٢٣	منهاج السنة
١٣٥	الصحابة في دائرة بيت النبوة
١٣٩	ذيل رسالة الاجتهاد
١٤٨	سؤال وجواب
١٦١	التفكر في الأخبار الغيبية
١٧٠	الفتن الطائفية وآثارها على العالم الإسلامي ومستقبله
١٩١	فهرس الكتاب

يا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة!

ويا من تنشدون الحق لأجل الحق!

اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرض الاختلاف بتأديبكم بالأدب الفرقاني العظيم، ألا وهو: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، فاعفوا عن هفوات إخوانكم واصفحوا عن تقصيراتهم، وعضوا أبطاركم عن عيوب بعضهم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالأعداء الخارجيون يُغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من أهم واجباتكم الأخروية وأولها بالاهتمام، وامثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من التأخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعري الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونهج الحق المبين بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون، واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف.

سعيد النوربي